

«إن هذا الكتاب ذا الأسلوب المؤثر والواضح والرائع سيغير من الطريقة التي تفكر بها بشأن الأطفال». - ألكس كوتلويتز

مؤلف الكتاب الأعلى مبيعًا وفقًا لصحيفة نيويورك تايمز

كيف ينجح الأطفال

الشجاعة، والفضول، والقوة الخفية للشخصية

بول توج



الغلاف الأمامي

«إن هذا الكتاب ذا الأسلوب المؤثر والواضح والرائع سيغير من الطريقة التي تفكر بها بشأن الأطفال». - ألكس كوتلويتز

مؤلف الكتاب الأعلى مبيعًا وفقًا لصحيفة نيويورك تايمز

كيف ينجح الأطفال

الشجاعة، والفضول، والقوة الخفية للشخصية

بول توج



مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... not just a Bookstore ... ليست مجرد مكتبة ...

حقوق الطبع والنشر

كيف ينجح الأطفال

الشجاعة، والفضول، والقوة الخفية للشخصية

بول توج



للتعرف على فروعنا

نرجو زيارة موقعنا على الإنترنت www.jarir.com

للمزيد من المعلومات الرجاء مراسلتنا على: jbpublications@jarirbookstore.com

تحديد مسؤولية / إخلاء مسؤولية من أي ضمان

هذه ترجمة عربية لطبعة اللغة الإنجليزية. لقد بذلنا قصارى جهدنا في ترجمة هذا الكتاب، ولكن بسبب القيود المتأصلة في طبيعة الترجمة، والنتيجة عن تعقيدات اللغة، واحتمال وجود عدد من الترجمات والتفسيرات المختلفة للكلمات وعبارات معينة، فإننا نعلن وبكل وضوح أننا لا نتحمل أي مسؤولية ونخلي مسؤوليتنا بخاصة عن أي ضمانات ضمنية متعلقة بملاءمة الكتاب لأغراض شرائه العادية أو ملاءمته لغرض معين. كما أننا لن نتحمل أي مسؤولية عن أي خسائر في الأرباح أو أي خسائر تجارية أخرى، بما في ذلك على سبيل المثال لا الحصر، الخسائر العرضية، أو المترتبة، أو غيرها من الخسائر.

الطبعة الأولى 2020

حقوق الترجمة العربية والنشر والتوزيع محفوظة لمكتبة جرير

ARABIC edition published by JARIR BOOKSTORE.

Copyright © 2020. All rights reserved.

لا يجوز إعادة إنتاج أو تخزين هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي نظام لتخزين المعلومات أو استرجاعها أو نقله بأية وسيلة إلكترونية أو آلية أو من خلال التصوير أو التسجيل أو بأية وسيلة أخرى .

إن المسح الضوئي أو التحويل أو التوزيع لهذا الكتاب من خلال الإنترنت أو أية وسيلة أخرى بدون موافقة صريحة من الناشر هو عمل غير قانوني. رجاء شراء النسخ الإلكترونية المعتمدة فقط لهذا العمل، وعدم المشاركة في قرصنة المواد المحمية بموجب حقوق النشر والتأليف سواء بوسيلة إلكترونية أو بأية وسيلة أخرى أو التشجيع على ذلك. ونحن نقدر دعمك لحقوق المؤلفين والناشرين.

رجاء عدم المشاركة في سرقة المواد المحمية بموجب حقوق النشر والتأليف أو التشجيع على ذلك. نقدر دعمك لحقوق المؤلفين والناشرين.

Copyright © 2012 by Paul Tough
All rights reserved.

How Children SUCCEED

Grit, Curiosity, and the
Hidden Power of Character

PAUL TOUGH

كتب أخرى للمؤلف

Whatever It Takes: Geoffrey Canada's Quest

to Change Harlem and America

,How Children Succeed: Grit, Curiosity

and the Hidden Power of Character

إهداء

إلى إيلينجتون، الذي يفضل الكتب التي تتحدث عن شاحنات التفريغ

مقدمة

في صيف عام 2009، وبعد ولادة ابني "إلينجتون" بأسبوعين، قضيت يومًا في فصل مخصص للأطفال في مرحلة ما قبل الحضانة في مدينة صغيرة بولاية نيوجيرسي. ولم تكن هناك علاقة بين كلا الحداثين؛ فقد كنت أزور الفصل رقم 140 في مدرسة ريد بانك الابتدائية؛ لكي أستكشفه باعتباري صحفيًا، ولم يكن ذهابي إلى ذلك الفصل بغرض الاطلاع عليه باعتباري والد أحد الأطفال الجدد، ولقد بدا لي الفصل للوهلة الأولى عاديًا تمامًا؛ فقد كانت الجدران الحجرية ملونة باللون الأصفر المبهج، وكان هناك علم أمريكي موضوع إلى جوار السبورة البيضاء. وكان هناك عدد من الأطفال ينتشرون في أرجاء الفصل ممن تبلغ أعمارهم أربعة أعوام، وكانوا منهمكين بسعادة في ممارسة الألعاب المعتادة لطلاب مرحلة ما قبل الحضانة: فقد كانوا يبنون أبراجًا من المكعبات، ويمررون السيارات عبر الطاومات الرملية، ويجمعون الصور في لعبة أحجية الصورة المقطعة. ومع مرور اليوم أدركت أن ما كان يجري في الفصل رقم 140 كان أمرًا غير معتاد تمامًا في الحقيقة، فقد كان ما يجري في ذلك الفصل يحمل شيئًا من الوضوح وعدم الوضوح في الوقت ذاته. في البداية، كان الطلاب هادئين ومنظمين على نحو لافت؛ فلم يكن هناك أي بكاء في هذا اليوم، أو نوبات من الغضب، أو مشاجرات، ومن الغريب أن المعلمة - وهي امرأة شابة ذات شعر داكن تدعى السيدة ليوناردو - لم تكن تضطر إلى الخروج عن شعورها في محاولة للحفاظ على النظام، أو توجيه سلوك الأطفال بشكل صريح؛ حيث لم يكن هناك أي تحذير أو إنذار بعدم الحصول على نجمة ذهبية، أو فترة استراحة، ولم تكن هناك إشادة بانتباه البعض دون غيرهم؛ أي لم تكن هناك في الواقع مكافآت للسلوك الجيد، أو عقاب للسلوك السيئ على الإطلاق.

وقد التحق طلاب ذلك الفصل ببرنامج يدعى أدوات العقل 1، وهو عبارة عن منهج جديد نسبيًا للحضانات ومرحلة ما قبل الحضانة، وقد وضع هذا المنهج اثنان من القائمين على التربية في مدينة دينفر في ولاية كولورادو الأمريكية، حيث أسس على نظرية غير

تقليدية في مجال تنشئة الطفل. إن معظم الفصول المخصصة لمرحلة الطفولة المبكرة في الولايات المتحدة أصبحت الآن مصممة بحيث تنمي في الأطفال عددًا من المهارات الخاصة التي تسبق المهارات الأكاديمية، ومعظم هذه المهارات تتعلق بقراءة النصوص ومعالجة الأرقام، ولكن أدوات العقل لها شأن مختلف، فهي لا تولي القدرة على القراءة والحساب تركيزًا كبيرًا، بل يهدف دورها بشكل كامل إلى مساعدة الأطفال على تعلم نوع مختلف من المهارات؛ وهو: التحكم في اندفاعاتهم، ومواصلة التركيز على المهمة التي يعملون عليها، وتجنب المشتتات والأفكار الخادعة، والتحكم في انفعالاتهم، وتنظيم أفكارهم. ويرى مؤسسو أدوات العقل أن هذه المهارات التي يضعونها تحت عنوان التنظيم الذاتي ستؤدي إلى الكثير من الأمور التي ستقود إلى تحقيق نتائج إيجابية لطلابهم في الصف الأول وما بعده، وذلك مقارنة بالقائمة التقليدية لمهارات ما قبل التحصيل الدراسي.

إن الطلاب الذين يطبق عليهم منهج أدوات العقل يتلقون تعليمهم من خلال عدد من الإستراتيجيات والحيل والعادات التي يمكنهم استخدامها لإبقاء أذهانهم في حالة من التركيز، فيتعلمون استخدام "الحديث الشخصي": وهو تحدثهم إلى أنفسهم أثناء أدائهم مهمة صعبة (مثل كتابة شكل الحرف W بالإنجليزية)، وهذا الحديث إلى النفس يساعدهم على تذكر الخطوة التالية (النزول بالقلم إلى أسفل والصعود به إلى أعلى، ثم إلى أسفل، ثم إلى أعلى حتى يكتبوا الحرف). ويستخدمون "عناصر وسيطة"؛ وهي أشياء ملموسة تذكرهم بكيفية إتمام نشاط معين (كأن تكون هناك بطاقتان إحداها مرسوم عليها شفة، والأخرى مرسوم عليها أذن، فإحداها تشير إلى من سيقوم بالقراءة الجماعية بصوت عالٍ، والأخرى تشير إلى من سيستمع). وفي كل صباح يملأون استمارات "خطط اللعب"؛ حيث يكتبون أو يرسمون وصفًا للألعاب التي سيلعبونها في ذلك اليوم: سوف أقود القطار، سوف أأخذ الدُمى إلى الشاطئ. ويقضي أولئك الطلاب ساعات طويلة في أداء "مسرحيات درامية للبالغين"؛ وهي عبارة عن سيناريوهات خيالية معقدة ومطولة يرى مصممو أدوات العقل أنها تعلم الأطفال اتباع القواعد وتنظيم الاندفاعات بشكل طبيعي.

وعندما رأيت الأطفال في الفصل رقم 140، وجدت أنني أفكر في إينجتون على الفور؛ ذلك الطفل الصغير ذي الصوت الرقيق الذي يبكي وينتحب في شقتنا الصغيرة في مانهاتن، التي تبعد عن هذا المكان نحو خمسين كيلومترًا، كنت أعرف أنني أريد له حياة ناجحة وسعيدة، ولكنني لم أكن أعرف ما يعنيه ذلك تحديدًا، أو لم أكن أعرف ما الذي يفترض بي أنا وزوجتي أن نفعله لتوجيه طفلنا إلى تلك الحياة. ولم أكن الوحيد الذي يعايش هذا الارتباك، فقد وُلد إينجتون في لحظة يشوبها القلق من تاريخ التربية في أمريكا. وقد نما ذلك القلق في المدن تحديدًا مثل مدينة نيويورك، حيث يصل التنافس على الأماكن المحدودة في روضات الأطفال المميزة إلى حد المعارك العنيفة. وهناك اثنان من علماء الاقتصاد من جامعة كاليفورنيا قاما مؤخرًا بإطلاق لقب سباق فئران السجادة 2 على هذه المسابقات التنافسية المنتشرة في جميع أنحاء البلاد من أجل التحصيل الدراسي المبكر، ويتسع نطاق هذا السباق عامًا تلو آخر، كما يبدأ كل عام في وقت مبكر مقارنة بالسنة الماضية. فقبل ميلاد إينجتون بعامين حصلت المراكز التعليمية التابعة لسلسلة كومون على ترخيص لفتح أول مقر لها في نيويورك، حيث يقضي الأطفال البالغون من العمر عامين فترة الصباح في ملء أوراق العمل، وإكمال اختبارات التعرف على الحروف والأرقام، وقد صرح المدير المالي لشبكة كومون التعليمية لأحد الصحفيين في جريدة نيويورك تايمز قائلاً: "إن سن الثالثة هي السن الأنسب 3، ولكن إذا كان بمقدور الطفل أن يجلس هادئًا دون ارتداء حفاضة مع المعلم مدة 15 دقيقة؛ فسوف نقبله".

وهكذا سيتزعرع إينجتون في بيئة مشبعة بفكرة يمكنك أن تطلق عليها الفرضية المعرفية: وهو الاعتقاد - الذي نادرًا ما يتم التعبير عنه علنًا، ولكنه موجود على الرغم من ذلك - أن النجاح يعتمد اليوم بصورة أساسية على المهارات المعرفية؛ أي الذكاء الذي يُقاس من خلال مقاييس الذكاء، ويشمل القدرة على التعرف على الحروف والكلمات، والقدرة على الحساب واكتشاف الأشكال النمطية - وأن أفضل طريقة لتطوير هذه المهارات تتمثل في ممارستها كثيرًا قدر الإمكان، ويفضل أن يكون ذلك في وقت مبكر بقدر الإمكان، لقد أصبحت الفرضية المعرفية مقبولة عالميًا لدرجة أنه من السهل أن تنسى أنها فكرة جديدة

نسبيًا، ويمكنك أن ترجع الظهور المعاصر لهذه الفرضية 4 إلى عام 1994 عندما نشرت مؤسسة كارنيجي تقريرًا تحت عنوان: *Starting Points: Meeting the Needs of Our Youngest Children* وقد بدا هذا التقرير حينها بمنزلة إنذار متعلق بالنمو المعرفي لأطفالنا، ووفقًا للتقرير، فقد كانت المشكلة متمثلة في أن الأطفال لم يعودوا يتلقون التحفيز المعرفي الكافي خلال السنوات الثلاث الأولى في حياتهم، كما أن زيادة أعداد الأسر التي يعولها شخص واحد، أو التي تكون الأمهات فيها من العاملات، قد أسهمت بصورة جزئية في المشكلة؛ حيث يكون الأطفال غير مستعدين للتعلم عند وصولهم إلى سن الحضانة، وقد أدى هذا التقرير إلى انطلاق صناعة كاملة تقوم على بناء المهارات العقلية للأطفال "منذ الولادة إلى سن ثلاثة أعوام"، وهذه الصناعة تقدم منتجاتها إلى الآباء والأمهات الذين لديهم قلق تجاه هذا الأمر. فهناك الكتب، والصالات الرياضية لممارسة الأنشطة، وفيديوهات الطفل أينشتاين، والأسطوانات المدمجة التي تباع بمليارات الدولارات.

كما كان للاكتشافات التي توصلت إليها مؤسسة كارنيجي والدراسات التي أعقبتها تأثير قوي في السياسة العامة أيضًا. فقد توصل المشرعون والقائمون على الأعمال الخيرية إلى أن الأطفال المحرومين كانوا متخلفين عن الركب منذ وقت مبكر من حياتهم بسبب نقص التدريب على المهارات المعرفية، وقد توصل علماء النفس وعلماء الاجتماع إلى أدلة تربط ضعف التحصيل الدراسي للأطفال ذوي المستوى السيئ بنقص التحفيز اللفظي والرياضي في المنزل وفي المدرسة، ومن أشهر هذه الدراسات التي أجراها أولئك العلماء (وهي دراسة كتبت عنها في أول كتاب لي 5، الذي كان تحت عنوان: *Whatever It Takes*)، دراسة أجراها "بيتي هارت" و"تود ريسلي"؛ وهما من العلماء المتخصصين في علم نفس الطفل، حيث بدأ في ثمانينيات القرن الماضي في دراسة مكثفة لمجموعة من الأطفال، مكونة من اثنين وأربعين طفلًا، ينتمون إلى طبقة أرباب المهن الحرة والطبقة العاملة والأسر المرفهة في مدينة كنساس الأمريكية، وقد اكتشف كلاهما أن الفارق الرئيسي في تنشئة الأطفال والسبب في تفاوت نتائجهم فيما بعد، إنما يرجع إلى شيء واحد، وهو: عدد

الكلمات التي سمعها الأطفال من والديهم في مرحلة مبكرة من حياتهم، وتوصل "هارت" و"ريسلي" إلى أن الأطفال الذين نشأوا على أيدي والدين من طبقة أرباب المهن الحرة كانوا قد سمعوا ثلاثين مليون كلمة بوصولهم سن الثالثة، بينما كان الأطفال الذين نشأوا في الأسر المرفهة قد سمعوا عشرة ملايين كلمة فقط بوصولهم إلى هذه السن نفسها، وتوصل الباحثان إلى أن هذا النقص كان هو السبب الجذري لفشل الأطفال الأكثر ضعفًا بعد ذلك في الدراسة والحياة.

وهناك أمر لا يمكن تجاهله بشأن الفرضية المعرفية؛ وهو أنها تقدم عالمًا غاية في النظام والدقة والوضوح، يجعل وجود معطيات في جانب معين تترتب عليه نتائج في جانب آخر، فقلة الكتب في المنزل تعني ضعف مهارة القراءة، وقلة عدد الألفاظ التي يتلفظ بها الوالدان تعني قلة حصيلة المفردات اللغوية لدى أطفالهما. وكثرة عدد اختبارات الحساب في برنامج جونيور كومون تعني تحقيق درجات أعلى في مادة الرياضيات. وفي بعض الأحيان تبدو الارتباطات دقيقة بشكل هزلي: فقد توصل كل من "هارت" و"ريسلي" إلى أن الطفل الذي نشأ في أوساط الطبقة المرفهة يحتاج تحديدًا إلى إحدى وأربعين ساعة من التعلم المكثف للغة كل أسبوع، كي يتمكن من سد الفجوة بينه وبين الطفل الذي ينتمي إلى الطبقة العاملة من حيث حصيلة المفردات اللغوية.

ولكن في العقد المنصرم، وبخاصة السنوات القليلة الماضية، بدأت جماعة أخرى من علماء الاقتصاد والمربين وعلماء النفس وعلماء الأعصاب في إظهار أدلة تشكك في العديد من الافتراضات التي تقوم عليها الفرضية المعرفية، وتقول هذه المجموعة إن كمية المعلومات التي يمكن تلقينها للطفل في سنواته الأولى ليست هي أهم ما يؤثر في تنشئته؛ بل ما يؤثر هو قدرتنا على مساعدة الطفل على التحلي بمجموعة مختلفة تمامًا من الصفات، منها: المثابرة والتحكم في الذات والفضول والاجتهاد والعزيمة والثقة بالنفس، ويشير علماء الاقتصاد إلى هذه الصفات بالمهارات غير المعرفية، بينما يسميها علماء النفس سمات الشخصية، أما بقية الناس فينظرون إليها أحيانًا بوصفها هي الشخصية.

والفكرة الأساسية التي تقوم عليها الفرضية المعرفية - وتتمثل في أن البدء في وقت مبكر قدر الإمكان مع الإكثار من التدريب هو أهم شيء للتحلي بأية مهارة من المهارات - تعتبر صالحة تمامًا بالنسبة إلى بعض المهارات، فإذا كنت تريد مثالاً أن تتقن الرميات الحرة، فإن ممارستها مائتي مرة كل يوم بعد الظهيرة ستساعدك على إتقانها أكثر مما لو مارستها عشرين مرة فقط، وكذلك إذا كنت في الصف الرابع، فإن قراءة أربعين كتاباً في الإجازة الصيفية ستحسن من قدرتك على القراءة أكثر كثيراً مما لو قرأت أربعة كتب فقط، وبعض المهارات تعتبر تلقائية بشكل كبير، ولكن عندما يتعلق الأمر بتنمية العناصر الأكثر دقة في الشخصية الإنسانية، فإن الأمور لا تكون بهذه البساطة؛ حيث لا يمكننا أن نتغلب على الإحباط بصورة أفضل بمجرد مواجهته بجد ساعات أطول. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الأطفال؛ فلن تقل نسبة الفضول لديهم بسبب عدم تلقيهم اختبارات عن الفضول في فترة مبكرة من حياتهم. ولا شك في أن طريقة اكتسابنا هذه المهارات أو فقداننا إياها ليست عشوائية؛ فقد تعلم علماء النفس وعلماء الأعصاب خلال العقود القليلة الماضية الكثير عن كيفية اكتساب هذه المهارات والتحلي بها، ولكنها معقدة وغير مألوفة، وكثيراً ما تكون غامضة تماماً.

إن هذا الكتاب يتعلق بفكرة تزداد وضوحاً يوماً بعد يوم، وتكتسب زخماً متزايداً في الفصول الدراسية، والعيادات، والمختبرات، وقاعات المحاضرات في داخل البلاد، وفي سائر أنحاء العالم. ووفقاً لهذه الطريقة الجديدة في التفكير، فإن الحكمة التقليدية في تنشئة الأطفال التي سادت على مدار العقود القليلة الماضية قد ظهر خطأها؛ فلقد كنا نركز على المهارات والقدرات التي لا تناسب أطفالنا، وكنا نستخدم الإستراتيجيات الخطأ في غرس وتعليم هذه المهارات. ومع هذا فربما يكون من السابق لأوانه أن نسمي هذه النظرية مدرسة جديدة من مدارس الفكر، ففي الكثير من الحالات كان الباحثون الذين يضيفون إلى هذا الرصيد المعرفي المتزايد يعمل بعضهم بمعزل عن بعض، ولكن بدأ هؤلاء العلماء والمربون توحيد جهودهم وتكوين الروابط بين فروع التخصصات الأكاديمية المختلفة؛ ما

يتيح للبراهين التي يجمعونها أن تغير الطريقة التي نربي بها أطفالنا، وندير بها مدارسنا، والكيفية التي نبني بها شبكة الأمان الاجتماعي لدينا.

وإذا كان هناك شخص في بؤرة هذه الشبكة من التخصصات المتعددة فهو "جيمس هيكرمان"، عالم الاقتصاد في جامعة شيكاغو. وربما لم يكن لـ "هيكرمان" ذلك الأثر الكبير الذي يجعله يقود تحدي تفوق المهارات المعرفية، فهو مفكر أكاديمي كلاسيكي، يرتدي نظارة ذات عدسات سميكة، وقد حقق معدلًا فائقًا على مقياس الذكاء، ودائمًا ما يحمل أقلام الرصاص الميكانيكية التي تبرز من جيب قميصه. لقد نشأ "هيكرمان" في شيكاغو، وعاش فيها في أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي، وكان والده يعمل مديرًا في إحدى شركات تعليب اللحوم، ولم يلتحق أي من والديه بالتعليم الجامعي، لكنهما كانا يدرسان منذ وقت مبكر أن ابنهما يمتلك عقلًا فائقًا، وفي سن الثامنة، قرأ "هيكرمان" نسخة كانت لدى والده من كتاب شهير عن المساعدة الذاتية يسمى *30 Days to a More Powerful Vocabulary*، وفي التاسعة من عمره، ادخر بعضًا من نقوده المعدنية، وقام بطلب كتاب يدعى *Mathematics for the Practical Man* بالاستعانة بالغلاف الخلفي لإحدى المجلات الهزلية. كان هيكرمان يجيد الرياضيات، وكان مشغولًا بحل المعادلات في المنزل أكثر من أي شيء آخر. وعندما كان مراهقًا كان يتسلى بقسمة الأرقام الطويلة في عقله، وتحويلها إلى أعدادها الأولية التي تشكل قواسمها الأصغر - وهذا ما يسميه الرياضيون بالتحليل إلى الأعداد الأولية، وقد أخبرني بأنه لما أتم السادسة عشرة كان أول ما قام به عندما تلقى رقم التأمين الاجتماعي الخاص به عبر البريد هو تحليله إلى أعداده الأولية.

أصبح "هيكرمان" أستاذًا للاقتصاد في جامعة كولومبيا، ثم في جامعة شيكاغو، وفي عام 2000 فاز بجائزة نوبل في الاقتصاد عن اختراعه طريقة إحصائية معقدة في سبعينيات القرن الماضي. وكان "هيكرمان" يشتهر بمهارته في الاقتصاد القياسي من بين غيره من علماء الاقتصاد، والاقتصاد القياسي عبارة عن نوع غامض من التحليل الإحصائي الذي لا يكون مفهومًا إلا للمتخصصين في الاقتصاد القياسي. لقد حضرت عددًا من المحاضرات مع "هيكرمان"، ومع أنني بذلت كل ما في وسعي لأستمر في تلك المحاضرات، فقد كان من

المستحيل لرجل عادي مثلي أن يتابع معظمها لما تتضمنه من معادلات وعبارات مربكة، مثل وظائف ليونتييف المعممة، ومرونة الإحلال لـ هيكس - سلاتسكي؛ ما جعلني أرغب في وضع رأسي على المكتب وإغماض عيني.

ومع أن أساليب هيكرمان تبدو مبهمة، فإن المواضيع التي اختار أن يركز عليها كانت واضحة تمامًا، وفي السنوات التي تلت حصوله على جائزة نوبل استغل قوة هذا التكريم ونفذه لا لترسيخ سمعته في مجاله، بل لزيادة مساعيه وتأثيره في مجالات بحثية جديدة لم يكن يسمع بها من قبل، أو لم يكن يعرف عنها سوى القليل، ومنها علم نفس الشخصية والطب وعلم الوراثة (وهو بالفعل يمتلك نسخة من كتاب *Genetics for Dummies* على رف مكتبته التي تحمل الكثير من الكتب، وقد وضع هذا الكتاب بين كتابين كبيرين عن التاريخ الاقتصادي). ومنذ عام 2008 دأب "هيكرمان" على عقد مؤتمرات منتظمة مخصصة للمتخصصين فقط، تحضرها أعداد متساوية من علماء الاقتصاد وعلماء النفس ممن تشغلهم جميعًا أسئلة واحدة بشكل أو بآخر: ما السمات والمهارات التي تؤدي إلى النجاح؟ كيف يتم اكتسابها في مرحلة الطفولة؟ وما نوعية التدابير التي من الممكن أن تساعد الأطفال على التحول نحو الأفضل؟

ويشرف "هيكرمان" على مجموعة مكونة من أربعة وعشرين طالبًا من خريجي الجامعة ممن ولدوا في الخارج، ويتوزع الباحثون على مبنيين في الحرم الجامعي لجامعة شيكاغو. ويشيرون بشيء من الفكاكة إلى الكيان الذي يجمعهم باسم هيكرمان لاند أو أرض هيكرمان، ودائمًا ما يعمل هؤلاء الباحثون معًا على عدد من المشاريع دفعة واحدة، وعندما يتحدث هيكرمان عن عمله، تراه يقفز من موضوع إلى آخر؛ فهو مولع بالدراسة التي أجريت على القروء في ماريلاند، ودراسة التوائم في الصين، وبتعاونه مع أحد الفلاسفة بشأن حقيقة الفضيلة (وفي أحد حواراتي معه، سألته أن يبين لي كيف تلتقي الخيوط المختلفة لأبحاثه بعضها ببعض. وبينما كانت مساعدته تسير معي إلى الخارج استدارت نحوي، وقالت: "إذا اكتشفت كيف تلتقي تلك الخيوط بعضها ببعض، فأخبرنا بذلك").

وترجع جذور التحول الذي حدث لـ "هيكمان" في مساره المهني إلى دراسة كان يقوم بها في أواخر تسعينيات القرن الماضي عن برنامج اختبار تطوير التعليم العام - يعرف بـ GED اختصارًا - حيث كان هذا البرنامج في ذلك الوقت طريقة معروفة للحصول على دبلومات معادلة للمرحلة الثانوية، وذلك بالنسبة إلى من انقطعوا عن الدراسة خلال المرحلة الثانوية. وقد كان يُنظر إلى هذا البرنامج في العديد من الجهات باعتباره أداة تتيح تكافؤ الفرص في المجال الأكاديمي؛ حيث تتيح للطلاب الفقراء والطلاب الذين ينتمون إلى الأقليات المختلفة - وهذه النوعية من الطلاب هي التي كان من المحتمل أن تتخلف عن الالتحاق بالمدارس الثانوية - مسارًا بديلًا يمكنهم من الالتحاق بالكلية.

وقد تأسس انتشار اختبار تطوير التعليم العام على نسخة من الفرضية المعرفية: اعتقاد أن المهارات المعرفية هي ما تنميه المدارس، وتشهد به في النهاية الشهادة الثانوية. فإذا كان الشخص اليافع لديه بالفعل المعرفة والذكاء اللازمان للحصول على الشهادة الثانوية، فليس عليه بالضرورة إذن أن يضيع وقته في إنهاء المرحلة الثانوية؛ إذ يمكنه فقط أن يدخل اختبارًا يقيس تلك المعرفة والمهارات، وعندها يُمنح شهادة رسمية تشهد بأنه أتم المرحلة الثانوية، وأنه مهياً كغيره للالتحاق بالكلية، أو إكمال التعليم الذي يلي المرحلة الثانوية أيًا كان نوعه. وهذه الفكرة جذابة خاصة بالنسبة للشباب الذين لا يمكنهم الالتحاق بالمدارس الثانوية، وقد حقق هذا البرنامج انتشارًا سريعًا منذ تقديمه للمرة الأولى في خمسينيات القرن الماضي. وعندما كان ذلك البرنامج في ذروة نجاحه في عام 2001، كان هناك أكثر من مليون شاب قد خاضوا هذا الاختبار، وكان هناك شخص يحمل شهادة اختبار تطوير التعليم العام من بين كل خمسة طلاب جدد "يتخرجون" في المدارس الثانوية (وهذا الرقم أصبح الآن في حدود شخص واحد من بين كل سبعة طلاب).

لقد أراد "هيكمان" أن يدرس عن كثب فكرة أن الشباب الحاصلين على برنامج تطوير التعليم العام مهياون تمامًا للتقدم في المسارات الأكاديمية التي تلي التعليم الثانوي، شأنهم في ذلك شأن خريجي المدارس الثانوية، فقام بتحليل عدد من قواعد البيانات القومية الكبيرة، واكتشف أن هذا الرأي كان صحيحًا من نواحٍ عديدة، فوفقًا لدرجات الحاصلين

على برنامج تطوير التعليم العام في الاختبارات التحصيلية - التي ترتبط بمستوى الذكاء إلى حد كبير - تبين أنهم لا يقلون ذكاءً عن خريجي المدارس الثانوية، ولكن عندما نظر "هيكمان" إلى مساره في التعليم العالي اكتشف أنهم يختلفون تمامًا عن خريجي المدارس الثانوية، فقد وجد "هيكمان" أن ثلاثة في المائة فقط من الطلاب الحاصلين على برنامج تطوير التعليم العام ممن يبلغون 22 عامًا هم من التحقوا بالجامعات التي تستمر الدراسة فيها أربعة أعوام، أو حصلوا على درجة علمية أعلى من الثانوية العامة، وذلك مقارنة بـ 46% من خريجي المدارس الثانوية، كما اكتشف في الحقيقة أن الحاصلين على برنامج تطوير التعليم العام لا يختلفون عمن لم يلتحقوا بالتعليم الثانوي من الأساس، إذا ما أخذنا في الاعتبار جميع الأهداف المستقبلية المهمة - الدخل السنوي، ومعدل البطالة، ومعدل الطلاق، وتعاطي المواد المخدرة - وذلك على الرغم من حصولهم على شهادة ذات قيمة، وعلى الرغم من أنهم في المتوسط يكونون أكثر ذكاءً ممن لم يُتموا المرحلة الثانوية.

ومن وجهة نظر سياسية، كان هذا الاكتشاف مفيدًا، ولكنه محبط في الوقت ذاته؛ لأن هذا البرنامج كان عديم الجدوى على المدى البعيد، وإن بدا وسيلة لتحسين حياة الأفراد. ولربما كان له تأثير سلبي عام، حيث إنه قد أغرى الشباب بترك المدارس الثانوية. ولكن بالنسبة إلى "هيكمان" فقد كانت النتائج معضلة فكرية مربكة؛ فقد اعتقد مثل معظم الاقتصاديين أن القدرة المعرفية كانت هي العامل المحدد الوحيد الذي يعول عليه بشكل أكبر من غيره في الكيفية التي يمكن من خلالها إحداث تحول في حياة الفرد، وإذ به الآن يكتشف أن مجموعة - من الحاصلين على برنامج تطوير التعليم العام - ممن حصلوا على درجات جيدة في الاختبار، قد تبين أنه لم يكن لهذا الاختبار الذي تم اجتيازه أي تأثير إيجابي في حياة أفرادها.

وقد خلاص "هيكمان" إلى أن السمات النفسية لم يكن لها وجود في المعادلة، وهذه السمات هي التي أتاحت لخريجي المدارس الثانوية التقدم في الدراسة. وقد تبين أن هذه السمات - أي الرغبة في المثابرة في القيام بالمهام المملة التي غالبًا ما تكون غير مجدية، والقدرة على تأجيل الشعور بالرضا، والميل إلى الاستمرار في اتباع الخطط - لها أهمية في مرحلة

الكلية، وفي بيئة العمل، وفي الحياة بصفة عامة. وكما شرح "هيكمان" في أحد أبحاثه قائلاً: "لقد تحول اختبار تطوير التعليم العام إلى اختبار يفصل بين التخلف عن التعليم الثانوي، الذي لا يكون تخلقاً ممنهجاً ومقصوداً، وبين غيره من أسباب التخلف عن التعليم"7. ويقول: "إن الحاصلين على برنامج تطوير التعليم العام (أشخاص حكماء)، ولكن تنقصهم القدرة على التفكير في المستقبل، والاستمرار في أداء المهمات أو التكيف مع بيئاتهم".

أما الشيء الذي لم تمنحه دراسة تطوير التعليم العام "هيكمان"، فهو وجود مؤشر يحدد ما إن كان من الممكن للأطفال أن يكتسبوا هذه المهارات الشخصية أم لا، وقد قاده بحثه عن إجابة لهذا السؤال - منذ عقد تقريباً - إلى مدينة يبسيلانتي التي تقع في ولاية ميشيجان الأمريكية؛ وهي مدينة صناعية قديمة تقع في غرب مدينة ديترويت. وفي أواسط الستينيات وبداية أيام الحرب على الفقر قامت مجموعة من علماء النفس المتخصصين في علم نفس الأطفال والباحثين التربويين بإجراء تجربة طُلب فيها من الآباء والأمهات ذوي الدخل المتواضع ونسب الذكاء المنخفضة، أن يسجلوا أطفالهم الذين تتراوح أعمارهم بين الثالثة والرابعة ببرنامج بيرري لرياض الأطفال، وكان هؤلاء الآباء والأمهات يسكنون في حي المواطنين الذين ينتمون إلى أصول أفريقية، وتم تقسيم الأطفال عشوائياً إلى مجموعة معالجة ومجموعة ضابطة. وُسِّمَ للأطفال الموجودين في مجموعة المعالجة بالدخول إلى برنامج بيرري - وهو برنامج عالي الجودة يستمر مدة عامين قبل المدرسة - أما الأطفال الموجودون ضمن المجموعة الضابطة، فقد تركوا ليعتنوا بأنفسهم، وبعد ذلك تمت متابعة هؤلاء الأطفال ليس طيلة عام أو عامين فقط، بل استمرت متابعتهم عقوداً؛ حيث كانت الدراسة تهدف إلى متابعتهم طوال حياتهم، وقد أصبح هؤلاء الأطفال في الأربعينيات من العمر الآن، ما يعني أن الباحثين كانوا قادرين على تعقب تأثيرات تدخل برنامج بيرري على نحو جيد في فترة المراهقة.

ويشتهر مشروع بيرري لرياض الأطفال في أوساط العلوم الاجتماعية، وقد مر به "هيكمان" مروراً عابراً عدة مرات من قبل في حياته المهنية، وكحالة من حالات التدخل في فترة

الطفولة المبكرة، فإن هذه التجربة دائماً ما يُنظر إليها باعتبارها تجربة فاشلة، فالأطفال الذين كانوا ضمن مجموعة المعالجة كانوا أفضل من غيرهم في الاختبارات المعرفية أثناء وجودهم في رياض الأطفال، واستمر هذا التأثير مدة عام أو عامين بعد ذلك، ولكن تأثير البرنامج لم يدم أكثر من ذلك، فبدخولهم إلى الصف الثالث الابتدائي كانت درجاتهم على مقياس الذكاء لا تزيد على درجات المجموعة الضابطة، ولكن عندما أخذ "هيكمان" وغيره من الباحثين ينظرون إلى النتائج طويلة الأمد لبرنامج بيرى، بدت المعلومات التي توصلوا إليها مبشرة بشكل كبير، فقد ثبت أن الفوائد المتعلقة بالذكاء لم تكن دائمة لدى الأطفال الذين خضعوا لبرنامج بيرى. ولكن هؤلاء الأطفال قد حدث لهم شيء مهم في مرحلة رياض الأطفال؛ وأياً كان هذا الشيء الذي حدث لهم، فقد امتدت تأثيراته الإيجابية عقوداً، وبمقارنة الطلاب الذين كانوا ضمن المجموعة الضابطة مع الطلاب الذين خضعوا لبرنامج بيرى، تبين أن هناك احتمالاً أكبر بأن يتخرج الطلاب الذين خضعوا للبرنامج في المدارس الثانوية 8، وأن تكون لديهم وظائف في السابعة والعشرين من العمر، وأن يجنوا ما يزيد على خمسة وعشرين ألف دولار في السنة عند بلوغهم سن الأربعين، كما تقل احتمالية تعرضهم للاعتقال من قبل الشرطة، وكذلك تقل احتمالية قضاء أوقاتهم في الترفيه.

وبدأ "هيكمان" يبحث دراسة بيرى بشكل أكثر تعمقاً، وعلم أن الباحثين كانوا قد جمعوا بعض البيانات عن الطلاب في فترة الستينيات والسبعينيات من القرن المنصرم، ولكن هذه البيانات لم يتم تحليلها أبداً: فقد كانت هناك تقارير من المعلمين في المدرسة الابتدائية تصنف الأطفال الذين كانوا في مجموعة المعالجة والمجموعة الضابطة من حيث "السلوك الشخصي" و"النمو الاجتماعي" 9، وكان الجانب الأول المتمثل في "السلوك الشخصي" يتعقب سلوك كل طالب من حيث عدد مرات الحلف، أو الكذب، أو السرقة، أو الغياب، أو التأخير. أما الجانب الثاني، فكان يصنف مستوى الفضول لدى الطالب، بالإضافة إلى علاقته بزملائه في الفصل وعلاقته بمعلميه. وقد صنف "هيكمان" هذه المهارات غير المعرفية؛ لأنها كانت منفصلة تماماً عن نسبة الذكاء. وبعد ثلاثة أعوام من التحليل الدقيق، تمكن "هيكمان" ومن معه من الباحثين من التثبت من أن هذه العوامل غير المعرفية - مثل

الفضول والتحكم في الذات والانسيابية الاجتماعية - كانت سببًا لثلاثي الفوائد التي حصل عليها الطلاب من خضوعهم لبرنامج بيرلي.

وبعبارة أخرى، فإن مشروع بيرلي لمرحلة رياض الأطفال كان له أثر مختلف تمامًا عن الأثر الذي كان يعتقد الجميع. فالمربون، ذوو القلوب الطيبة، الذين وضعوا هذا البرنامج في ستينيات القرن الماضي كانوا يعتقدون أنهم يضعون برنامجًا لزيادة معدل الذكاء لدى الأطفال الذين ينتمون إلى أسر فقيرة، حيث كانوا يعتقدون - كغيرهم - أن هذه هي الطريقة التي يمكنهم بها أن يساعدوا الأطفال المساكين على التقدم والازدهار في أمريكا. وكانت المفاجأة الأولى أنهم وضعوا برنامجًا لم يحقق شيئًا ذا بال في رفع نسبة الذكاء على المستوى البعيد، لكنه تمكن من تحسين السلوك والمهارات الاجتماعية. وأما المفاجأة الثانية فهي أنه قد ساعد على أية حال - بالنسبة إلى الأطفال في ييسيلانتي - على الكشف عن القيمة الكبيرة لهذه المهارات والسمات الكامنة التي ظهرت على الأطفال.

وخلال جمع التقارير التي أخرجت هذا الكتاب، قضيت وقتًا كبيرًا في مناقشة النجاح والمهارات مع مجموعة متنوعة من الاقتصاديين وعلماء النفس وعلماء الأعصاب، وقد كان العديد منهم على صلة وثيقة بـ "جيمس هيكرمان" بدرجات متفاوتة، لكن ما دعم بحث هؤلاء العلماء لديّ، وبث فيه روح الحياة، وأعطاه معنى، هو نوع آخر من التقارير التي كنت أجمعها في الوقت نفسه في المدارس العامة، وعيادات الأطفال، ومطاعم الوجبات السريعة؛ حيث كنت أتحدث مع الشباب الذين كانت حياتهم تجسد وتصور - بطريقة أو بأخرى - سؤالًا معقدًا عن نوعية الأطفال الذين ينجحون وكيفية تحقيقهم ذلك النجاح.

ولندلف إلى الحديث عن "كيواونا ليرما"، حيث كانت تعيش في منطقة ساوث سايد من مدينة شيكاغو عندما التقيت بها في شتاء عام 2010، وقد تبين أن هذا المكان لا يبتعد كثيرًا عن الحرم الجامعي لجامعة شيكاغو التي كان "هيكرمان" يقضي بها أيامه، وقد وُلدت "كيواونا" في منطقة ساوث سايد في حالة من الفقر قبل ذلك بسبعة عشر عامًا، وهي الابنة الثانية لأُمها التي أنجبت طفلتها الأولى - الأخت الكبرى لكيواونا - وهي لا تزال في

سن المراهقة، وقد عاشت "كيواونا" طفولة ممزقة ومضطربة؛ حيث انتقلت بها أمها إلى ولاية ميسيسيبي وهي لا تزال طفلة رضيعة، ثم انتقلت إلى مينيسوتا، ثم عادت مرة أخرى إلى شيكاغو، حيث تورطت في علاقات كثيرة؛ ما جلب لها الكثير من المتاعب، وعندما ساءت الأمور قضت الأسرة فترات من حياتها في الملاجئ، وفي التنقل من بيت صديق إلى آخر، وكانت جدة "كيواونا"، تلك الجدة الرائعة، أحياناً ما تأخذ الطفلتين بعض الوقت كي تتيح لأمهاتهما تنظيم حياتها بطريقتها.

وقد قالت لي "كيواونا" في المرة الأولى التي تحدثت إليّ فيها: "لم تكن لديّ عائلة بمعنى الكلمة". فقد كنا نجلس في مقهى في حي كينوود، وكان ذلك في منتصف الشتاء القاسي في شيكاغو، حيث كانت النوافذ مغطاة بالبخار، كانت "كيواونا" ذات بشرة سمراء، وعينين واسعتين يشع منهما العطف والعذوبة، وكان شعرها أملس وداكناً. جلست أمامي وهي تدفئ يديها فوق كوب من الشيكولاتة الساخنة التي تغطيها الفقاعات، قائلة لي: "لقد كنت أعيش حالة من التشتت، فلم يكن لي أب، وكانت جدتي أحياناً ما تكون موجودة معنا، ولم يكن هناك شيء يسير على ما يرام. لقد كنت محطمة".

وقالت: لما بدأت أنضج، أصبحت أكره المدرسة. فهي لم تتعلم كيف تقرأ جيداً، وكان مستواها في المدرسة الابتدائية يتردى عامّاً بعد آخر، وكانت تواجه المتاعب، وتترك الحصص، وكانت تسيء الأدب في التعامل مع المعلمين. ولما كانت في الصف السادس حيث كانت تعيش خارج مينيابوليس، صدر بحقها اثنان وسبعون قرار إحالة إلى المختصين بسبب سوء سلوكها، وذلك في منتصف العام الدراسي؛ ومن ثم تم نقلها إلى الصف الخاص بالطلاب المتأخرين في التحصيل. ولكنها كرهت هذا الأمر أيضاً. وقبل انتهاء العام الدراسي بأسابيع قليلة، تم فصلها من المدرسة بسبب مشاجرة.

عندما التقيت "كيواونا"، كنت قد أعددت تقارير طويلة عدة سنوات عن الأطفال الذين ينشأون في الفقر؛ ومن ثم فقد سمعت الكثير من القصص التي تشبه قصتها. قد تختلف مظاهر البؤس لدى الأسر التي تعاني الفقر، ولكن إذا بقيت الأسرة في حالة من الفقر أجيالاً

متعاقبة، فإن مظاهر البؤس قد تصبح مألوفة بشكل محزن، فيصبح الأمر أشبه بدائرة لا نهاية لها من الآباء الغائبين أو المقصرين، والفشل في المدرسة، واتخاذ القرارات غير السليمة. لقد كنت أعرف مصير القصص المماثلة لقصة "كيواونا" بشكل عام. فالفتيات اللاتي لديهن تاريخ من المعاناة عادة ما يتسربن من التعليم الثانوي بغض النظر عن حسن نياتهن؛ فيبحثن عن شريك الحياة وهن في سنوات المراهقة، ويتحملن مسؤولية تكوين أسرة بمفردهن، وسرعان ما يسلك أطفالهن المسار الفاشل نفسه في الحياة.

ولكن بالنسبة إلى "كيواونا"، فقد كان هناك تحول مختلف في مرحلة ما. فبعد عدة أسابيع من القبض عليها للمرة الأولى بتهمة التشاجر مع أحد عناصر الشرطة، وقبل أن تدخل الصف الثاني الثانوي، أخبرتها أمها بأنها ترغب في أن تتحدث إليها. وعلمت "كيواونا" أن هذا الحديث كان حديثًا جادًا؛ لأن جدتها كانت حاضرة في المنزل أيضًا، وهي الشخصية الوحيدة في الأسرة التي كانت "كيواونا" تحترمها دائمًا، وجلست "كيواونا" مع أمها وجدتها، وتلفظت أمها بأكثر العبارات صعوبة يمكن لأي أم أن تقولها، فقد قالت لها: "لا أريدك أن تنتهي إلى ما انتهيت إليه"، واستمرت "كيواونا" في الحديث مع أمها وجدتها ثلاث ساعات، ناقشن خلالها الماضي والمستقبل، وكشفن فيها عن أسرار ظلت دفينة زمناً طويلاً، وقالت أمها إنها تعرف المسار الذي تسير فيه "كيواونا": فعندما كانت في فترة المراهقة كانت هي أيضًا تُفصل من المدرسة، كما أنها قد أُلقي القبض عليها من قبل إثر شجارها مع عناصر الشرطة، وقالت إن الفصل التالي من قصة "كيواونا" من الممكن أن يكون مختلفًا؛ إذ يمكنها أن تتجنب الحمل دون أن تكون مستعدة له بخلاف والدتها، ويمكنها كذلك أن تلتحق بالكلية على عكس والدتها، ويمكنها أيضًا أن تحصل على وظيفة، وهو الأمر الذي لم يكن متاحًا لوالدتها.

وخلال ذلك النقاش كانت أمها تبكي، دون أن تذرف "كيواونا" من عينيها دمعة واحدة، فقد كانت تكتفي بالإنصات إلى كلامها فحسب، ولم تكن متأكدة مما ينبغي لها أن تفكر فيه؛ حيث لم تكن تعلم إن كان بإمكانها أن تتغير أم لا، أو إن كانت تريد هذا التغيير في الأساس أم لا، وحين عادت إلى المدرسة مجددًا بدأت تولي مزيدًا من الانتباه أثناء وجودها في

الفصل، ففي السنة الأولى لها كانت تتسكع مع عدد من المشاغبين، حيث كانت الفتيات يشكلن عصابات، وكان الفتيان يتناولون المخدرات، وكانوا جميعًا يتغيّبون عن المدرسة. أما الآن فقد ابتعدت عن أولئك الأصدقاء، وبدأت تقضي وقتًا أطول بمفردها؛ حيث تقوم بواجباتها المدرسية، وتفكر في مستقبلها. ومع نهاية السنة الأولى كان تقديرها التراكمي 1.8، وهو تقدير سيئ، ولكن مع منتصف السنة الثانية زاد تقديرها التراكمي إلى 3.4.

وفي فبراير من تلك السنة، شجعها مدرس اللغة الإنجليزية على تقديم طلب للالتحاق ببرنامج تمهيدي مكثف للالتحاق بالكلية مدته ثلاثة أعوام تم إعداده مؤخرًا في المدرسة، وبعد أن قدمت "كيواونا" طلبها تم قبوله، وقد حفزها الدعم الذي قدمه إليها البرنامج على العمل الدؤوب. وعندما التقيتها كانت في منتصف السنة الثالثة، وكان تقديرها التراكمي 4.2، وكانت مشغولة باختيار الكلية التي ستتقدم إليها.

فما الذي حدث؟ لو أنك قابلت "كيواونا" في السنة الثانية لكان لديك العذر في أن تعتقد أنها لم تكن لديها في الحقيقة أية فرصة للنجاح، لقد بدا قدرها محتومًا، ولكن كان هناك شيء ما قد تغير في داخلها. فهل كان الحديث القاسي الذي دار بينها وبين أمها هو ما أحدث هذا التغيير؟ وهل كان الأمر مقصورًا على ذلك فقط؟ هل كان هذا بفعل التأثير الإيجابي لجديتها؟ هل هو التدخل الذي قام به مدرس اللغة الإنجليزية في المدرسة، أم أنه كان هناك شيء في أعماق شخصيتها هو ما دفعها نحو فكرة الاجتهاد والنجاح، على الرغم من جميع الصعوبات التي واجهتها والأخطاء التي ارتكبتها؟

□ □ □

كيف يمكن للتجارب التي نتعرض لها في الطفولة أن تشكل شخصيتنا عندما نصبح أشخاصًا ناضجين؟ يعد هذا السؤال واحدًا من الأسئلة البشرية المهمة، وموضوعًا لعدد لا حصر له من الروايات والسير الذاتية والمذكرات، فضلًا عن كونه موضوعًا للعديد من الأبحاث الفلسفية والنفسية على مدار قرون عديدة، وهذه العملية - تجربة التنشئة والنضج - يمكن أن تبدو متوقعة أحيانًا، وتلقائية في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى قد تبدو

تعسفية ومتقلبة، وجميعنا صادفنا رجالاً ونساءً ناضجين بدا عليهم أنهم مكبلون بمصير محتوم، قدرته لهم طفولتهم بشكل مسبق، كما أننا صادفنا أيضاً أناساً كانت بداياتهم صعبة، ولكنهم تفوقوا على الصعاب ببراعة.

ومنذ وقت ليس ببعيد، لم تكن هناك أية محاولات جادة لاستخدام أدوات العلم في الكشف عن غموض مرحلة الطفولة وتتبعها، من خلال التجارب والتحليل، فما الرابطة التي تربط تجاربنا في سنواتنا الأولى بما نصل إليه في فترة البلوغ؟ ولكن الأمور باتت تتغير، بفعل الجهود التي يبذلها الجيل الجديد من الباحثين، إن الافتراض الذي تقوم عليه أعمال أولئك الباحثين بسيط، ولكنه مهم: فنحن لم نتمكن من حل هذه المشكلات؛ لأننا كنا نبحث عن الحلول في الأماكن غير المناسبة. وإذا كنا نريد أن نحسن من فرص الأطفال عمومًا، ومن فرص الأطفال الفقراء خاصة، يجب أن نتعامل مع مرحلة الطفولة بأسلوب جديد، وأن نبدأ بطرح بعض الأسئلة الأساسية عن تأثير الوالدين في أطفالهما، وكيفية اكتساب الفرد المهارات، والطريقة التي تتشكل بها الشخصية.

هذا الكتاب يشمل في محتواه حملة تتميز بالطموح، واسعة النطاق تسعى إلى قطع شوط كبير في حل بعض ألغاز الحياة الأكثر انتشارًا: من الذي ينجح، ومن الذي يُخفق؟ لماذا ينجح بعض الأطفال، بينما يضل البعض الآخر طريقه؟ وما الذي يمكننا أن نفعله لنوجه طفلًا أو جيلًا كاملاً من أطفالنا نحو النجاح، ونجنبهم الفشل؟

1 طريق الفشل (وكيف تتجنبه)

1. مدرسة فينجر الثانوية

نشأت "نادين بورك هاريس" نشأة متميزة في مدينة بالو ألتو في ولاية كاليفورنيا. وُلدت "نادين" لأسرة متعلمة؛ حيث كان والداها مهاجرين من جامايكا، وهما من طبقة الحرفيين، وحين كانت في الرابعة من العمر انتقلت أسرتها من مدينة كينجستون عاصمة جامايكا إلى وادي السيليكون في ولاية كاليفورنيا. وأما عن حياتها بوصفها فتاة، فكانت كثيرًا ما تشعر بالغربة، حيث كانت ذات بشرة سمراء بين طلاب مدرسة بالو ألتو الثانوية؛ إذ كان معظم الطلاب من ذوي البشرة البيضاء فاحشي الثراء، وقد كانت قريناتها من الفتيات يبكين في الكافيتريا عندما لا يحصلن على السيارة التي يردنها في ذكرى ميلادهن السادسة عشرة.

ونشأت "إليزابيث دوزير" خارج شيكاغو في ظروف أكثر تواضعًا، فهي نتاج علاقة رومانسية ربطت بين والدها - الذي كان سجينًا في أحد سجون مدينة جولييت الواقعة في ولاية إلينوي - ووالدتها المرأة المتدينة التي كانت تزور السجون باعتبار هذا جزءًا من واجباتها الدينية المكلفة بها. وبعد ولادتها قامت أمها على تربيته بمفردها، فدرست بإحدى المدارس الدينية المحلية، وكانت تعمل في الصيف في خدمة الغرف في الفنادق لتحسين دخلها المتواضع.

لقد خرجت كل من "نادين بورك هاريس" و"إليزابيث دوزير" من مرحلة طفولة كانت الظروف فيها مختلفة تمامًا لكل منهما، لكن كان لديهما هدف واحد: وهو مساعدة الأطفال الصغار على النجاح، خاصة من يواجهون المتاعب، فذهبت "نادين" إلى كلية الطب، وأصبحت طبيبة أطفال، وافتتحت عيادة في أشد الأماكن فقرًا في مدينة سان فرانسيسكو. أما "إليزابيث" فأصبحت معلمة، ثم مديرة مدرسة في المدارس التي تقع في أحد أشد الأحياء فقرًا في مدينة شيكاغو، وعندما التقيت كلاً منهما على حدة منذ عامين، لم تكن الغاية التي تجمعهما هي ما جذبني إليهما فقط، ولكنه الإحباط الشديد الذي

تتشارك فيه، فقد استنتجت كل منهما مؤخرًا أن أفضل الأدوات المتاحة لديهما في مجال العمل الذي اختارته، لم تكن ترقى إلى التحديات التي واجهتهما. ومن ثم كانتا بصدد نقطة تحول في مسارهما المهني، وفي حياتهما. لقد كانتا تبحثان عن إستراتيجيات جديدة: عن سيناريو جيد لحياتهما.

وعندما أصبحت "إليزابيث" مديرة مدرسة فينجر الدينية الثانوية في أغسطس عام 2009، كانت المدرسة تمر بأزمة - والحقيقة أنك لو نظرت في تاريخ المدرسة على مدار العشرين عامًا الماضية، لما وجدت لحظة مرت من تاريخها دون أزمات. لقد ظلت هذه المدرسة شامخة أكثر من ثمانين عامًا في وسط بلدة روزلاند في الناحية الجنوبية من شيكاغو، التي تعرف بساوث سايد، وقد كانت هذه المنطقة في يوم من الأيام أحد أكثر الأماكن ازدهارًا، أما الآن فقد أصبحت أحد أسوأ الأحياء في كل شيء - من حيث نسبة الفقر، ومعدل البطالة، ومعدل الجريمة، بل شوارعها الخالية التي تثير في النفس إحساسًا بالخواء، فالأماكن التي كانت عامرة بالشركات والمنازل في يوم من الأيام أصبحت الآن خرابًا، تغطيها الحشائش العشبية. وبلدة روزلاند معزولة جغرافيًا (فهي قريبة من الحدود الجنوبية لمدينة شيكاغو، بمنأى عن المحطة الأخيرة لخط السكة الحديدية)، وهي منطقة تعاني الفصل العنصري: فمع أن التعداد السكاني في شيكاغو موزع بالتساوي تقريبًا بين ذوي البشرة البيضاء، والأمريكيين ذوي الأصول الأفريقية، والأمريكيين ذوي الأصول اللاتينية، فإن ذوي الأصول الأفريقية يمثلون 98% من سكان بلدة روزلاند، وكثيرًا ما كانت مدرسة فينجر الثانوية ذات سجل سيئ دائمًا - شأنها في ذلك شأن معظم المدارس العامة الكبيرة في الأحياء التي تعيش في فقر شديد: حيث الدرجات السيئة في الاختبارات دائمًا، وعدم المواظبة، ووجود مشكلات دائمة في الانضباط، وارتفاع معدل التسرب من التعليم.

وعندما تسمع قصصًا عن المدارس المشابهة لمدرسة فينجر، فإنك تسمعها بلكنة يشوبها الإهمال: فهذه النوعية من المدارس مهمشة، وطلابها قد نسيهم وتجاهلهم المسؤولون في المدن وفي واشنطن العاصمة. ولكن الأمر الغريب فيما يتعلق بمدرسة فينجر الثانوية هو

أنها لم يتم تجاهلها مطلقاً، بل إنها كانت على مدار العقدين الماضيين بؤرة للإصلاحات عالية الطموح والمدعومة بتمويل مالي جيد من بعض الأشخاص المسؤولين عن التعليم، والقائمين على العمل الخيري الذين يتمتعون بأعلى قدر من الاحترام. فما من فكرة أو تجربة لإصلاح المدارس الثانوية العامة التي تمر بالفشل إلا وطبقت في مدرسة فينجر بطريقة أو بأخرى.

ويبدأ التاريخ المعاصر لمدرسة فينجر في عام 1995 عندما منحت الهيئة التشريعية في ولاية إلينوي عمدة شيكاغو "ريتشارد إم. دالي" حق التحكم في المدارس الموجودة في المدينة، وحتى يُظهر "دالي" النهج العملي الذي يفضل أن يتعامل به، قرر أن أكبر مسئول في المدرسة لن يطلق عليه اسم ناظر المدرسة، بل سيسمى مديراً تنفيذياً، وأول مدير تنفيذي اختاره "دالي" كان "بول فالاس"، مدير ميزانيته الطموح. وقد وجّه "بول" اهتمامه على الفور إلى تطوير مدرسة فينجر وغيرها من المدارس الثانوية الموجودة في المدينة، التي كان أداؤها سيئاً، وأنشأ نظاماً للتقييم على مستوى المدينة، حيث يعمل هذا النظام على تصنيف المدارس حسب كم المساعدات التي تحتاج إليها، وقد صنف مدرسة فينجر ضمن تصنيف المدارس الأكثر احتياجاً للمساعدة¹: حيث وضعها تحت المراقبة الأكاديمية. وقد كان "بول" طالباً في مدرسة فينجر طيلة عامين عندما كان في سن المراهقة، ولعل هذا يفسر لنا سبب تركيزه جهوده على هذه المدرسة. ووضع خطة لإعادة تنظيم المدرسة تشتمل على التعاقد مع متعهد من خارج المدرسة² يقوم بتدريب معلميها على كيفية تعليم القراءة والكتابة، وقد أنشأ أكاديمية داخل المدرسة³ لطلاب الصف الأول، وهي عبارة عن طابق منفصل ومخصص لطلاب الصف الأول يتعلمون فيه كيف يهتمون بدراستهم بشكل جيد طوال السنة الأولى، وفي عام 1999 أنشأ أكاديمية داخل المدرسة للحساب والعلوم⁴، وأمدّها بمعمل للعلوم ترعاه وكالة ناسا، وتقدر تكلفته بـ 525000 دولار، وبعد عامين حوّل مدرسة فينجر إلى مدرسة ذات سمعة طيبة⁵ متخصصة في التكنولوجيا.

وعلى الرغم من مبادرات الإصلاح التي قام بها "بول فالاس"، فإن الأمور لم تتحسن كثيرًا بالنسبة إلى طلاب المدرسة، واستمرت الحال على ما هي عليه في عهد "أرني دنكان" الذي تولى الأمور بعد "بول فالاس". ففي عام 2006 اختار "دنكان" مدرسة فينجر باعتبارها إحدى المدارس الرائدة 6 لتطبيق مشروع تعاوني واسع النطاق بين منظومة المدارس في شيكاغو ومؤسسة بيل ومليندا جيتس الخيرية، في مهمة أطلق عليها عملية تغيير المدارس الثانوية التي مولتها المؤسسة في البداية بمنحة قدرها 21 مليون دولار (وبعد ثلاثة أعوام وصلت التكاليف التي أنفقت على المشروع إلى 8 ملايين دولار7). وعندما تم الإعلان عن هذه المبادرة قال "دنكان": "هذا اليوم ليس يومًا تاريخيًا للمدارس العامة بشيكاغو وللمدينة نفسها فحسب، بل هو يوم تاريخي لبلدنا بأسره"8. ولكن بعد مدة تزيد قليلًا على عامين، ومع ظهور أدلة تشير إلى أن مشروع تحويل المدارس العامة لا يحقق نتائج، تحولت المدرسة إلى آخر مبادرات الإصلاح9 التي قام بها "دنكان"، وهي: التغيير الجذري للتعليم الثانوي. وفي هذه المبادرة تم استبعاد مدير المدرسة ونصف المدرسين على الأقل؛ ليحل محلهم فريق جديد تمامًا، وعندما نُفذ هذا التغيير عام 2009، كانت مديرة المدرسة الجديدة هي "إليزابيث دوزير".

وتجدر الإشارة إلى أن كلاً من "فالاس" و"دنكان" لم يكونا مسؤولين عاديين في منظومة المدارس، بل كانا من رواد التربية والتعليم الأكثر شهرة في البلاد، وبعد أن رحل "فالاس" عن شيكاغو، تولى إدارة عدد من المدارس في فيلادلفيا، ثم اكتسب شهرة على مستوى البلاد باعتباره مسؤولاً عن إعادة بناء المدارس وإصلاحها في ولاية نيو أورليانز بعد أن تحطمت بفعل إعصار كاترينا. أما "دنكان" فبعد أن ترك شيكاغو كانت مسيرته المهنية لامعة بشكل أكبر: إذ اختاره الرئيس أوباما عام 2009 وزيراً للتعليم، لكن إحصاءات مدرسة فينجر الثانوية ظلت رديئة كما كانت عام 1995 ولم تتغير كثيرًا بفعل جميع الإصلاحات ذات الأهداف الطيبة التي قام بها الرجلان، وكانت مكلفة للغاية في كثير من الأحيان: فقد كانت نسبة التسرب من التعليم بين طلاب الصف الأول مع حلول السنة الأخيرة تتراوح بين النصف والثلاثين، أما الأقلية التي كانت تتمكن من التخرج في

المدرسة, فنادرًا ما كانت تنجح على المستوى الأكاديمي: ففي عام 2008، وهي آخر سنة قضاها "دنكان" في شيكاغو، لم ينجح في اختبارات قبول الكليات على مستوى الولاية من طلاب السنة الأخيرة وقبل الأخيرة سوى أقل من 4 % فقط، وخلال وجود "دنكان" على رأس العمل لم تحقق المدرسة ولو مرة واحدة "تقدمًا سنويًا مقبولًا" في ظل قانون "لن نترك أي طفل دون تعليم"، وقد تحول تصنيف "فالاس" للمدرسة بأنها تحت التجربة - الذي كان يشير في الأساس إلى حالة طوارئ مؤقتة - إلى حالة دائمة للمدرسة، وبحلول سنة 2011 كانت المدرسة قد وُضعت على هذا التصنيف ستة عشر عامًا على التوالي.

وعندما وصلت "إليزابيث دوزير" إلى المدرسة للمرة الأولى - وهي المرأة الطموح ذات العزيمة، التي تبلغ من العمر ثلاثين عامًا - كانت تعتقد أن الأدوات الأساسية لأي شخص قائم على إصلاح التعليم الحديث تحوي كل ما تحتاج إليه لكي تغير كل شيء من أجل طلاب المدرسة. وقد قضت عامًا في برنامج تدريبي للمديرين شديد التنافس، كان يُدعى "برنامج القادة الجدد للمدارس الجديدة"، وقد أكد ذلك البرنامج أن القائد الذي يتمتع بالحيوية، يمكنه أن يرفع من مستويات التحصيل لدى الطلاب بغض النظر عن ظروفهم الاجتماعية والاقتصادية، ما دام يعمل مع فريق من الموظفين الملتزمين، وقامت "إليزابيث" بتنظيم شؤون المدرسة من جديد، فاستبدلت عددًا من المشرفين، واستبدلت معظم المعلمين. وعندما جلسَتْ معها للمرة الأولى في مكتبها في المدرسة - بعد حصولها على هذه الوظيفة بأقل من سنة - كان فريق العمل في المدرسة يضم سبعين فردًا، من بينهم ثلاثة مدرسين فقط من مرحلة ما قبل التغيير الجذري الذي أجراه "دنكان"، وكان معظم المعلمين الجدد من الشباب الطموح، وكانوا غير مثبتين؛ ما يعني أنه كان من السهل على "إليزابيث" نسبيًا أن تستبدل بهم غيرهم إذا لم يحققوا التوقعات المرجوة منهم.

وحين تحدثت معها أخبرتني بأن المدة التي أقامت فيها في مدرسة فينجر جعلتها تغير رؤيتها عن المدارس، وقالت: "كثيرًا ما كنت أعتقد أن سبب فشل المدرسة يرجع إلى عدم كفاءة المدير، أو المعلمين، ولكن واقع الأمر في مدرسة فينجر هو أنها مدرسة تخدم أبناء

المقاطعة؛ ومن ثم فهي تمثل انعكاسًا للمجتمع، ولا يمكنك أن تتوقع أن تحل مشكلات المدرسة، دون أن نأخذ في الاعتبار ما يحدث في المجتمع".

وعندما أخذت "إليزابيث" تتعرف على طلاب المدرسة، وجدت أنها تصاب بالذهول مرة بعد أخرى بسبب خطورة المشكلات التي يواجهها الطلاب في منازلهم، وكان مما قالته لي: "إن غالبية طلابنا يعيشون في فقر، فدخل أسرهم لا تكفيهم، وكثير منهم يعيشون في أحياء تسيطر عليها عصابات تثير المشكلات، وأكاد لا أتخيل طفلًا في المدرسة لا يواجه إحدى المحن العصبية". فربع الطالبات كنَّ حوامل، أو أمهات بالفعل وهن في سن المراهقة، وعندما طلبت منها أن تقدّر عدد الطلاب الذين يعيشون مع آبائهم وأمهاتهم الحقيقيين بدت على وجهها نظرة ساخرة، وقالت: "لا أذكر أحدًا ممن ينطبق عليهم هذا الوصف، ولكنني أعلم أنهم موجودون".

وقد تزايد أيضًا خطر العنف بين طلاب المدرسة، فمعدل جرائم القتل في ولاية شيكاغو يساوي ضعف معدل جرائم القتل في لوس أنجلوس، وهو أكثر من معدل جرائم القتل في مدينة نيويورك مرتين. فالعصابات لها وجود أكبر وأكثر وقعًا في شيكاغو مقارنة بغيرها من المدن الأمريكية الرئيسية، وعندما قدمت "إليزابيث" إلى مدرسة فينجر كان ذلك بعد فترة وجيزة من انتهاء قتال بالأسلحة النارية بين الشباب: ففي عام 2008 كان قد قُتل في المدينة ثلاثة وثمانون مراهقًا في سن المدرسة 10، بينما أصيب ما يزيد على ستمائة مراهق.

ومع أن "دوزير" كانت تتوقع أن التغيير في مدرسة فينجر سيمثل تحديًا، فإنها لم تكن متهيئة لما حدث في المدرسة بعد ستة عشر يومًا من تسلمها عملها؛ حيث نشب شجار كبير على بعد عدة أبنية من المدرسة، وكان هذا الشجار يضم خمسين مراهقًا تقريبًا، وكان معظمهم من طلاب المدرسة. ولم تستخدم فيه الأسلحة البيضاء أو الأسلحة النارية، لكن بعض الطلاب اقتلعوا قضبان خط السكة الحديدية، واستخدموه كعراوات. وكان هناك طالب من طلاب المدرسة، يبلغ ستة عشر عامًا، ويدعى "ديريون ألبرت" كان قد انضم إلى

الشجار، وضرب على رأسه بإحدى تلك الهراوات، ثم وُجِعت اللكمات إلى وجهه، وضرب حتى فقد وعيه. وبينما كان طريقًا على الأرض، قام عدد من الشباب الصغار بركل رأسه، فأدت الصدمات الحادة والقوية إلى قتله.

كانت حادثة موت "ديريون ألبرت" في سبتمبر عام 2009 لا تختلف في أبسط أشكالها عن غيرها من عشرات الحالات الأخرى للوفاة الناتجة عن العنف في مدارس شيكاغو الثانوية في تلك السنة. ولكن الشجار ومقتل "ديريون" كانا قد تم تصويرهما من قبل أحد المارة، وأحدث هذا الفيديو في البداية ضجة كبيرة على موقع يوتيوب، ثم أصبح مشهّدًا ثابتًا في محطات الأخبار، وانتقلت شبكات الإعلام القومية والمحلية إلى مدرسة فينجر، وظلت الشوارع المحيطة بالمدرسة مكتظة بعربات البث التلفزيوني الفضائي والوقوفات الاحتجاجية التي أقيمت أمام المدرسة، وحضر النائب العام للولايات المتحدة "إيريك هولدر" لمقابلة الطلاب. وبعد ذلك ظهرت مدرسة فينجر في الأخبار مرة أخرى عندما وقعت ثلاث مشاجرات أخرى بين مجموعات من الطلاب المشاغبيين في وقت واحد في ثلاثة طوابق منفصلة في المدرسة، فوصلت العشرات من سيارات الشرطة، وألقي القبض على خمسة طلاب، وتم إغلاق المبنى بأسره مدة ثلاث ساعات.

وبعد هذه المشاجرات التي امتدت في جميع أنحاء المدرسة، قررت "دوزير" أن تعتمد سياسة عدم التسامح المطلق مع أقل قدر من السلوك العنيف، أو أي سلوك قد يؤدي إلى العنف: فإذا أبدى أحد الطلاب أية إشارة وهو يسير في الممر، أو صافح أحدًا بالطريقة التي تتبعها العصابات، كانت "دوزير" تفصله من المدرسة تلقائيًا مدة عشرة أيام. أما إذا حدث شجار، فإنها تتصل بالشرطة لإلقاء القبض على المتورطين في المشاجرة، ثم تبذل بعد ذلك كل ما في وسعها لطردهم نهائيًا من المدرسة. وعندما بدأت أقضي بعض الوقت في مدرسة فينجر - كان ذلك بعد مرور أكثر من سنة على حادثة وفاة "ديريون ألبرت" - كانت قاعات المدرسة هادئة، وإن كان من المؤكد أنها لم تكن تبدو طبيعية. فقد كان هناك حراس أمن ضخام الجثة، يجوبون القاعة الرئيسية، ولم يكن يُسمح للطلاب بالذهاب إلى أي مكان دون تعليق بطاقات الهوية حول رقابهم، وعندما كان أحد الطلاب يحتاج إلى الذهاب إلى

المرحاض خلال الحصة الدراسية، كان عليه أن يحصل على إذن بالخروج، وأن يحمل لوحة طولها ستون سنتيمترًا، ولونها أصفر براق. وكانت هناك معزوفة موسيقية من فيلم بيفرلي هيلز كوب يتم تشغيلها من خلال سماعات في الممرات المختلفة، وكان الطلاب يعرفون أنه يتحتم عليهم دخول الحصة التالية قبل انتهائها، ولكن على الرغم من القوانين الصارمة، ظلت بعض الاضطرابات تحدث، ففي المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى مدرسة فينجر لمقابلة "دوزير" قطعنا حديثنا مرتين بسبب الصياح الذي سمعناه في الممر الرئيسي، حيث وقعت منازعات كان عليها أن تهرع إليها بنفسها؛ لكي تساعد على إيقافها.

وأخبرتني "دوزير" بأنها، خلال عامها الثاني مديرة للمدرسة، بدأت تشعر بأن أهم الأدوات الموجودة تحت تصرفها لم تكن ذات صلة كبيرة بالتعليم داخل الصف. وفي أعقاب مقتل "ديريون ألبرت" تبرع كل من "هولدر" و"أرني دنكان" بمبلغ 500000 دولار لتأسيس برامج ما بعد الدراسة في مدرسة فينجر، وكانت هذه البرامج تهدف إلى التحكم في حالات الغضب، وتقديم المشورة في حالات الصدمة، ولم تبدأ المدرسة إحالة الطلاب وحدهم إلى هذا البرنامج، بل أحالت أسرهم أيضًا، وقد سجلت "دوزير" خمسة وعشرين طالبًا من الأكثر إثارة للمشكلات في أحد البرامج الإرشادية المكثفة، فقد كانت تبحث عن أي نوع من التدخل، ربما يعالج ما يبدو لها الآن أنه الأزمة الأكثر إلحاحًا في المدرسة - ولم يكن الأمر مقصورًا على انهيار مستوى التحصيل لدى طلابها، وهو الأمر الذي ظل مؤلمًا ومحزنًا، بل كانت المشكلات الأكثر عمقًا والناشئة عن الحياة الأسرية المليئة بالمشكلات والصدمات الكثيرة هي التي جعلت من الصعب عليهم أن يقضوا يومهم الدراسي بشكل جيد، وقالت لي "دوزير" في صباح أحد الأيام: "عندما تقلدت هذه الوظيفة، لم أكن أكثرث بأسئلة مثل: 'ما الأسر التي ينتمي إليها هؤلاء الأطفال؟' و 'ما تأثير الفقر في الأطفال؟'، ولكن تفكيري تطور منذ أن بدأت أعمل في مدرسة فينجر".

2. نادين بورك هاريس

ما تأثير الفقر في الأطفال؟ كانت "نادين بورك هاريس" تطرح السؤال نفسه أيضًا في الجانب الآخر من البلاد، ولكنها كانت طبيبة وليست معلمة؛ لذا فقد تعرضت للسؤال من منظور الصحة الجسدية لمرضاها، ومنذ عام 2007 كانت "نادين" تعمل رئيسة مركز "باي فيو لصحة الأطفال" الواقع في حي باي فيو وحي هنترز بوينت في مدينة سان فرانسيسكو، وهي منطقة صناعية منعزلة مختفية في الركن الجنوبي الشرقي، وهي مقر أحد أكبر وأهم مشاريع الإسكان في المدينة، وعندما أسست "بورك هاريس" العيادة، كانت قد تخرجت حديثًا في كلية هارفارد للصحة العامة، وكانت شابة مثالية تم تعيينها في مركز كاليفورنيا باسيفيك الطبي - وهو يضم سلسلة مستشفيات خاصة تحظى بدعم مالي جيد - من أجل الاضطلاع بمهمة نبيلة، وإن كانت غير محددة بشكل واضح: وهي تحديد التفاوتات الصحية في مدينة سان فرانسيسكو ومعالجتها، ولم يكن من الصعب اكتشاف هذه التفاوتات بخاسة في حي باي فيو وحي هنترز بوينت: حيث كان معدل الإقامة في المستشفيات بسبب حالات فشل القلب الاحتقاني، أعلى بخمسة أضعاف مقارنة بمقاطعة مارينا التي تبعد بضعة كيلو مترات، وقبل افتتاح عيادة "نادين بورك هاريس" لم يكن هناك سوى طبيب أطفال واحد في عيادة خاصة في منطقة يعيش فيها ما يزيد على عشرة آلاف طفل.

درست "نادين" موضوع التفاوتات الصحية في هارفارد، وعرفت ما تحدده إستراتيجيات الصحة العامة من أجل معالجة تلك التفاوتات: ألا وهو تحسين سبل الحصول على الرعاية الصحية، وبخاصة الرعاية الأساسية منها للأسر ذات الدخل المنخفضة، وعندما فتحت العيادة أبوابها استهدفت "بورك" المشكلات الصحية السهلة التي كانت فيها الفروق بين أطفال الأسر الثرية والأسر الفقيرة أكثر وضوحًا، وهي مفهومة بشكل أفضل؛ حيث كانت معالجتها أكثر سهولة وهي: العلاج الوقائي طويل المدى لمرض الربو، ومشكلات التغذية، واللقاحات المضادة لمرض الدفتيريا (الخنق) والسعال الديكي والتيتانوس. وخلال أشهر قليلة تمكنت من إحداث تقدم كبير، فقد قالت لي عندما زرت عيادتها للمرة الأولى: "لقد تبين لي أنه من السهولة بمكان أن نرفع معدلات الوقاية، وأن نعالج الربو بسرعة"، وقالت

أيضًا: "لقد شعرت بأننا لم نكن نعالج جذور مشكلة التفاوتات الصحية، وأعني أنا - على حد علمي - ومنذ وقت طويل جدًا لم نشهد طفلًا في هذا المجتمع يتوفى جراء الإصابة بمرض التيتانوس".

لقد وجدت "بورك هاريس" نفسها في موقف يشبه موقف "دوزير" إلى حد كبير، ولكنها كانت تعمل هنا في الوظيفة التي كثيرًا ما حلمت بها. وقد أتيحت لها موارد ضخمة، كما حظيت بتدريب جيد، وكانت مجتهدة في عملها - ولكن مع هذا لا يبدو أنها حققت فارقًا كبيرًا في حياة الشباب الصغار الذين كانت تحاول مساعدتهم. فقد ظل هؤلاء الشباب في بيئة تعج بالعنف والفوضى، سواء في المنزل أو في الشوارع؛ الأمر الذي كان له أثر كبير فيهم من الناحية الجسدية والانفعالية. فقد كان الكثير من الأطفال الذين وفدوا على عيادتها يبدو عليهم الاكتئاب أو القلق، وكان بعضهم يعاني صدمة نفسية صريحة، وقد ظهر الضغط الذي كانوا يتعرضون له يوميًا في صورة أعراض متنوعة، بداية من نوبات الهلع، ومرورًا باضطرابات الأكل، وصولًا إلى السلوك الانتحاري. وفي بعض الأحيان كان شعورها بأنها طبيبة أطفال متخصصة في تقديم الرعاية الأولية يتناقض أمام شعورها بأنها أشبه بالجراح الميداني الذي يضمّد جراح مرضاه، ثم يرسلهم مرة أخرى إلى ساحة الحرب.

وراحت "بورك هاريس" تبحث عن إجابات؛ ما أدخلها في نقاش جديد من نوعه، وغير مألوف عن الفقر والمحن. ولم يكن هذا النقاش يحتل مكانًا في مجلات السياسة العامة، والندوات العلمية السياسية، ولا في المجلات الطبية ومؤتمرات العلوم العصبية. وهكذا بدأت "بورك هاريس" تدريجيًا الاقتناع بفكرة تبدو جديدة للوهلة الأولى: وهي أن كثيرًا من المشكلات التي ننظر إليها عمومًا بوصفها مشكلات اجتماعية - أي واقعة ضمن اختصاص علماء الاقتصاد والاجتماع - في أحياء مثل حي باي فيو وهنترز بوينت وروزلاند، من الأفضل تحليلها ومعالجتها بالشكل الأمثل على مستوى أبسط العناصر، بالدخول في أعماق علم الأحياء البشري.

3. دراسة التعرض للتجارب المؤذية في الطفولة

بدأت رحلة "بورك هاريس" بمقال في مجلة طبية، وضعه على مكتبها "وايتني كلارك" - وهو طبيب نفسي ضمن فريق العمل بالعيادة - في عام 2008 بعنوان: "The Relationship of Adverse Childhood Experiences to Adult Health: Turning Gold into Lead"¹¹. كان كاتب المقال هو "فينسينت فيليتي" رئيس فرع الطب الوقائي بمؤسسة كايزر بيرمانينت، وهي مؤسسة كبيرة للحفاظ على الصحة مقرها كاليفورنيا، وكان المقال يتحدث عن دراسة التعرض للتجارب المؤذية في الطفولة، وقد أجرى هذه الدراسة "فينسينت فيليتي" في تسعينيات القرن الماضي بمساعدة "روبرت أندرا"، وهو عالم في مجال الأمراض الوبائية بمراكز السيطرة على الأمراض والوقاية منها في مدينة أتلانتا، وعندما قرأت "بورك هاريس" تلك الدراسة أخبرتني بأن شيئاً تكشف لها: "لقد انقشعت الغيوم، وغردت الطيور، وكأنه المشهد الأخير من فيلم ماتريكس، حيث يرى 'نيو' الكون كله يمتزج بعضه ببعض ويتغير".

وفي بداية عام 1995، أرسلت استبيانات عبر البريد إلى المرضى الذين سجلوا أسماءهم بمؤسسة كايزر للحفاظ على الصحة بغرض عمل فحوصات طبية شاملة، وذلك بهدف إعطاء وصف لتاريخهم الشخصي في عشرة جوانب مختلفة من تجارب التعرض للأذى في الطفولة، وتشمل هذه الجوانب العنف الجسدي والجنسي والإهمال العاطفي والجسدي، ومقاييس متعددة للتفكك الأسري، مثل طلاق الأبوين أو انفصالهما، أو تعرض أحد أفراد الأسرة للسجن، أو المرض العقلي، أو الإدمان. وعلى مدار سنوات قليلة¹²، كان هناك أكثر من سبعة عشر ألف مريض قد أكملوا الاستبيانات، وقاموا بتسليمها⁶، وبهذا تكون نسبة الاستجابة لهذه الاستبيانات هي 70%، ويمثل المرضى الذين سلموا الاستبيانات مساحة عريضة من التكوين الديموجرافي من الطبقة المتوسطة والطبقة فوق المتوسطة: وكان 75% منهم من ذوي البشرة البيضاء، وكانت نسبة من حصلوا على تعليم جامعي منهم 75%، أما متوسط أعمارهم فكان في حدود 57 عامًا.

وعندما صُنِّف كل من "فيليتي" و"أندرا" تلك الإجابات، اندهشا في البداية من العدد الكبير لمن تعرضوا لصدمة في الطفولة من بين هؤلاء الأشخاص ميسوري الحال، وقد أفاد ما

يزيد على ربع هؤلاء المرضى بأنهم نشأوا في أسر بها شخص مدمن كحول أو مخدرات، وهناك نسبة قريبة من هذه ذكر أفرادها تعرضهم للعنف الجسدي خلال فترة الطفولة. وعندما استخدم الأطباء هذه المعلومات لإعطاء كل مريض تقييمًا بحسب واقع هذه الدراسة - حيث يُعطى نقطة واحدة في كل جانب من جوانب الصدمات التي تعرض لها بالفعل - اكتشفوا أن ثلثي المرضى تعرضوا لتجربة مؤذية واحدة على الأقل خلال فترة الطفولة 13، ومن بين كل ثمانية مرضى كان هناك مريض تصنيفه 4 أو أكثر من ذلك من واقع الدراسة.

أما المفاجأة الثانية التي سببت مزيدًا من الدهشة، فكانت ما حدث عندما حاول كل من "أندا" و"فيليتي" مقارنة التقييمات التي حصل عليها المرضى من واقع الدراسة بالسجلات المرضية الكثيرة التي كانت مؤسسة كايزر قد جمعتها عن جميع المرضى، وقد كتب "روبرت" في وقت لاحق، قائلاً إن الروابط بين تجارب التعرض للأذى في الطفولة والنتائج السلبية في مرحلة البلوغ كانت قوية للغاية، لدرجة أنها "أذهلتنا" 14، أضف إلى ذلك أن هذه الضوابط والعلاقات المتبادلة بدا أنها تتبع نمطًا خطيًا من حيث نماذج الجرعة والاستجابة: فكلما زادت النقاط في التجارب المؤذية في فترة الطفولة، زادت النتائج سوءًا في جميع الجوانب تقريبًا، بدءًا من سلوك الإدمان إلى الإصابة بالأمراض المزمنة، فقد أخرج "فيليتي" و"أندا" من هذه البيانات رسمًا بيانيًا تلو آخر، وكان كل منها يتبع الشكل نفسه مع اختلافات طفيفة. وعلى طول الخط السفلي للرسم - المحور الأفقي - وضع الطبيب عدد التجارب المؤذية التي مر بها المرضى في الطفولة، وعلى طول المحور الرأسي تمت الإشارة إلى مدى شيوع إحدى النتائج غير المرغوبة: السمنة، والاكتئاب، والنشاط الجنسي المبكر، والتدخين، إلى غير ذلك. وعلى كل رسم بياني ترتفع الأعمدة بشكل مستقيم وثابت من اليسار (حيث التصنيف للتجارب المؤذية خلال الطفولة = صفر) إلى اليمين (حيث نقاط التجارب المؤذية خلال الطفولة = 7 أو أكثر). وإذا قارنًا الأشخاص الذين كان تصنيفهم في التجارب المؤذية في الطفولة 4 أو أكثر بالأشخاص الذين ليس لديهم تاريخ مع هذه التجارب المؤذية 15، نجد أن احتمالية اعتيادهم التدخين 16 تصل

إلى الضعف مقارنة بمن ليس لديهم تاريخ سابق مع هذه التجارب، وكذلك نجد أن احتمالية تحولهم إلى إدمان الكحوليات أو خوضهم تجربة جنسية قبل سن الخامسة عشرة تصل إلى سبعة أضعاف. كما تتضاعف لديهم احتمالية الإصابة بالسرطان، والأزمة القلبية¹⁷، والكبد¹⁸، وتزيد احتمالية تعرضهم لانتفاخ الرئة، أو التهاب الشعب الهوائية المزمن إلى أربعة أضعاف. وفي بعض الرسوم البيانية كان التردّي شديداً: فبالغون الذين كانت نقاطهم أعلى من 6 كانت احتمالية إقدامهم على محاولة الانتحار أكبر بثلاثين ضعفاً¹⁹ مقارنة بمن كان تصنيفهم صفراً. وكذلك الذكور الذين كانت نقاطهم أعلى من 5، كانت احتمالية إدمانهم المخدرات أكبر بستة وأربعين ضعفاً²⁰ مقارنة بغيرهم من الذكور ممن ليس لديهم تاريخ مع التجارب المؤذية في مرحلة الطفولة.

وقد كانت النتائج السلوكية منطقية على الأقل، وإن كانت مثيرة للدهشة من حيث حدتها، فقد اعتقد علماء النفس زمناً طويلاً أن الأحداث الصادمة في مرحلة الطفولة من شأنها أن تولّد مشاعر متمثلة في قلة تقدير الذات، أو انعدام الأهمية، وكان منطقيّاً أن يُنظر إلى هذه المشاعر باعتبارها قد تؤدي إلى الإدمان والاكْتئاب بل الانتحار كذلك. وبعض الآثار الصحية التي ظهرت في دراسة التعرض للتجارب المؤذية في الطفولة - مثل أمراض الكبد والسكر وسرطان الرئة - كانت على الأرجح ناتجة بصورة جزئية على الأقل عن سلوكيات تدمير الذات، مثل الإفراط في المشروبات الضارة، والإسراف في تناول الطعام، والتدخين. ولكن اكتشاف كل من "فيليتي" و"أندا" أن التجارب المؤذية في مرحلة الطفولة كان لها أثر سلبي عميق في صحة البالغين حتى إن لم يكن هناك وجود لتلك السلوكيات آنفة الذكر، وعندما نظرا إلى المرضى ذوي النقاط المرتفعة من تلك التجارب (بما يبلغ سبع نقاط أو أكثر) ممن لا يدخنون ولا يفرطون في تناول المشروبات المضرة، ولا يعانون زيادة في الوزن، اكتشفا أن خطر إصابة هؤلاء المرضى بمرض نقص تروية القلب²¹ (وهو السبب الأكثر انتشاراً للوفاة في الولايات المتحدة) لا يزال أعلى بنسبة 360% مقارنة بالأشخاص الذين ليس لديهم تاريخ مع التجارب المؤذية في الطفولة؛ أي أن المحن التي مر بها هؤلاء المرضى في طفولتهم سببت لهم الأمراض بصرف النظر عن سلوكياتهم.

4. تأثير وحدة الإطفاء

تلك الدراسة المبدئية عن التعرض للتجارب المؤذية في مرحلة الطفولة قادت "بورك هاريس" إلى غيرها من الأبحاث، وسرعان ما أصبحت منهمكة في هذا الأمر، ففي كل ليلة كانت تسهر إلى وقت متأخر في قراءة مقالات من المجلات الطبية، وتتبع الهوامش والمراجع على محرك البحث "ببمد"، وهو عبارة عن قاعدة بيانات طبية على الإنترنت، والأبحاث التي جمعتها خلال تلك الدراسة النشطة التي استمرت شهوياً تجدها الآن في أربعة مجلدات ضخمة على رف مكتبها الموجود في العيادة، وتدور الأبحاث التي تحتويها هذه المجلدات بين الكثير من التخصصات العلمية، ولكن جذور معظم هذه التخصصات ترجع إلى مجالين غير شهييرين من مجالات الطب: هما علم الأعصاب والغدد الصماء (ويبحث في تفاعل الهرمونات مع المخ) وعلم فسيولوجيا التوتر (ويبحث في تأثيرات التوتر في الجسم). ومع أن "أندا" و"فيليتي" لم يفهما في البداية الآليات الحيوية في بيانات الدراسة التي أجريها عن التجارب المؤذية، فإن العلماء قد أجمعوا في العقد الماضي على أن التوتر هو القناة الرئيسية التي تتسبب من خلالها المحن التي يتعرض لها المرء في طفولته في تدمير عقله وجسده فيما بعد.

تعمل أجسامنا على ضبط مستويات التوتر من خلال نظام يدعى المحور الوطائي النخامي الكظري، ويرمز له في الإنجليزية بـ HPA، ويعتبر التلثم في الكلام إحدى طرق تنظيم الإشارات الكيميائية داخل المخ والجسم استجابة للمواقف المسببة للتوتر، فعندما يظهر أحد الأخطار المحتملة 22 يكون الوطاء هو خط الدفاع الأول، وهو عبارة عن منطقة في المخ تتحكم في العمليات البيولوجية اللاإرادية مثل درجة حرارة الجسم والجوع والعطش، فهو يفرز مادة كيميائية تنشط بعض المستقبلات الموجودة في الغدة النخامية، وتفرز الغدة النخامية هرمونات منبهة تقوم بتحفيز الغدة الكظرية، وبعد ذلك تفرز الغدة الكظرية هرمونات التوتر التي يطلق عليها اسم الهرمونات القشرية السكرية، التي تقوم بتنشيط مجموعة من الاستجابات الدفاعية الخاصة. ويمكننا أن ندرك بعض هذه الاستجابات عند حدوثها: فهناك المشاعر مثل الخوف والقلق، وهناك الاستجابات الجسدية

مثل تزايد معدل ضربات القلب، ورطوبة الجلد وجفاف الفم. ولكن هناك الكثير من تأثيرات المحور الوطائي النخامي الكظري لا تكون ظاهرة أمامنا فورًا، حتى إن كانت تحدث لنا: كتنشيط الناقلات العصبية، وارتفاع مستويات الجلوكوز، وتدفق الدم من أوعية القلب إلى العضلات، وتدفق البروتينات الالتهابية خلال مجرى الدم.

ويشرح عالم الأعصاب "روبرت سابولسكي" في كتابه القيم والشائق *Why Zebras Don't Get Ulcers* أن منظومة الاستجابة للتوتر لدينا - كما هي الحال مع بقية الثدييات - قد صُممت للاستجابة للتوتر الحاد والطفيف. ولكن هذا الأمر كان جيدًا في الماضي عندما كان الإنسان يعيش في السافانا، ويهرب من الحيوانات المفترسة، أما الآن فنادرًا ما نحتاج إلى التعامل مع هجمات الأسود، حيث إن معظم التوتر الذي نعاينه اليوم راجع إلى عمليات عقلية: كالقلق من أمور معينة. والمحور الوطائي النخامي الكظري ليس مصممًا للتعامل مع هذا النوع من التوتر، وجاء فيما كتبه "روبرت سابولسكي": "إننا ننشط نظامًا فسيولوجيًا مصممًا للتجاوب مع الحالات الجسدية الحرجة والملحة، ولكننا ننشط هذا الجهاز شهورًا عندما نقلق من رهوناتنا العقارية، وعلاقاتنا، والحصول على الترقيات"، وقد اكتشف العلماء على مدار الخمسين عامًا الماضية أن هذه الظاهرة لا تعوق نجاحنا فحسب، بل إن لها أثرًا تدميريًا كبيرًا، فالتحميل الزائد على المحور الوطائي النخامي الكظري - بخاصة في مراحل الطفولة المبكرة منها والمتأخرة - يولّد جميع الآثار السلبية الخطيرة ذات الأمد الطويل، على المستوى الجسدي والنفسي والعصبي.

ومكمن الصعوبة في هذا الأمر أن التوتر ليس هو ما يسبب هذه المشكلات في الحقيقة، بل استجابة الجسم له. ففي مطلع التسعينيات، اقترح "بروس ماكوين" 23 مختص الأمراض العصبية والصماوية في جامعة روكفيلر نظرية تفسر هذه الاستجابة، وهذه النظرية تلقى الآن قبولًا واسعًا في هذا المجال، ووفقًا لـ "بروس ماكوين"، فإن عملية إدارة التوتر - التي سماها التعديل النفسي - هي التي تُحدث الضرر في الجسم، فإذا ما أرهقت منظومة إدارة التوتر في الجسم بفعل زيادة العمل، فإنها تتدهور وتنهار في النهاية بفعل الإرهاق، ويطلق "ماكوين" على هذه العملية التدريجية مصطلح فرط حمل التعديل النفسي، ويقول إنه من

الممكن أن نلاحظ آثاره التدميرية على الجسم، وعلى سبيل المثال يعمل التوتر الحاد على رفع ضغط الدم؛ كي يمد العضلات والأجهزة التي يجب أن تستجيب للموقف الخطير بكميات مناسبة من الدم، وهذا جيد، غير أن تكرار رفع ضغط الدم يؤدي إلى تصلب الشرايين؛ الأمر الذي يسبب الأزمات القلبية، وهذا ليس بالأمر الجيد على الإطلاق.

ومع أن منظومة استجابة التوتر لدى الإنسان شديدة التعقيد من حيث التصميم، لكنها من حيث التطبيق العملي تعد في رقة مضرب الكروكيت، والاستجابة المثلى للتوتر قد تأتي من أية آلية من آليات الدفاع تبعاً لنوع التوتر الذي تمر به، فعلى سبيل المثال: إذا كنت على وشك أن تتعرض لجرح في جلدك، فمن الأنسب أن يبدأ جهاز المناعة في إنتاج كميات وفيرة من الأجسام المضادة، وإذا كنت تفر من شخص يهاجمك، فإنك بحاجة إلى رفع معدل نبضات القلب، ورفع ضغط الدم، ولكن المحور الوطائي النخامي الكظري لا يستطيع أن يميز بين الأنواع المختلفة من التهديدات؛ لذا فإنه يقوم بتنشيط كل آليات الدفاع في وقت واحد استجابة لها، وهذا يعني للأسف أنك كثيراً ما تواجه استجابات التوتر التي لا تكون ذات فائدة على الإطلاق - كأن تجد فجأة جفافاً بفمك عند حاجتك إلى التحدث أمام جمهور من الناس، فالمحور الوطائي النخامي الكظري لديك يستشعر الخطر؛ ومن ثم فإنه يحفظ السوائل داخل الجسم ليتهاى لصد الهجوم المحتمل، وأنت واقف في مكانك تبحث عن كوب من الماء، وتبتلع لعابك بصعوبة.

يمكنك أن تعتبر المحور الوطائي النخامي الكظري بمنزلة وحدة إطفاء حريق فاخرة للغاية مزودة بسيارات حديثة ممتازة، وكل واحدة من هذه السيارات مزودة بأدواتها الخاصة، وبفريق من رجال الإطفاء المحترفين. وعندما ينطلق الإنذار لا يحل رجال الإطفاء طبيعة المشكلة بالضبط لتحديد السيارة الأكثر مناسبة للتعامل مع الحالة. بل تندفع السيارات نحو الحريق بأقصى سرعة، مطلقة صافراتها؛ فهي ببساطة تستجيب سريعاً للموقف مستخدمة جميع الأدوات التي قد تحتاج إليها، وهذا هو ما يفعله المحور الوطائي النخامي الكظري، وقد تكون هذه هي الإستراتيجية المناسبة لإنقاذ الناس من الحريق، لكن قد ينتج عنها

اندفاع العشرات من سيارات الإطفاء لمجرد إطفاء حاوية قمامة اشتعلت بها النيران - أو قد يستجيب هذا العدد من السيارات لإنذار كاذب، وهذا هو الأسوأ.

5. الخوف الشديد

وقد رأت "نادين بورك هاريس" هذا التأثير المعروف بتأثير وحدة إطفاء الحريق في مرضاها طوال الوقت. وعندما كانت في عيادتها في حي باي فيو ذات يوم، عرفتني بإحدى مريضاتها، وهي فتاة في مرحلة المراهقة، تدعى "مونيشا سوليفان"، وقد حضرت إلى العيادة للمرة الأولى عندما كانت في السادسة عشرة من عمرها، بعد أن أنجبت طفلاً منذ وقت قصير. لقد كانت طفولة "مونيشا" مليئة بالتوتر: إذ تركتها أمها بعد أيام قليلة من ولادتها، وكانت أمها مدمنة مخدرات، وقد عاشت خلال طفولتها مع والدها وأخيها الأكبر في حي هنترز بوينت، الذي تنتشر فيه أعمال العنف التي تتسبب فيها العصابات، إلى أن توفي والدها بسبب المخدرات. وحين بلغت "مونيشا" العاشرة من عمرها جرى نقلها هي وأخيها من المنزل من قبل مكتب حماية الأطفال في المدينة، حيث انفصل كل منهما عن الآخر، ووضعا في دار للرعاية. ومنذ ذلك الحين وهي تتردد من دار إلى أخرى، فكانت تمكث في كل دار من دور الرعاية أو منزل أسبوعاً أو شهراً أو عامًا، إلى أن تتفاقم الخلافات حتمًا بسبب الطعام، أو الواجب المنزلي، أو التلفاز، فتهرب، أو يتخلى عنها المسؤولون عن تقديم الرعاية، ثم تذهب إلى دار رعاية أخرى. وقد تنقلت خلال السنوات الست السابقة عبر تسعة منازل ودور رعاية مختلفة.

وعندما قابلتها في خريف عام 2010، كانت قد أتمت عامها الثامن عشر، وقبلها بثلاثة أيام كانت قد تحررت من نظام الرعاية البديلة الذي قضت فيه ما يقرب من نصف عمرها، لقد أخبرتني بأن أكثر التجارب المؤلمة التي مرت بها كانت في اليوم الذي وضعت فيه في كفالة الأسر الحاضنة ودور الرعاية، فقد أخذها الإخصائي الاجتماعي، الذي لم تلتق به من قبل، من فصلها دون سابق إنذار، ونقلها إلى منزل جديد غريب عنها، ولم تتمكن من الاتصال بوالدها إلا بعد شهور عديدة، وقد قالت لي: "إنني أذكر يومي الأول كأنه كان

أمس، أذكره بكل تفاصيله، ولا يزال ذلك اليوم يقتحم عليّ أحلامي، ويقض مضجعي، إنني أشعر بأنني سأظل محطمة إلى الأبد".

وعندما جلسنا في غرفة العلاج، طلبت من "مونيشا" أن تصف لي شعورها تجاه تلك الحياة المحطمة. لقد كانت تعبر عن حالتها الانفعالية على نحو غير عادي - فهي تكتب القصائد عندما تشعر بالحزن أو الاكتئاب - وقد بينت ما تشعر به بدقة، وقالت إنها كانت تصاب بالأرق والكوابيس، وأحياناً ما كان يصيبها ألم غامض في جسدها، وكانت يداها أحياناً ترتعشان، ولا تستطيع أن تسيطر عليهما، وفي الآونة الأخيرة أخذ شعرها يتساقط، وكانت ترتدي فوق رأسها غطاءً لونه باهت الخضرة؛ لكي تغطي مكان تساقط الشعر. وكان القلق هو أشد انفعال تشعر به: فقد كان لديها قلق حيال المدرسة، وأختها الصغرى، والزلازل، حتى إنها قالت لي "إنني أفكر في أغرب الأمور، فأنا أفكر في نهاية العالم. إنني إذا مرت فوق طائرة أظن أنها ستلقي عليّ قنبلة، إنني أفكر في وفاة والدي، ولا أدري ماذا سأفعل لو أنني فقدته"، بل إنها أصبحت قلقة حيال القلق الذي ينتابها، وقد قالت لي: "عندما أشعر بالخوف يبدأ جسدي في الارتعاش، ويخفق قلبي، وأتصبب عرقاً، هل تعرف ما 'الخوف الذي يكاد يقتل صاحبه'؟ إنني خائفة من أن يقتلني خوفاً في يوم من الأيام".

ربما يساعدنا المثال السابق الذي ضربناه بوحدة إطفاء الحريق في فهم ما كان يحدث لـ "مونيشا سوليفان"، فعندما كانت طفلة، كان جرس الإنذار لديها ينطلق ليصل إلى ذروة حالات الاستنفار: كانت أمي وزوجة أبي في صراع مستمر، فأنا لن أرى أبي أبداً، ولن يكون في المنزل أحد ليعد لي العشاء، والأسرة البديلة القائمة على رعايتي لن ترعاني، وفي كل مرة كان صوت الإنذار ينطلق لديها كان الجهاز المسئول عن استجابة التوتر يستنفّر جميع أدواته وإمكاناته، وهذا الاستنفار أحدث لديها ضرراً كبيراً، وعندما بلغت "مونيشا" الثامنة عشرة، لم تكن أكبر مشكلة لديها هي المخاطر التي تواجهها في العالم المحيط بها، بل كانت المشكلة تتمثل في الضرر الذي أحدثه استنفار الجهاز المسئول عن استجابة التوتر.

عندما عرض "ماكوين" فكرة حمل التعديل النفسي في تسعينيات القرن الماضي، لم يتصور أنه يمثل مؤشرًا عدديًا حقيقيًا. ولكن في الآونة الأخيرة قام مع عدد من الباحثين، تقودهم "تيريزا سيمان" 24 - وهي مختصة في الشيخوخة في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس - بمحاولة "تفعيل" حمل التعديل النفسي، وذلك للحصول على رقم واحد لكل فرد يعبر عن الآثار المدمرة التي نتجت عن التحكم في التوتر على مدار حياة ذلك الفرد. وفي عصرنا الحالي يستخدم الأطباء دائمًا مؤشرات للمخاطر الحيوية قابلة للمقارنة، وعلى رأسها قياس ضغط الدم، وتظهر فائدة هذه الأرقام في التنبؤ بحالات مرضية معينة (ولهذا يجري طبيبك اختبارًا لضغط دمك كلما زرتة في عيادته، أيًا كان المرض الذي دعاك إلى الذهاب إليه)، والمشكلة أن الأرقام التي يظهرها اختبار ضغط الدم لا تكفي لقياس المخاطر الصحية المستقبلية بصورة دقيقة، ومؤشر حمل التعديل النفسي الأكثر دقة من شأنه ألا يقتصر على قياس ضغط الدم ومعدل نبضات القلب فقط، بل يشمل أيضًا مستويات قياس الكوليسترول والبروتين المتفاعل سي (وهو مؤشر رئيسي على الإصابة بأمراض القلب والأوعية الدموية) التي تتأثر بالتوتر، وكذلك قياس نسبة الكورتيزول في البول وغيره من هرمونات التوتر، وكذلك نسبة الجلوكوز والأنسولين والدهون في الدورة الدموية، وقد بين كل من "ماكوين" و"سيمان" أن هذا المؤشر المعقد، الذي يشتمل على جميع هذه القيم يمكن الاعتماد عليه بصورة أكبر بوصفه مؤشرًا للمخاطر المرضية في المستقبل مقارنة بضغط الدم أو غيره من القياسات الموجودة حاليًا، التي تقتصر على قياس عامل واحد فقط.

إن هذه الفكرة جذابة ومغرية، ولكنها مخيفة بعض الشيء: فبإمكان الطبيب أن يعطيك رقمًا، وأنت في مطلع العشرينيات مثلاً، يبين التوتر الذي تعرضت له طيلة حياتك، والمخاطر الصحية التي باتت تحقق بك نتيجة ذلك التوتر. فهو بطريقة أو بأخرى قد يعبر عن نسخة محسنة من الرقم الذي كنت ستحصل عليه في اختبار التعرض للتجارب المؤذية في مرحلة الطفولة، ولكن على العكس من هذا الرقم - الذي يعتمد على ما تحكيه عن طفولتك - فإن رقم حمل التعديل النفسي لا يعكس سوى بيانات طبية محضة: وهي

الآثار الجسدية الحقيقية للمحن التي تعرضت لها في مرحلة الطفولة، فهي مدونة في جسمك من الداخل.

6. الوظائف التنفيذية

كانت "نادين بورك هاريس"، باعتبارها طبيبة بشرية، مهتمة في البداية بالتأثيرات الفسيولوجية التي تلحق بمرضاها نتيجة التوتر المستمر والصدمات التي يتعرضون لها في المراحل المبكرة من حياتهم: كارتعاش يدي "مونيشا"، وتساقط شعرها، والآلام التي ليس لها سبب واضح، ولكنها أدركت سريعًا أن هذه العوامل كانت لها تأثيرات متساوية الخطورة على جوانب أخرى من حياة مرضاها، وعندما استخدمت نسخة معدلة عن الاستبيان المعني بالتعرض للتجارب المؤذية في الطفولة - الذي وضعه كل من "روبرت أندرا" و"فينسينت فيليتي" - مع أكثر من سبعمائة مريض من المرضى الذين يفدون على عيادتها، وجدت أن هناك علاقة قوية ومثيرة للانزعاج بين النتائج التي خرجت بها تلك الاستبيانات والمشكلات الموجودة في المدرسة. فقد كان هناك ثلاثة في المائة فقط من مرضاها 25 الذين لم يتعرضوا للتجارب المؤذية في الطفولة - أو كانت نقاطهم التي حصلوا عليها في الاستبيان تساوي صفرًا - يعانون مشكلات سلوكية أو مشكلات في التعلم، وقد وصلت هذه النسبة إلى 51% بين المرضى الذين تصل أرقامهم في استبيان تعرضهم للتجارب المؤذية في مرحلة الطفولة إلى 4 نقاط أو أعلى.

وقد وجد علماء فسيولوجيا التوتر تفسيرًا بيولوجيًا لهذه الظاهرة، فالقشرة أمام الجبهية هي الجزء الأكثر تأثرًا في المخ بالتوتر في السنوات الأولى من حياة الإنسان، ولها دور حيوي في جميع أنواع الأنشطة ذاتية التنظيم، سواءً أكانت انفعالية أم معرفية. ونتيجة ذلك فإن الأطفال الذين ينشأون في بيئات مشحونة بالتوتر يجدون صعوبة أكبر في التركيز بصفة عامة، ويجدون صعوبة أكبر في الجلوس فترة في حالة من الهدوء، وكذلك يجدون صعوبة أكبر في تخطي الإحباطات، واتباع التوجيهات. وهذا الأمر له تأثير مباشر في أدائهم في المدرسة، فعندما يكون المرء محاطًا بالدوافع التي لا يمكن التحكم فيها،

ومشتتًا بفعل المشاعر السلبية، عندها يصعب عليه أن يتعلم شيئًا، حتى لو كان ذلك الشيء في بساطة تعلم الحروف الأبجدية، وفي الواقع عندما يُسأل معلمو رياض الأطفال عن طلابهم في الدراسات الاستقصائية، يقولون إن أكبر مشكلة تواجههم لا تتمثل في عدم معرفة الطفل الأرقام والحروف، بل عدم علمه بكيفية التحكم في حالاته المزاجية، أو تهدئة نفسه بعد مروره بحالة من الغضب. وفي إحدى الدراسات الاستقصائية الوطنية، قال 46% من معلمي رياض الأطفال 26 إن نصف الأطفال الموجودين في صفوفهم على الأقل كانت لديهم مشكلات في اتباع التوجيهات. وفي دراسة أخرى، أفاد معلمو برنامج هيدستارت 27 بأن ما يزيد على ربع طلابهم قد ظهرت عليهم سلوكيات سلبية خطيرة متعلقة بالتحكم في الذات، مثل ركل أو تهديد غيرهم من الطلاب، وكانت هذه السلوكيات تحدث مرة واحدة على الأقل في الأسبوع.

وبعض تأثيرات التوتر على القشرة أمام الجبهية يمكن تصنيفها بأنها تأثيرات انفعالية أو نفسية: كالقلق والاكتئاب بجميع أنواعهما، ولقد بقيت على اتصال بـ "مونيشا" خلال الشهور التي أعقبت أول لقاء بيننا. ورأيت الكثير من هذه الأعراض الانفعالية قد ظهرت عليها، فقد كانت مصابة بعدم الثقة في النفس فيما يتعلق بوزنها وقدرتها على أن تكون أمًا، ومستقبلها بصفة عامة. فقد تعرضت للاعتداء من قبل صديق سابق لها، الذي كانت شخصيته غامضة، حيث كانت قد دعتته ضد رغبتها لتبدد به حالة الوحدة التي تعيشها، وظلت تواجه باستمرار فيضًا غزيرًا من الانفعالات التي كادت تدمرها، وقد قالت لي ذات يوم: "أحيانًا ما يكون التوتر والضغط فوق احتمالي، ولا أعرف كيف يواجهه الناس".

فبالنسبة إليها، كان التأثير الرئيسي للتوتر الزائد على القشرة أمام الجبهية متمثلًا في صعوبة تنظيم انفعالاتها، في حين أن التأثير الرئيسي للتوتر لدى غيرها من الشباب الصغار، وهم عدد كبير، كان متمثلًا في الإخلال بقدرتهم على تنظيم أفكارهم، ما يؤثر في مجموعة من المهارات المعرفية الموجودة في القشرة أمام الجبهية، وهذه المهارات تعرف بالوظائف التنفيذية، وقد أصبح مصطلح الوظائف التنفيذية مصطلحًا تعليميًا مشهورًا في المدارس الموجودة في الأحياء المرفهة، فهي أحدث شيء يتم تقييمه وفحصه، لكن مصطلح

الوظائف التنفيذية صار مجالاً جذاباً وجديداً عند معظم العلماء الذين يدرسون الأطفال الذين يعيشون في الفقر، ويرجع ذلك إلى سبب آخر: إذ يبدو تحسين الوظائف التنفيذية مبحثاً واعداً؛ لأنه يضيّق الفجوة بين الأطفال الذين ينتمون إلى الأسر الفقيرة، وغيرهم من الأطفال الذين ينتمون إلى الطبقة المتوسطة.

ووفقاً لفهمنا الحالي، فإن الوظائف التنفيذية عبارة عن مجموعة من القدرات الذهنية رفيعة المستوى، وقد شبه "جاك شونكوف" - رئيس مركز نمو الطفل التابع لجامعة هارفارد - هذه المهارات بفريق من مراقبي حركة الملاحاة الجوية لمراقبة وظائف المخ²⁸. وهذه الوظائف تشير بصورة عامة إلى القدرة على التعامل مع المواقف والمعلومات المربكة وغير المتوقعة. ومن الاختبارات الشائعة للوظائف التنفيذية اختبار يسمى اختبار ستروب، حيث تُعرض أمامك كلمة أحمر مكتوبة باللون الأخضر، ويسألك شخص عن اللون الذي كتبت به الكلمة. حيث يتطلب منك الأمر جهداً حتى تمنع نفسك من أن تقول كلمة أحمر، والوظائف التنفيذية هي التي تعتمد عليها حتى تقاوم هذا الدافع، وهذه المهمات لها قيمة خاصة في المدرسة، فنحن نطلب من الأطفال باستمرار أن يتعاملوا مع المعلومات المتناقضة أو المتباينة. فالحرف C بالإنجليزية ينطق كحرف K - إلا إذا نطق مثل حرف S، وكلمتا Tale وtail بالإنجليزية لهما النطق نفسه مع اختلاف معنييهما، والصفراء لا يساوي شيئاً إذا كُتب بمفرده، أما إذا وضع أمامه واحد، فإن معناه يتغير تماماً، فحل هذه الحيل المتنوعة وهذه الأشياء غير العادية يتطلب قدرًا معينًا من التحكم في الدوافع المعرفية، وهذه المهارة تتعلق من الناحية العصبية بالتحكم في الدوافع الانفعالية - وهي قدرتك بوصفك طفلاً على أن تمنع نفسك من لكم الطفل الذي أمسك بلعبتك المفضلة. فأنت تستخدم القشرة أمام الجبهية في التغلب على رد فعلك الغريزي والفوري في كل من اختبار ستروب وموقف السيارة اللعبة، وسواء أكنت تستخدم التحكم في الذات على المستوى المعرفي، أم على المستوى الانفعالي، فإن هذه المقدرة تكون ذات أهمية كبيرة لاجتياز يومك الدراسي، سواء أكنت في مرحلة روضة أطفال، أم كنت في السنة الأخيرة لك في المدرسة الثانوية.

لقد تبين منذ فترة أن قدرة الوظائف التنفيذية ترتبط ارتباطًا قويًا بدخل الأسرة، ولكننا لم نكن نعرف السبب في ذلك حتى وقت قريب. ففي عام 2009 قام كل من "جاري إيفانز" و"ميشيل شامبرج" - الباحثين في جامعة كورنيل 29 - بتصميم تجربة أمدتنا للمرة الأولى برؤية واضحة بشأن الطريقة التي يؤثر بها الفقر في مرحلة الطفولة على الوظائف التنفيذية. وكانت المهارة التابعة للوظيفة التنفيذية التي درستها التجربة هي الذاكرة العاملة، التي تشير إلى قدرتك على الاحتفاظ بمجموعة من الحقائق في عقلك في الوقت نفسه، وهي تختلف عن الذاكرة طويلة الأمد، فهي لا علاقة لها بتذكر اسم معلمك في الصف الأول مثلاً، بل لها علاقة بأمور أخرى كالأشياء التي يفترض بك أن تشتريها من السوق، وكانت الأداة التي استخدمها "إيفانز" و"شامبرج" لقياس قدرة الذاكرة العاملة أداة رخيصة: وهي لعبة سيمون الإلكترونية للأطفال. ولو أنك نشأت مثلي في سبعينيات القرن الماضي، فلربما تذكر لعبة سيمون التي أنتجتها شركة هاسبرو للألعاب: وهي عبارة عن قرص يشبه الأطباق الفضائية الطائرة، ويقترّب حجمها من حجم أسطوانات التسجيل الموسيقي لكنها أكثر سمكًا، ولها أربعة جوانب تشع أضواء وتصدر أصواتًا مختلفة، وتضيء هذه الجوانب تبعًا لأنماط تتابعية مختلفة، وعليك أن تتذكر ترتيب هذه الصفرات والومضات الضوئية.

استخدم "إيفانز" و"شامبرج" لعبة سيمون لاختبار الذاكرة العاملة لدى 195 شخصًا، يبلغ كل منهم سبعة عشر عامًا، في المنطقة الشمالية من نيويورك، وهي منطقة صاخبة، وهؤلاء الأشخاص يمثلون جزءًا من مجموعة كان "إيفانز" يخضعها للدراسة منذ الولادة، وكان نصف هؤلاء المشاركين قد نشأوا في أسر تعيش تحت خط الفقر، بينما تربى النصف الآخر في أسر تنتمي إلى الطبقتين العاملة والمتوسطة. وقد اكتشف كل من "إيفانز" و"شامبرج" أولاً أن المدة التي عاشها المشاركون في الفقر، عندما كانوا صغارًا، كانت تنبئ عن أدائهم في المتوسط، في اختبار سيمون، وبعبارة أخرى فإن أداء المشاركين الذين عاشوا في فقر مدة عشر سنوات كان أسوأ من أداء المشاركين الذين عاشوا في الفقر خمس سنوات فقط.

ولم يكن ذلك الأمر يمثل مفاجأة في حد ذاته، فقد اكتشف الباحثون مسبقًا وجود علاقة بين الفقر والذاكرة العاملة.

ولكن حينها قام "إيفانز" و"شامبرج" بشيء جديد، وهو: أنهما قدما بعض القياسات البيولوجية للتوتر، فقد قام الباحثان بأخذ بعض القراءات الفسيولوجية لدى كل طفل من الأطفال المشاركين في الدراسة، وذلك عندما كان هؤلاء الأطفال في سن التاسعة، وكذلك عندما وصلوا إلى سن الثالثة عشرة، وتشمل هذه المستويات ضغط الدم، ومؤشر كتلة الجسم، والمستويات الخاصة بهرمونات معينة بما فيها الكورتيزول، وقد قام الباحثان بدمج هذه المعلومات البيولوجية، لكي يضعوا مقياسًا خاصًا بهما لقياس حمل التعديل النفسي: وهو التأثيرات الجسدية التي تحدث بسبب إرهاق نظام الاستجابة للتوتر. وعندما نظر الباحثان إلى هذه المعلومات، وقارناها بنتيجة اختبار سيمون، وتاريخ معاناة الفقر، ومستوى حمل التعديل النفسي، اكتشفا أن هذه المقاييس الثلاثة مترابطة فيما بينها - فكلما زادت المدة التي عاشها الطفل في الفقر، كان ذلك يعني زيادة حمل التعديل النفسي، وانخفاض درجة الطفل في اختبار سيمون، ولكن حدثت المفاجأة: عندما استخدم الباحثان الأساليب الإحصائية لتعيين تأثير حمل التعديل النفسي، وجدا أن تأثير الفقر قد اختفى تمامًا، فلم يكن الفقر في حد ذاته هو ما يخل بعمل القدرات المتعلقة بالوظائف التنفيذية لدى الأطفال الذين ينتمون إلى أسر فقيرة، بل التوتر الذي كان ملازمًا له.

لقد شكّل هذا الاكتشاف فارقًا كبيرًا في فهمنا الفقر على الأقل، ولك أن تتخيل صبيين يجلسان معًا، ويلعبان لعبة سيمون للمرة الأولى، وأحد هذين الصبيين ينتمي إلى قمة الطبقة المتوسطة، أما الآخر فينتمي إلى عائلة منخفضة الدخل، حيث يتفوق الطفل الذي ينتمي إلى الطبقة المتوسطة في تذكر الأنماط المختلفة، ونحن ربما نميل إلى افتراض أن السبب في هذا التأثير يرجع إلى أسباب وراثية - فربما كان هناك احتمال أكبر بأن يمتلك الأطفال الأغنياء جينًا يجعلهم متفوقين في لعبة سيمون. أو ربما كان الأمر متعلقًا بالمزايا المادية التي تتمتع بها قمة الطبقة المتوسطة - حيث يتوافر في منازل أفرادها المزيد من الكتب والألعاب والألعاب الإلكترونية، أو ربما كانت المدرسة التي يدرس فيها الطفل تتفوق

على غيرها في تعليم مهارات الذاكرة قصيرة الأمد، أو ربما كان الأمر مزيجًا من هذه العناصر الثلاثة، ولكن ما اكتشفه كل من "إيفانز" و"شامبرج" هو أن عظم الضرر الذي يجابهه الطفل الذي ينتمي إلى أسرة منخفضة الدخل هو في الواقع زيادة في حمل التعديل النفسي، ولو أن طفلًا آخر ينتمي إلى أسرة منخفضة الدخل، لكن مستويات حمل التعديل النفسي كانت منخفضة لديه - أي لو أنه وعلى الرغم من الفقر الذي تعيشه أسرته، قد عايش طفولة أقل إثارة للتوتر أيًا كان السبب في ذلك - لتمكن من أن يحقق النتيجة نفسها التي حققها الطفل الذي ينتمي إلى أسرة غنية في اختبار سيمون. والسؤال هو: لماذا يشكل انخفاض درجة الطفل في اختبار سيمون مشكلة؟ لأنه عندما يدخل إلى المدرسة الثانوية، وعندما يدخل إلى الكلية، وعندما يكون في عمله؛ سيكون محاطًا بكم ضخم من المهمات التي لا يمكنه أن ينجح فيها إذا لم تكن الذاكرة العاملة تقوم بدورها.

وسبب التحمس للوظائف التنفيذية من قبل الباحثين المهتمين بالفجوة الموجودة بين الأطفال الذين ينتمون إلى أسر غنية والذين ينتمون إلى أسر فقيرة، يكمن في أن هذه المهارات لا تتنبأ بالنجاح بدرجة كبيرة فحسب، بل إنها أيضًا تعتبر مرنة للغاية مقارنة بغيرها من المهارات المعرفية، إذ تعتبر القشرة أمام الجبهية أكثر استجابة للتدخلات مقارنة ببقية أجزاء المخ، كما أنها تظل مرنة في مرحلة المراهقة وبدايات مرحلة البلوغ؛ ومن ثم فإنه لو أصبح بمقدورنا أن نحسن البيئة التي يعيش فيها الطفل بوسائل معينة تؤدي إلى تحسين الوظائف التنفيذية لديه، عندها يمكننا أن نزيد من احتمالات نجاحه بطريقة فعالة.

8. الطالب "ماش"

إن المخ والجسد يكونان أكثر حساسية تجاه تأثيرات التوتر والصدمات في مرحلة الطفولة المبكرة، ولكن في مرحلة المراهقة يمكن أن يقود الأثر المدمر للتوتر إلى أخطر المشكلات وأطولها أمدًا، وهذه تعتبر بدرجة ما حقيقة واقعية متعلقة بالنضج، فعندما تكون لدى الطفل صعوبات في السيطرة على دوافعه وهو في المرحلة الابتدائية، تكون العواقب

الناجمة عن عدم سيطرته على تلك الدوافع محدودة نسبيًا: فقد يتم تحويله إلى مكتب المدير، أو ينفر منه أحد أصدقائه. ولكن القرارات المندفعة التي تستهويه في مرحلة المراهقة - كالقيادة تحت تأثير الكحوليات، والسرقه، وترك الدراسة في المرحلة الثانوية، والدخول في علاقات غير مشروعة - يمكن في الغالب أن تستمر عواقبها طوال الحياة.

وقد وجد الباحثون، بالإضافة إلى ذلك، أن هناك شيئًا في مخ المراهق يكون خارجًا عن الاتساق على نحو مميز30، وهذا الشيء على وجه التحديد هو ما يعرضه لاتخاذ القرارات السيئة والمندفعة، وقد قام "لورينس شتاينبرج" - وهو عالم النفس في جامعة تيمبل - بتحليل نظامين عصبيين منفصلين31 ينموان في مرحلة الطفولة ومرحلة المراهقة المبكرة، ولهذين النظامين أثر قوي في حياة المراهقين. والمشكلة هي أن هذين النظامين لا يتسقان معًا على نحو جيد، فالأول منهما - يسمى نظام معالجة الدوافع - يجعلك أكثر بحثًا عن المتع الحسية، وأكثر تفاعلاً على الجانب العاطفي، وأكثر انتباهًا إلى المعلومات الاجتماعية. (قد يبدو هذا الأمر مألوفًا لك إن كنت قد مررت بفترة المراهقة). أما النظام الثاني - ويسمى نظام التحكم المعرفي - فيسمح لك بتنظيم جميع هذه الدوافع، ويقول "لورنس شتاينبرج" إن سبب وجود هذه المخاطر دائمًا في سنوات المراهقة هو أن نظام معالجة الدوافع يصل إلى كامل قوته في مرحلة البلوغ المبكرة، في حين أن جهاز التحكم المعرفي لا يكتمل نضجه إلا بعد تجاوز سن العشرين، فنحن نظل نعالج الدوافع بطريقة غير عقلانية على مدار سنوات يسودها الجموح، وذلك دون أن يكون لدينا جهاز للتحكم يتحقق من صحة تصرفاتنا، وإذا أضفنا هذه الكيمياء العصبية المجنونة والقياسية في فترة المراهقة التي يسودها الجموح إلى إرهاب المحور الوطائي النخامي الكظري يصبح لدينا مزيج سام.

وقد شعرت "إليزابيث دوزير" بالعجز حيال حل مشكلات مدرسة فينجر الثانوية؛ نظرًا إلى وجود هذه العوامل مجتمعة لدى عدد كبير من طلاب المدرسة، وقد قررت أن مصلحة المدرسة تقتضي فصل طلاب معينين منها، وذلك بعد الشغب الذي وقع في المدرسة في أكتوبر عام 2009، وكان على رأس هؤلاء الطلاب طالب عمره ستة عشر عامًا، يدعى

"توماس جاستون"، وكان مشهورًا بلقب "ماش"، وكانت "دوزير" ترى أن "ماش" كان زعيم عصابة، فقد كان قادرًا على إثارة المشاجرات في المدرسة بإيماءة منه لأحد مساعديه، وقد قالت لي: "لقد كان شخصًا مثيرًا للمتاعب، فقد كان يدخل إلى المدرسة، فتتفاقم المشاجرات دون أدنى سبب واضح، لقد أحدث حالة من الفوضى والهراء في المدرسة".

وقد عرفت "ماش" بسبب قيامه هو و24 طالبًا من طلاب المدرسة بالتسجيل في برنامج إرشادي مكثف تتكفل بمصاريفه مدارس شيكاغو العامة، وتنفذه مؤسسة غير ربحية تسمى Youth Advocate Programs، أو تختصر بالإنجليزية YAP، وفي خريف عام 2010 وشتاء وربيع عام 2011، قضيت وقتًا طويلًا في روزلاند مع عدد من مناصري هذه المؤسسة، ومع الطلاب الذين كانوا يخضعون لإرشادهم، بمن فيهم "ماش"، وكان مرشدي الرئيسي هو "ستيف جيتس"، وهو نائب مدير المؤسسة في شيكاغو، وهو رجل في أواخر الثلاثينيات، ضخم البنية، وهادئ، وله شعر قصير بجداول متراصة ولحية طويلة، وله عينان لونهما أزرق باهت. وكان "جيتس" يعيش مثل "ماش" في روزلاند على بعد عدة بنايات من مدرسة فينجر، وقد نشأ هناك في ظروف مشابهة، وارتكب الكثير من الأخطاء التي يرتكبها "ماش" الآن بعد عشرين سنة: حيث كان عضوًا في إحدى العصابات، ويحمل سلاحًا ناريًا، ويغامر بحياته ومستقبله كل يوم. إن الماضي الجامح الذي عاشه "جيتس" قد أمدّه بفهم فريد للضغوط التي واجهها "ماش"، كما كان يشعر برغبة ملحة في توجيه "ماش" وغيره من المراهقين في روزلاند - الذين سجلوا أسماءهم في هذه المؤسسة - نحو مستقبل أفضل.

وكان "رون هوبرمان" - الذي خلف "أرني دنكان" مديرًا تنفيذيًا لمنظومة مدارس شيكاغو عام 2009 - هو من دعا إلى إدخال هذه المؤسسة في شيكاغو، وعندما قام "دالي" وهو عمدة شيكاغو بتعيين "هوبرمان" في هذا المنصب، كان لديه قلق من تصاعد معدل العنف المسلح بين الشباب في المدينة، فأوكل إلى "هوبرمان" مهمة غير معتادة لمدير مدرسة: وهي منع الطلاب من قتل بعضهم بعضًا، كان "هوبرمان" مؤمنًا بأهمية البيانات، فقد كانت

أول وظيفة عمل بها بعد تخرجه في الكلية في قسم شرطة شيكاغو، حيث تدرب على برنامج الإحصائيات المقارنة، وهو عبارة عن نظام تحليل للبيانات عالي التقنية، وينسب إليه الفضل في الانخفاض الحاد لمعدل الجريمة في مدينة نيويورك في تسعينيات القرن الماضي، وباعتباره مديرًا تنفيذيًا للمدارس كانت الخطوة الأولى التي قام بها هي تعيين فريق من المستشارين لعمل تحليل لحوادث القتل وإطلاق الرصاص بين طلاب شيكاغو على غرار نظام الإحصاءات المقارنة في نيويورك، ووضع المستشارون نموذجًا إحصائيًا مكّنه، على حد قولهم، من تحديد الطلاب الموجودين في المدينة، الذين يعدّون هم الأكثر عرضة لأن يصبحوا ضحايا العنف المسلح خلال العامين التاليين، ووجدوا أن هناك ألفًا ومائتي طالب في مدارس شيكاغو الثانوية لديهم احتمالية بنسبة واحد إلى ثلاثة عشر بأن يتعرضوا لإطلاق الرصاص عليهم قبل صيف عام 2011، وذلك وفقًا لنموذجهم التحليلي، ومن بين هذه المجموعة من الطلاب تم تحديد مائتي طالب بوصفهم "أكثر عرضة للخطر"، حيث توجد احتمالية بنسبة واحد إلى خمسة بأن يصبحوا ضحايا العنف المسلح خلال العامين التاليين، فتم تسليم هؤلاء الطلاب إلى القائمين على برامج مساعدة الشباب، وخصص لهم مساعد يقدم إليهم الإرشاد والدعم طيلة عشرين ساعة كل أسبوع.

كان "ماش" على هذه القائمة، ومن ثم فقد بحث عنه "ستيف جيتس" في خريف عام 2009 حتى يسجله في المؤسسة ليخصص له مساعدًا، وذلك في الوقت الذي كانت تحاول فيه "إليزابيث دوزير" أن تفصل "ماش" من المدرسة، وبعد أن التحق بالمؤسسة بوقت قصير، تمكّنت من إبعاده عن مدرستها، إذ نقلته بشكل مؤقت، حيث قضى فصلًا دراسيًا في مدرسة فيفيان إي. سامرز الثانوية البديلة، وهي عبارة عن مبنى صغير ومخيف يشبه السجن، وتفصله تسعة مبانٍ عن مدرسة فينجر. ومع أن الدراسة في مدرسة فيفيان لم تلقَ قبولًا لدى "ماش"، فإنه كان يتحسن خلال فترة الشتاء والربيع من ذلك الفصل الدراسي؛ حيث كانت أعين المرشدين في المؤسسة لا تغفل عنه، وكان أول مرشد لـ "ماش" قد مكّنه من العمل في محل لإصلاح السيارات، فقد كان في مقدوره أن ينمي جانبه الفني

في أعمال الطلاء، وقد بدا "ماش" كأنه أدار ظهره لماضيهِ المليء بإثارة المشكلات، وبدأ الانتقال إلى حياة أكثر إنتاجية.

وفي ليلة من ليالي شهر يونيو عام 2010، أخذه مرشده إلى المنزل في وقت متأخر من الليل وتركه بعد أن ظن أنه سيمكث في المنزل طوال الليل، ولكن "ماش" قرر أن يعود إلى الشوارع، وبعد ساعات قليلة كان محتجزاً في سجن مقاطعة كوك هو وصديقه "بوكي"، حيث كانا متهمين باختطاف السيارات تحت تهديد السلاح، وكان كل منهما في انتظار أن يحكم عليه بواحد وعشرين عاماً، ولكن محامي المؤسسة تمكن بطريقة ما من أن يُقنع القاضي بالحكم عليهما بأن يقضيا ثمانية أشهر بدلاً من ذلك في معسكر التدريب، ولم يكن معسكر التدريب مكاناً مريحاً بالنسبة إلى "ماش" - إذ كانت إدارته ذات أسلوب عسكري، وهناك تمارين الضغط والجري عند الفجر مسافة ستة عشر كيلومتراً - ولكنه استعان بانضباط داخلي كان يفتقر إليهِ في مدرسة فينجر، وقضى مدته.

عندما بدأت قضاء الوقت للمرة الأولى مع المرشدين في المؤسسة، ومع طلابهم، كان "ماش" لا يزال محتجزاً قبل أن ألتقي به، ولكنني كنت قد سمعت الكثير عنه - من "جيتس" و"دوزير"، ومن أصدقائه في المؤسسة، بل كذلك من والدته التي ذهبت أنا و"جيتس" في إحدى الليالي لزيارتها عندما كان في معسكر التدريب. وقد كانت "دوزير" تتحدث عن "ماش" باشمئزاز كما لو كان شخصاً خبيثاً. وقد قال لي "جيتس" إن الرجال البالغين كانوا يخافونه بشدة، ولم تكن أمه بالطبع منبهة بسمعته بوصفه رجل عصابات، لكن بدت عليها سعادة كبيرة وهي تخبرنا بأنها كانت تشتري له سراويل داخلية من نوع أرثر مطبوعة عليها رسومات كارتون أردفارك كي تدفعه إلى إبقاء ثيابه مهندمة، وعندما حان لقائي به كنت قلقاً بعض الشيء، وكنت أشعر بأنني ألتقي شخصية مشهورة، ولكن عندما قابلته وجهاً لوجه بدا لي مراهقاً عادياً من الناحية الجنوبية، ولكنه كان يبدو أصغر حجماً - فلم يكن طوله يزيد كثيراً على 150 متراً، وكان يبدو نحيلاً حتى بعد ثمانية أشهر من ممارسة تمارين الضغط - وكانت له مشية تشبه كثيراً مشية "تشابلن"، الممثل الكوميدي الإنجليزي، وكان يبسط قدميه وهو يمشي، وكان مفصل ركبته مصاب بالتيبس،

وكان يضع سلسلة من الخرز حول عنقه، ويضع قبعة تميل فوق جبهته، ويرتدي معطفًا كبيرًا أكبر كثيرًا من جسمه.

ذهبنا لتناول العشاء في الشارع الغربي، حيث تناولنا البيض، وشربنا القهوة، وتحدثنا معًا. وقد نشأ "ماش" مثل بقية أصدقائه في أسرة تفتقر إلى وجود الأب، فقد كانت أمه التي اشترت له السراويل تعيش وحدها، ووصفها لي "جيتس" بأنها "شخصية رائعة، لكنها لا تمتلك بالضرورة أفضل المهارات اللازمة للتربية"، وقد كان لعائلته تاريخ مع العنف والمشكلات القانونية، وقد ذكر لي "ماش" قائمة كبيرة بأشقائه وأبناء عمومته وغيرهم من الأقارب الذين انتهى بهم المطاف إلى السجن أو مقتولين. وقد أخبرني "ماش" بأنه عندما كان في التاسعة من العمر شاهد عمه وهو يُقتل رميًا بالرصاص في منزله. وقد عَقَّب على هذا قائلًا: "لقد كان الأمر جنونيًا، لقد حدث هذا أمام عيني مباشرة"، وفي أثناء حديثنا وجدتني أجمع في هدوء تصنيف "ماش" على مقياس التعرض للتجارب المؤذية في مرحلة الطفولة، وكان التصنيف يرتفع مع كل تجربة صادمة مر بها في طفولته.

ويختلف التاريخ الشخصي لـ "ماش" عن التاريخ الشخصي لـ "مونيشا سوليفان" من حيث الظروف الخاصة بكل منهما - فقد شهد تاريخ "ماش" قدرًا أكبر كثيرًا من العنف مقارنة بما شهدته "مونيشا سوليفان"، ولكن الاضطرابات الأسرية التي شهدتها "مونيشا" كان تأثيرها أكثر عمقًا: فقد هجرتها أمها، وانفصلت عن والدها، وقضت مرحلة المراهقة كلها في بيوت الرعاية البديلة، ومع هذا كانت مرحلة الطفولة لدى كل منهما مليئة بالتوتر الشديد، وقد تحطمت حياة كل منهما بفعل هذا التوتر بدرجة بالغة، وإلى أمد طويل. ومع أنه لم تتوافر لأي منهما الفرصة (أو الرغبة) لقياس حمل التعديل النفسي، وهو القياس الذي أجراه "ماكوين" و"إيفانز" و"شامبرج" وغيرهم من الباحثين لمن خضعوا لتجاربهم، وبافتراض أنهم لو تسنى لهم ذلك لتجاوزت القراءات التي سيتم استنتاجها من المخططات البيانية قراءات الكثيرين من هؤلاء الباحثين، ومع أن الدمار الذي لحق بعقليهما وجسديهما بفعل الصدمات في مرحلة الطفولة قد يكون قابلاً للمقارنة بغيره، لكن هناك اختلافًا كبيرًا في الطريقة التي كشف بها هذا الدمار عن نفسه في حياة كل منهما. فقد أخذت "مونيشا" ذلك

التوتر وحولته إلى داخلها، حيث أخذ يتجلى في صورة الخوف، والقلق، والحزن، وعدم الثقة بالذات، والميل إلى السلوكيات المدمرة للنفس. أما "ماش" فكان على النقيض من ذلك، حيث وجه التوتر إلى الخارج: وظهر ذلك في صورة الشجار والتصرفات السيئة في الفصل، وفي النهاية ظهر ذلك الأمر في الخروج على القانون بصور شتى.

وقد بدأ "ماش" طريقه مع المشكلات في وقت مبكر: فقد تم فصله من المدرسة الابتدائية بسبب شجاره مع المدير، ولكن سلوكه ازداد سوءًا على نحو ملحوظ عندما بلغ الرابعة عشرة، وسقط أخوه - الذي انضم إلى الجيش هربًا من العنف الموجود في الناحية الجنوبية من شيكاغو - قتيلاً بالرصاص في عملية سطو بالقرب من مسكنه في كولورادو سبرينجز، وقد قال لي "ماش": "هذا الأمر هو الذي حطمني، فبعد هذه الحادثة بدأت أفقد اهتمامي بأمور كثيرة". وكان الشيء الوحيد الذي مكّنه من الهروب من ألم موت أخيه هو الانخراط في أعمال العصابات، وكان مما قاله لي: "لقد تجرعت الكثير من الآلام، كنتُ أشبه بالقنبلة الموقوتة، ولكي يهدأ عقلي، كنت أخرج وأمارس التصرفات السيئة، وأستخدم الأسلحة النارية وما إلى ذلك".

وقد قدّم الباحثون في جامعة نورثويسترن 32 مؤخرًا تقييماً للحالة العقلية والنفسية لأكثر من ألف شاب من الشباب المحتجزين في مركز جوفينيل لاحتجاز الأحداث في مقاطعة كوك في شيكاغو - وهو مركز يقيم فيه معظم طلاب المؤسسة فترة يسيرة على الأقل - وقد اكتشفوا في هذه التقييمات أن 84% من المحتجزين قد عايشوا صدمتين خطيرتين أو أكثر في مرحلة الطفولة، وأن معظمهم قد مروا بست صدمات أو أكثر، وقد رأى ثلاثة أرباعهم مقتل شخص ما، أو تعرضه لإصابة شديدة. كما تعرض ما يزيد على 40% من الفتيات للاعتداء الجنسي في فترة الطفولة، وقد قال ما يزيد على نصف الذكور إنهم تعرضوا مرة واحدة على الأقل لمواقف خطيرة، اعتقدوا فيها أنهم - أو أحد المقربين منهم - على وشك الموت، أو التعرض لإصابة شديدة. ومع تكرار هذه الصدمات ليس من المفاجئ أن يكون لها تأثير كبير في الصحة العقلية للمحتجزين: فتم تشخيص ثلثي الذكور بوصفهم مصابين بواحد أو أكثر من الاضطرابات العقلية، أما على مستوى التحصيل

الدراسي فقد كان الأمر متراجعا بشكل كبير33: هؤلاء الشباب المحتجزون كان متوسط درجاتهم في الاختبارات القياسية للحصول على اللغوية من المفردات في الجزء الإحصائي الذي يطلق عليه "المئين الخامس"، وهو ما يعني أنهم كانوا أدنى من أقرانهم بنسبة 95 % على مستوى الدولة.

وعندما تحدثت مع "ماش" وغيره من الشباب المقيمين في روزلاند، وجدت نفسي كثيرًا ما أفكر في بحوث العلوم العصبية وفسولوجيا التوتر التي غيرت رؤية "نادين بورك هاريس"، وفي ظهيرة أحد الأيام دلفت أنا وهي بالسيارة بين مشاريع الإسكان في باي فيو - هانترز بوينت، وكنا ننظر إلى الشباب الواقفين عند زوايا الشوارع، وكانت تتحدث كأنها ترى تدفق هرمونات الكورتيزول والأوكسايتوسين والنورإبينفرين وانحسارها في أجسامهم وأدمغتهم، وقالت: "عندما ننظر إلى هؤلاء الصبية وسلوكياتهم قد يبدو الأمر كله شديد الغموض، لكن في نقطة ما يكون كل ما تراه ليس سوى سلسلة معقدة من التفاعلات الكيميائية، حيث تكون هناك زيادة في أحد البروتينات، أو تنشيط لإحدى الخلايا العصبية، والشيء المثير في ذلك الأمر هو أنه قابل للعلاج، فعندما تبحث في صلب الجزيئات الدقيقة للأمر تدرك أن العلاج يكمن فيها، وهنا تكتشف الحلول".

وقد أخبرتني عن أحد المرضى، وهو شاب مراهق لا يختلف حالاً عن كثير من المرضى، فهو يعيش في منزل مليء بالتوتر، ما زاد من تعرضه للتجارب المؤذية بدرجة كبيرة. وقد عملت في عيادتها خلال وقت طويل حتى تمكنت من متابعته في أثناء نموه، وعندما أتى إلى العيادة للمرة الأولى كان في العاشرة من عمره، كان طفلاً بائساً يعيش في أسرة بائسة، ولكنه كان لا يزال يافعاً، وقد قاوم بعض الصدمات، وكانت أمامه فرصة على ما يبدو للهروب من مستقبله الكئيب، ولكنه أصبح الآن في الرابعة عشرة من عمره، أصبح ذلك المراهق الأسمر الذي يبدو عليه الغضب، وعما قريب سيصبح رجلاً طويل القامة، لقد كان يتسكع في الطرقات، ويجلب إلى نفسه المتاعب - كان في طريقه نحو الإجرام إن لم يكن مجرمًا بالفعل، فمعظمنا يميل في الواقع إلى عدم الشعور بأي شيء سوى التعاطف والتفهم تجاه الأطفال في سن العاشرة - هؤلاء لا يزالون صبية صغارًا، ومن الواضح أنهم ضحايا لا

أكثر. أما من هم في الرابعة عشرة - ولا حاجة إلى أن أذكر أنهم سرعان ما سيصبحون أبناء ثمانية عشر عامًا - فعادة ما ننظر إليهم نظرة أكثر قتامة: فهناك الغضب والخوف، أو ربما نكتفي بالشعور تجاههم بالإحباط، ولكن ما رأيته "بورك هاريس"، مع ما أتيح لها من وقت، وبرؤيتها كونها طبيبة، هو أنه لا فرق بين الصبي ذي الأعوام العشرة والصبي ذي الأربعة عشر عامًا، فكلاهما الصبي نفسه، كلاهما يتعامل مع المؤثرات البيئية ذاتها، كلاهما يجابه العمليات المعقدة نفسها على مستوى الكيمياء العصبية.

وحين قضيت بعض الوقت مع الأطفال الموجودين في المؤسسة، كانت تراودني أسئلة متعلقة بمشاعر الذنب واللوم: متى يصبح الصبي البريء رجلًا يستحق أن يُلام؟ فأنا لا أعترض على أن اختطاف السيارات تحت تهديد السلاح أمر سيئ للغاية، وأن الأشخاص الذين يرتكبون هذا الفعل يجب أن يواجهوا تبعات تصرفاتهم، حتى لو كانوا في مثل حساسية "ماش" وعقلانيته، ولكن يمكنني أيضًا أن آخذ بوجهة نظر "ستيف جيتس" إذ إنه يرى أن هؤلاء الشباب يعيشون في منظومة رهيبة تحدد قراراتهم على نحو يجعل من المستحيل لهم أن يصمدوا، وقد عرّف "ستيف" هذه المنظومة في السياق الاجتماعي والاقتصادي إلى حد كبير، أما "بورك هاريس" فكانت تنظر إليها من منظور الكيمياء العصبية، ولكن كلما زاد الوقت الذي كنت أقضيه في روزلاند، كانت كلتا وجهتي النظر تتقارب إحداهما من الأخرى.

9. التنظيف واللعق

إن الكثير من المعلومات الحديثة عن مرحلة الطفولة والفقر التي كشف عنها علماء النفس وعلماء الأعصاب قد تسبب الرهبة لأي شخص يحاول أن يحسّن من حياة الأطفال الذين عاشوا طفولة سيئة. فنحن نعلم الآن أن التعرض للتوتر والمحن في المراحل المبكرة من الطفولة يمكن أن يؤثر حرفيًا في الجسد، حيث يسبب ضررًا يدوم طيلة حياة الطفل. ولكن هذه البحوث تتضمن أيضًا بعض الأخبار الإيجابية، فقد تبين أن هناك ترياقًا فعالًا للآثار السيئة للتعرض للتوتر في مرحلة الطفولة، وهذا الترياق لا يأتي من قبل شركات صناعة

الدواء، أو من المربين الذين يربون الأطفال في مرحلة الطفولة المبكرة، بل يأتي من قبل الوالدين. فالوالدان ومقدمو الرعاية الذين يمكنهم أن يقيموا مع أطفالهم علاقة مقربة، وأن ينشئوهم تنشئة جيدة، وبإمكانهم أن يقووا من المرونة لدى أطفالهم؛ ما يحميهم من الكثير من الآثار السيئة للبيئة القاسية التي يعيشون فيها خلال المراحل الأولى من حياتهم، وفي حين أن هذه الرسالة قد تبدو رسالة حماسية وغامضة بعض الشيء، لكنها متجذرة في العلوم البحتة، ويقول علماء الأعصاب إن التربية الجيدة لا يمتد تأثيرها إلى الجانب الانفعالي أو النفسي فحسب، بل يمتد أيضًا إلى العمليات الكيميائية الحيوية التي تحدث داخل الجسم.

ويعد عالم الأعصاب "مايكل ميناي"، الذي يعمل في جامعة مكجيل، هو الباحث الذي بذل كل ما في وسعه ليزيد من فهمنا العلاقة بين تربية الأطفال والتوتر، وقد أجرى الكثير من أبحاثه على الفئران، ككثير من الباحثين في هذا المجال؛ لأن هناك تشابهًا في تصميم الدماغ بين البشر والفئران، ويوجد بمعمله المئات من الفئران في أي وقت من الأوقات، وتعيش تلك الفئران في أقفاص مصنوعة من الزجاج، وفي كل قفص توجد أم ومعها ما ولدته من فئران صغيرة.

وفي معامل الفئران، يقوم العلماء دائمًا بالتقاط الفئران الصغيرة لفحصها ووزنها، وفي أحد الأيام، منذ نحو عشرة أعوام، لاحظ الباحثون في معمل "ميناي" شيئًا مثيرًا للفضول³⁴: فعندما أعادوا الفئران الصغيرة بعد فحصها، كانت تهزول إليها بعض الأمهات، وتقوم بلعقها وتنظيفها، بينما كانت أمهات أخرى تتجاهل صغارها، وحين فحص الباحثون الفئران الصغيرة، اكتشفوا أن هذا التصرف غير المهم على ما يبدو له تأثير فسيولوجي مميز، فقد اكتشفوا أنه عندما قام المساعدون بفحص الفئران الصغيرة أحدث هذا قلقًا لديها، متسببًا في تدفق شديد لهرمونات التوتر في أجسادها، وكان قيام الأمهات بلعق الصغار وتنظيفها يوقف هذا القلق، ويخفف من تدفق هرمونات التوتر.

اهتم "ميناي" ومن معه من الباحثين بالأمر، وأرادوا أن يعرفوا المزيد عن طبيعة عمل التنظيف واللعق، وتأثيرهما في الفئران الصغيرة؛ ومن ثم فقد استمروا في مراقبة الفئران، وقضوا أيامًا وليالي طويلة في النظر إلى الأقفاص التي توجد فيها الفئران، وبعد أسابيع عديدة من الملاحظة الدقيقة، اكتشفوا أمرًا إضافيًا وهو: وجود أنماط مختلفة لللعق الفئران وتنظيفها بين الأمهات؛ حتى لو لم يتم فحص الفئران الصغيرة، مما حدا بـ "ميناي" وأفراد فريقه لإجراء تجربة جديدة باستخدام مجموعة جديدة من الأمهات في محاولة لقياس هذه الأنماط، ولكنهم هذه المرة لم يفحصوا أيًا من الفئران الصغيرة، بل كانوا يراقبون الأقفاص عن قرب طوال الأيام العشرة الأولى من حياة الفأر الصغير، على أن تتم الملاحظة ثماني مرات كل يوم، وتستمر المرة الواحدة مدة ساعة كاملة. وأحصى الباحثون كل مرة تمت فيها عملية اللعق والتنظيف 35، وبعد عشرة أيام قسموا الأمهات إلى فئتين: الأمهات التي كانت تلحق صغارها وتنظفها كثيرًا، والأمهات التي كانت قليلًا ما تفعل ذلك.

فقد أراد الباحثون أن يعرفوا التأثيرات طويلة الأمد التي يمكن أن تنشأ عن هذين السلوكين المختلفين في التربية، وعندما أتمت الفئران الصغيرة اثنين وعشرين يومًا، كانوا يفظمونها عن الرضاعة، ويعزلونها عن أمهاتها، على أن تقضي بقية مرحلة البلوغ مع إخوتها الذين ينتمون إلى الجنس نفسه. وعندما وصلت تلك الفئران الصغيرة إلى مرحلة النضج التام - حيث تبلغ أعمارها نحو مائة يوم - قام فريق "ميناي" بإجراء سلسلة من الاختبارات عليها، وكانت هذه الاختبارات معنية بمقارنة النتائج المترتبة على اللعق والتنظيف لدى الفئة التي كانت الأمهات فيها تكثر من لعق صغارها وتنظيفها، والفئة التي كانت الأمهات فيها لا تكثر من هذا الأمر.

وقد استخدم التقييم الرئيسي شيئًا يُدعى اختبار المجال المفتوح، وهو إجراء شائع في الدراسات المعنية بسلوك الحيوانات: حيث يوضع الفأر في حاوية كبيرة دائرية الشكل خمس دقائق، ويُسمح له باستكشافها بحرية، وهنا تميل الفئران المصابة بالتوتر إلى الاقتراب من جدار الحاوية والدوران حول محيطها، أما الفئران الجريئة فتميل إلى المجازفة بالابتعاد عن الجدار، واستكشاف المجال كله. أما الاختبار الثاني فقد صمم لقياس

مدى الخوف، حيث يتم وضع الفئران الجائعة في قفص جديد عشر دقائق، ويقدم إليها الطعام، وهنا تستغرق الفئران القلقة - كما هي الحال بالنسبة إلى الضيف المتوتر في حفلة عشاء فاخرة - وقتًا أطول حتى تحاول أن تتناول أي طعام، ولا تأكل كثيرًا مثل الفئران الأكثر هدوءًا وثقة.

لقد كان الاختلاف بين كلتا المجموعتين لافتًا للنظر في كلا الاختبارين، ففي المتوسط استغرقت الفئران التي لم تكن أمهاتها تلحقها وتنظفها كثيرًا، عندما كانت صغيرة، أقل من خمس ثوانٍ في استكشاف الحقل المفتوح، أما الفئران التي كانت أمهاتها تكثر من لعقها وتنظيفها، فقد استغرقت خمسًا وثلاثين ثانية في استكشاف المجال الداخلي - وهي مدة أطول سبعة أضعاف بالنسبة إلى المجموعة الأولى، أما عن اختبار الطعام ذي الدقائق، فقد بدأت صغار الفئران التي كان لها نصيب أكبر من التنظيف واللعق، تأكل بعد أربع دقائق، واستمرت في الأكل مدة تزيد في مجموعها على دقيقتين، أما المجموعة الأخرى فلم تأكل إلا بعد مضي ما يزيد على عشر دقائق، ولم تستمر مدة أكلها سوى ثوانٍ قليلة.

واستمر الباحثون في إجراء الاختبارات واحدًا تلو آخر، ومع كل اختبار كانت المجموعة التي أكثر أمهاتها من لعقها وتنظيفها هي المجموعة المتفوقة: كانت أفضل من المجموعة الأخرى في عبور المتهات، وكانت اجتماعية بشكل أكبر وأكثر فضولًا، وأقل عدائية، وأكثر قدرة على التحكم في الذات، وكانت تنعم بصحة أفضل، كما أنها عاشت فترة أطول. لقد دُهل "ميناي" ومن معه من الباحثين مما رأوه، فما بدا اختلافًا بسيطًا في تصرفات الأم في الطفولة المبكرة، كان أمرًا دقيقًا لم يلاحظه الباحثون طيلة عقود، إذ به يؤدي إلى اختلافات كبيرة في السلوك لدى الفئران الناضجة، وذلك بعد شهور من انتهاء مرحلة اللعق والتنظيف من قبل الأمهات. ولم يكن التأثير سلوكيًا فحسب، بل كان أيضًا تأثيرًا بيولوجيًا، فعندما فحص الباحثون الذين يعملون مع "ميناي" أدمغة الفئران البالغة، اكتشفوا فروقًا كبيرة في نظام الاستجابة للتوتر بين مجموعتي الفئران اللتين ذكرناهما، وتشمل هذه الاختلافات اختلافات نمو في الحجم والشكل، ومدى تعقيد الأجزاء المسؤولة عن تنظيم التوتر الموجودة في المخ.

وكان "ميناي" يتساءل عما إن كان معدل اللعق والتنظيف مجرد وسيلة لنقل صفة وراثية معينة تنتقل من الأم إلى صغارها، فربما تلد الأمهات المصابات بالتوتر صغارًا ذات مزاج متوتر، وتميل هذه الأمهات، مصادفة، إلى عدم الإكثار من لعق وتنظيف صغارها. ولاختبار هذه الفرضية، أجرى "ميناي" وفريقه من الباحثين عددًا من تجارب تبادل التربية³⁶، حيث كانوا ينقلون صغار الفئران بين الأمهات اللاتي يكثرن من اللعق والتنظيف، والأمهات اللاتي يقللن منهما بمختلف أنواعهن، وبصرف النظر عن طريقة التبديل والنقل التي استخدموها فقد أجريت التجربة، واكتشفوا الشيء نفسه: وهو أن التأثير كان لعادات التنظيف واللعق التي تتبعها الأم التي تتولى التنشئة، لا الأم التي ولدت الفأر الصغير. فعندما كان الصغير يتلقى قدرًا مناسبًا من اللعق والتنظيف في طفولته، كانت تنمو فيه الشجاعة والقدرة بصورة أكبر، وكان أكثر تكيّفًا مقارنة بالصغير الذي لم يتلق تلك الرعاية، وذلك سواء أكانت الأم التي تولت اللعق والتنظيف هي الأم التي ولدت الصغير، أم كانت أمًا غيرها، فعملية اللعق والتنظيف نفسها هي التي يُعوّل عليها في هذا الأمر.

10. الثعلق

وجد "ميناي" وعلماء آخرون في علم الأعصاب أدلة مثيرة للغاية على أن هناك تأثيرًا مشابهًا لتأثير اللعق والتنظيف لدى البشر أيضًا، وقد تمكن "ميناي" وفريقه من الباحثين من خلال التعاون مع علماء الوراثة خلال العقد الماضي من أن يبرهن على أن اللعق والتنظيف اللذين تقوم بهما أمهات الفئران لا يؤثران فقط في مستوى الهرمونات وكيماويات المخ في الصغار فحسب، بل يمتد ذلك التأثير إلى عمق أبعد من ذلك، إذ يتحكم في التعبير الجيني³⁷، فلعق وتنظيف الفئران الصغيرة في الأيام الأولى من حياتها يؤثر في الطريقة التي ترتبط من خلالها مواد كيميائية معينة بسلاسل محددة في الحمض النووي للصغير، وتُعرف هذه العملية بالمثيلة. وقد تمكّن فريق "ميناي" من تحديد الجزء الذي تم "تنشيطه" من الشريط الوراثي للفئران الصغيرة، وذلك باستخدام تكنولوجيا الترتيب الجيني، وقد تبين أن هذا الجزء تحديدًا هو الذي يتحكم في طريقة المعالجة التي تقوم بها

منطقة الحصين الموجودة في أدمغة الفئران، حيث تتولى معالجة هرمونات التوتر في مرحلة البلوغ.

وهذا الاكتشاف في حد ذاته أحدث ضجة في مجال العلوم العصبية، فقد أظهر أن السلوكيات الأبوية الدقيقة لدى الفئران على الأقل لها تأثيرات طويلة الأمد، ويمكن توقعها، كما أن تلك التأثيرات ترتبط بالحمض النووي، ويمكننا في الواقع أن نتعقب تلك التأثيرات، وأن نلاحظها، ولكن الأمر الذي أخرج هذا الاكتشاف من عالم القوارض إلى ما هو أبعد من ذلك، كان التجربة التي أجراها فريق "ميناي"، حيث استخدم أنسجة المخ الخاصة بالأشخاص الذين أقدموا على الانتحار 38 - حيث استخدم أنسجة من أشخاص تعرضوا للمعاملة السيئة في مرحلة الطفولة، وأنسجة أخرى من أشخاص لم يتعرضوا لتلك المعاملة السيئة. وقام الباحثون بتشريح نسيج المخ، وفحصوا الأماكن الموجودة على شريط الحمض النووي، المرتبطة باستجابة التوتر في منطقة الحصين - وهو الجزء البشري المقابل من الحمض النووي للفئران الذي تم تنشيطه من خلال السلوكيات الأبوية في مرحلة الطفولة المبكرة، وأدى إلى تأثيرات عميقة في سلوكياتها المستقبلية. وقد اكتشف الباحثون أن الأشخاص المنتحرين الذين تعرضوا لسوء المعاملة والإيذاء في مرحلة الطفولة، كانت لديهم تأثيرات مثيلة في الجزء نفسه من الحمض النووي، على الرغم من أن سوء المعاملة كان له تأثير مناقض لتأثير اللعق والتنظيف عند الفئران: فقد أدت إلى تثبيط وظيفة استجابة التوتر الصحية التي كان اللعق والتنظيف قد نشطها لدى الفئران.

إن دراسة حالات المنتحرين تعد دراسة مثيرة للاهتمام بكل تأكيد، ولكنها وحدها لا ترقى إلى مرتبة الدليل القاطع لتأثير التربية في وظيفة التوتر لدى البشر. ولكن بفضل بعض الدراسات المبدعة والمبنية على أبحاث "ميناي" بدأت تظهر أدلة أكثر قوة، حيث كان "كلانسي بلير"، الباحث في علم وظائف الأعضاء في جامعة نيويورك³⁹، يُجري تجربة واسعة النطاق، تابع فيها مجموعة تزيد على ألف ومائتي طفل منذ ولادتهم، حيث بدأ متابعة الأطفال بمجرد أن أتموا سبعة أشهر، وفي كل عام كان يقيس ارتفاع معدلات الكورتيزول لديهم نتيجة تعرضهم للمواقف المسببة للتوتر - وهي طريقة بسيطة لتقييم

كيفية تعامل الطفل مع التوتر بشكل جيد، وهذا مؤشر أولي لقياس حمل التعديل النفسي، وقد وجد "بلير" أن المخاطر البيئية - مثل الاضطرابات الأسرية، والفوضى والضغط - كان لها تأثير كبير في مستويات الكورتيزول لدى الأطفال - ولكن هذا التأثير لا يتحقق إلا في حالة إهمال الأم، أو عدم تجاوبها على النحو المطلوب، ففي حين كانت الأمهات يحققن نقاطًا مرتفعة على مقاييس الاستجابة 40، بدا أن تأثير العوامل البيئية في الأطفال قد تلاشى تمامًا، وبعبارة أخرى إن الأمهات اللاتي يولين أطفالهن عناية كبيرة، يمكنهن أن يُشكلن سدًا منيعًا ضد الأضرار التي تلحق بالجهاز المعني بالاستجابة للتوتر، كما كان يحدث عند قيام أمهات الفئران بلعق صغارها وتنظيفها؛ الأمر الذي بدا أنه يحمي هذه الصغار مستقبلًا.

وقد قام "جاري إيفانز" - العالم في جامعة كورنيل 41، الذي ظل طيلة عقدين تقريبًا يستخدم في دراساته لعبة سيمون لاختبار قدرة الأطفال في شمال نيويورك - بإجراء تجربة مماثلة لتجربة "بلير"، لكن عينة التجربة كانت مؤلفة من طلاب المرحلة المتوسطة، فقام بجمع ثلاثة أنواع مختلفة من البيانات عن كل طفل، وهي: تقييم للمخاطر التراكمية، يأخذ في اعتباره كل شيء من الضوضاء المحيطة في منزل الطفل حتى الاستبيانات عن تفكك الأسرة؛ وكذلك مقياس لقياس حمل التعديل النفسي، ويشتمل على قياس ضغط الدم، ومستوى هرمونات التوتر في البول، ومؤشر كتلة الجسم؛ وكذا تقييم لاستجابة الأم، ويتضمن ذلك إجابات الطفل عن سلسلة من الأسئلة عن أمه، مع ملاحظة الباحث للأم والطفل وهما يلعبان لعبة جينجا معًا (وهي لعبة أخرى من إنتاج شركة هاسبرو!). وقد اكتشف "إيفانز" ما يمكنك أن تتوقعه الآن: وهو أنه كلما ارتفعت نسبة المخاطر البيئية، ارتفع حمل التعديل النفسي - إلا إذا كانت الأم تولي طفلها استجابة خاصة. فإذا كانت هذه الاستجابة موجودة، فإن تأثير عوامل التوتر من البيئة المحيطة - من الضغوط الشديدة، والفقر، والاضطرابات الأسرية - يتلاشى تمامًا؛ وبعبارة أخرى، إذا كانت الأم شديدة الحساسية تجاه الحالة الانفعالية لدى طفلها في أثناء لعبة جينجا، عندها يبطل تأثير التجارب السيئة الماضية في حمل التعديل النفسي.

وعندما نهتم بتأثير التربية في الأطفال، نميل نحن إلى اعتقاد أن التأثيرات الكبيرة سوف تظهر عند أحد طرفي النسق الخاص بجودة التربية، فنحن نفترض أن الطفل الذي تعرض للإيذاء الجسدي سوف يخفق بشكل أسوأ كثيرًا من الطفل الذي تعرض للإحباط أو التجاهل فقط، والطفل الذي نشأ لدى أم ممتازة، ويحصل على مزيد من التثقيف والإرشاد والدعم الفوري سيكون أفضل كثيرًا من الطفل العادي الذي يحبه والداه، ولكن البحث الذي أجراه كل من "بلير" و"إيفانز" يشير إلى أن التربية الجيدة بشكل منتظم - التي تظهر في التعاون والاهتمام في أثناء لعبة جينجا - بإمكانها أن تصنع فرقًا كبيرًا بالنسبة إلى مستقبل الطفل.

ويرى بعض علماء النفس أن أقرب شيء لدى البشر يوازي اللعق والتنظيف عند الفئران يمكن أن يوجد في ظاهرة تسمى التعلق، وقد نشأت نظرية التعلق في الخمسينيات والستينيات 42 من القرن الماضي على يد كل من المحلل النفسي البريطاني "جون بولبي" و"ماري أينسورث"، وهي باحثة في جامعة تورونتو. وفي تلك الفترة كان علماء السلوك يسيطرون على مجال تنشئة الطفل، وكانوا يرون أن الطريقة التي ينشأ بها الأطفال ما هي إلا طريقة آلية، فالطفل يكتسب سلوكياته وفقًا للتعزيز السلبي والإيجابي الذي يعايشه، كما يرى هؤلاء أن الجانب الانفعالي لدى الأطفال ليس شديد العمق، فحينئذ الواضح لأمه ليس سوى مؤشر لاحتياجاته البيولوجية طلبًا للغذاء والارتياح الجسدي، وبناءً على النظرية السلوكية، فإن النصيحة الرئيسية للآباء والأمهات في فترة الخمسينيات من القرن الماضي كانت هي تجنب "التدليل المفرط" للأطفال من خلال حملهم أو تلبية رغباتهم عندما يبتكون.

وقد أظهرت "ماري أينسورث" في سلسلة من الدراسات في فترة الستينيات ومطلع السبعينيات أن تأثير الحنو المبكر كان مناقضًا تمامًا لتوقعات علماء السلوك، فالأطفال الرضع الذين يستجيب والداهم بشكل كامل ودون تردد لبكائهم خلال الأشهر الأولى في حياتهم، وعلى مدار سنة كاملة، يصبحون أكثر استقلالية وجسارة مقارنة بالرضع الذين يُقابل بكاءهم بالتجاهل، وقد امتد تأثير هذا النمط السلوكي فترة ما قبل المدرسة، حيث

إن الأطفال الذين كان والداهم يستجيبون بحساسية كبيرة تجاه احتياجاتهم الانفعالية في الطفولة، كانوا أكثر اعتمادًا على أنفسهم. ويؤكد كل من "أينسورث" و"بولبي" أن اهتمام الوالدين الشديد وحساسيتهم تجاه الطفل يخلقان "قاعدة آمنة" ينطلق منها الطفل لاستكشاف العالم.

ومع أن علماء النفس في الستينيات من القرن الماضي كان لديهم الكثير من الاختبارات التي يمكن من خلالها تقييم القدرات المعرفية لدى الأطفال، سواء أكانوا في مراحل الطفولة المبكرة أم المتأخرة، فإنهم لم تكن لديهم طريقة موثوقة لقياس القدرات الانفعالية لدى الأطفال، ما دعا "أينسورث" إلى اختراع مقياس يقوم بهذا الأمر فحسب، وهو إجراء غير عادي يسمى الموقف الغريب. حيث كانت الأم تُحضر طفلها، الذي أتم اثني عشر شهرًا، إلى معمل على هيئة غرفة للعب الأطفال، وذلك في جامعة جونز هوبكينز في بالتيمور، حيث تعمل "أينسورث" أستاذة في تلك الجامعة، وبعد أن تلعب الأم مع طفلها فترة تغادر الغرفة، وأحيانًا تترك الطفل مع شخص غريب عنه، أو تتركه بمفرده. وبعد مدة وجيزة تعود الأم، وكانت "أينسورث" وفريقها من الباحثين يراقبون الطفل عبر نوافذ لا تمكنه من رؤيتهم، ثم يصنفون ردود أفعاله.

وكان معظم الأطفال يفرحون بعودة أمهاتهم، ويهرولون إليهن، ويكلمونهن، وبعضهم كان يبكي، والبعض الآخر كان سعيدًا. وهؤلاء صنفتهم "أينسورث" بأنهم يتمتعون بتعلق آمن، واستنتج علماء النفس في التجارب التي أجريت لاحقًا خلال العقود القليلة الماضية أن هذا التعلق الآمن موجود لدى 60% من الأطفال في أمريكا، أما الأطفال الذين لم يظهروا ترحيبًا حارًا بعودة الأم - حيث تظاهروا بتجاهل الأم عند عودتها، وأخذوا يهاجمونها، أو يسقطون على الأرض عمدًا - فقد تم تصنيف التعلق الموجود لديهم بأنه تعلق مضطرب. وقد اكتشفت "أينسورث" أن رد فعل الطفل في هذه التجربة كان يرتبط مباشرة بدرجة استجابة والديه له خلال السنة الأولى من حياته، فالأبوان اللذان يتفهمان الحالة المزاجية للطفل، ويستجيبان لإيماءاته وإشاراته كان التعلق لدى أطفالهما تعلقًا آمنًا، أما نمط التربية الذي كان يتضمن الانفصال، أو الصراع، أو العدوانية فقد تسبب في تنمية مشاعر التعلق

المضطرب لدى الأطفال، وتقول "أينسورث" إن التعلق المبكر بالأبوين له تأثيرات نفسية، يمكن أن تمتد طوال عمر الطفل.

11. مينيسوتا

ولكن حديث "أينسورث" عن الآثار طويلة الأمد للتعلق المبكر لم يكن سوى كلام نظري في ذلك الوقت. فلم يكن أحد قد تمكن من طريقة موثوقة لاختبار صحة هذا الأمر، ولكن بعد ذلك في عام 1972، كان هناك باحث من مساعدي "أينسورث"، يدعى "إيفيريت ووترز"، وتخرج في جامعة جونز هوبكينز، وجعل برنامج رسالة الدكتوراه الخاص به في مجال تنشئة الطفل في جامعة مينيسوتا، وهناك التقى "إيفيريت" بـ "ألان سروف"، وهو النجم الصاعد في معهد تنشئة الطفل في الجامعة، وكان "سروف" يشعر بالإثارة حيال ما أخبره به "ووترز" بشأن أبحاث "أينسورث"، وسرعان ما تبنى أفكارها وأساليبها، فأسس مع "ووترز" معملًا تمكنا فيه من إجراء اختبار الموقف الغريب مع الأمهات والأطفال، وسرعان ما أصبح المعهد مركزًا رياديًا في بحوث التعلق.

وقد وُحِدَ "سروف" جهوده مع "بايرون إيجيلاند"، وهو أحد علماء النفس في الجامعة، وكان قد تلقى منحة من الحكومة الفيدرالية لإجراء دراسة طويلة الأمد عن الأمهات ذوات الدخل المنخفض وأطفالهن، وقد أجريا اختباراتهما على 267 امرأة حاملًا - ممن لم يسبق لهن الحمل - من العيادة الصحية العامة المحلية في مينابوليس، وكنَّ جميعًا يقعن تحت خط الفقر، وكان 80% منهن من ذوات البشرة البيضاء، وكان الثلثان منهن قد انفصلن عن أزواجهن، ونصفهن في سن المراهقة، وبدأ "إيجيلاند" و"سروف" يتابعان هذه المجموعة من المواليد الجدد 43، وظلا يدرسان هذه المجموعة منذ ذلك الحين. (لقد أصبحت هذه العينة في أواخر الثلاثينيات من العمر الآن، كما أن كلاً من "إيجيلاند" و"سروف" قد تقاعدا مؤخرًا)، والأدلة التي أسفرت عنها الدراسة تعد أكثر التقييمات اكتمالاً حتى الآن للآثار طويلة الأمد المترتبة على العلاقة بين الطفل ووالديه، ودورها في تنشئة الطفل، وقد

لخص "إيجيلاند" و"سروف"، بالإضافة إلى باحثين مساعدين، هذه الأدلة في كتابهما الصادر عام 2005، وعنوانه *The Development of the Person*.

وقد وجد الباحثون في جامعة مينيسوتا 44 أن تصنيف التعلق لا يعد مصيرًا ثابتًا، فأحيانًا ما تتغير علاقة التعلق في مرحلة الطفولة، وهناك بعض الأطفال الذين صُنّفوا ضمن إطار التعلق المضطرب. ولكن بالنسبة إلى معظم الأطفال، فإن حالة التعلق في السنة الأولى التي يتم قياسها من خلال اختبار الموقف الغريب وغيره من الاختبارات، تعد مؤشرًا قويًا لمجال واسع من النتائج التي ستحدث في مستقبل الشخص، فالأطفال ذوو التعلق الآمن في السنة الأولى من حياتهم كانوا اجتماعيين بشكل أكبر، حيث كانوا أكثر قدرة على الاندماج مع أقرانهم في مرحلة ما قبل المدرسة، وكانوا أكثر قدرة على إقامة صداقات قوية في مرحلة الطفولة المتوسطة، وكذلك كانوا أكثر قدرة على مجابهة الديناميات الاجتماعية المعقدة على شبكات التواصل الاجتماعي بين المراهقين.

وفي مرحلة ما قبل المدرسة، قام المعلمون بتصنيف سلوك ثلثي الأطفال الذين شملتهم دراسة مينيسوتا 44 من ذوي التعلق الآمن بأنه سلوك "رائع"؛ ما يعني أن هؤلاء الأطفال كانوا متبهرجين خلال الحصص، وكانوا مندمجين فيها، وأن السلوك السيئ في الفصل كان نادرًا، ومن بين الأطفال الذين خضعوا للملاحظة منذ سنوات قليلة، وكان لديهم تعلق مضطرب، وُضع واحد من كل ثمانية منهم ضمن فئة الأطفال ذوي السلوك الرائع، في حين تم تصنيف الأغلبية العظمى منهم من قبل معلمهم بأن لديهم مشكلة أو أكثر من المشكلات السلوكية. (ولم يكن المعلمون على علم بنتيجة اختبار الموقف الغريب لهؤلاء الأطفال)، فالأطفال الذين تقرر في التقييمات الأولى أن والديهم قد أهملوهم أو لم يدعموهم عاطفيًا في أسلوب التربية الذي اتبعوه، كانوا هم الأسوأ في مرحلة ما قبل المدرسة، وهنا أوصى المعلمون بأن يتلقى ثلثا هؤلاء الأطفال تعليمًا خاصًا، وأن يعيدوا الصف الدراسي الحالي، وعندما قام المعلمون بتصنيف الطلاب 45 من حيث الاعتماد على الآخرين، وقع 90 % من الطلاب الذين لديهم تاريخ من التعلق المضطرب ضمن نصف الفصل الذي يمثل الطلاب الأكثر اعتمادًا على الغير، في حين لم يقع ضمن هذا التصنيف سوى 12 % فقط من

الطلاب الذين لديهم تاريخ من التعلق الآمن، وعندما أجري مسح للأطفال والمعلمين 46 تبين أن الأطفال ذوي التعلق المضطرب كانوا غالبًا ما يوصفون بالبذاءة، والانطواء، والفجاجة، أو عدم النضج.

وعندما أتم الأطفال الذين تناولتهم الدراسة عشرة أعوام، دعا الباحثون مجموعة منهم، مؤلفة من ثمانية وأربعين طالبًا تم اختيارهم عشوائيًا، إلى معسكر صيفي، تنعقد فيه جلسات على مدار أربعة أسابيع، حيث تمت ملاحظتهم عن قرب، وخضعوا لدراسة متأنية، وقد قام المستشارون (الذين لم يكن لهم علم أيضًا بتصنيف هؤلاء الطلاب من حيث التعلق) بتصنيف الطلاب الذين كان لهم تعلق آمن في مرحلة الطفولة المبكرة باعتبارهم أكثر ثقة بالنفس، وأكثر فضولًا 47، ويتمتعون بقدرة أفضل في التعامل مع العراقيل. أما من كان لديهم تعلق مضطرب، فقد كانوا يقضون وقتًا أقل مع أقرانهم، ويقضون وقتًا أطول مع المستشارين، ويقضون أيضًا وقتًا أطول بمفردهم.

وفي النهاية، تابع الباحثون هؤلاء الأطفال في المدرسة الثانوية، حيث وجدوا أن الرعاية من قبل الآباء والأمهات 48 كانت أكثر دقة من اختبارات قياس الذكاء واختبارات التحصيل في التنبؤ بالطلاب الذين سيتمكنون من التخرج في المرحلة الثانوية، وقبل أن يكمل الأطفال أربع سنوات من العمر، وجد الباحثون أن دقة توقعاتهم بشأن الطلاب الذين سيتسربون من التعليم في المرحلة الثانوية تصل إلى 77% و49% وذلك باستخدام قياسات التنشئة في المراحل المبكرة من الطفولة فقط، وتجاهل قدرات الطلاب وسماتهم الشخصية.

ومن السهل أن تجد تشابهًا بين ما توصل إليه باحثو "مايكل ميناي" عند صغار الفئران في مونتريال، وما توصل إليه "ألان سروف" و"بايرون إيجيلاند" في دراستهما عن الأطفال في مينيسوتا. ففي كلتا الحالتين، كانت هناك أمهات يؤدين سلوكيات تربوية فريدة ومحددة في الأيام الأولى من حياة أطفالهن، ويبدو أن لهذه السلوكيات - اللعق والتنظيف في الفئران، والاستجابة بإيجابية لإشارات الأطفال لدى البشر - تأثيرًا قويًا وممتدًا فيما

سيصل إليه الأطفال بطريقة متشابهة: فالرضع في البشر والصغار في الفئران كانوا قد تلقوا جرعة إضافية من الرعاية في المراحل المبكرة، وأصبحوا فيما بعد أكثر فضولاً وثقة بالذات، وأكثر هدوءًا وقدرة على التعامل مع العراقيل. إن اهتمام الأمهات بصغارهن في هذه المرحلة المبكرة عزز فيهم المرونة التي كانت بمنزلة درع واقية ضد التوتر. ومن ثم عندما ظهرت التحديات المعتادة في الحياة، حتى لو كان ظهورها بعد سنوات - كاختبار المجال المفتوح، وفي الخلاف بين الأطفال من ذوي الإصرار الشديد في الحضنة - كان كل من البشر والفئران قادرين على إثبات ذواتهم، والاعتماد على مخزون من الثقة بالنفس، وشق طريقهم نحو التقدم في الحياة.

12. أنشطة تحسين التربية

هناك ارتباط مباشر بين أبحاث "ماري أينسورث" عن التعلق وعيادة "نادين بورك هاريس" في باي فيو - هنترز بوينت، وهذا الارتباط تمثله عالمة النفس "أليشيا ليبيرمان"، التي تعيش في سان فرانسيسكو. ففي منتصف السبعينيات من القرن الماضي، كانت "أليشيا ليبيرمان" تدرس مع "ماري أينسورث" في جامعة جونز هوبكينز في بالتيمور، وفي تلك الفترة كانت "ماري أينسورث" تُجري الدراسة الكبيرة الأولى لها عن التربية والتعلق، وكانت "أليشيا" - وهي لا تزال في سنة التخرج حينها، وبتوجيهات من "ماري أينسورث" - تقضي ساعات طويلة في مشاهدة وترميز أشرطة الفيديو التي تظهر الأمهات الجديديات وهن يتعاملن مع أطفالهن، حيث كانت تبحث عن أمثلة صغيرة ومميزة من سلوكيات الأمهات، تتسم بسرعة الاستجابة والإحساس المرهف؛ ما يعزز التعلق الآمن لدى الأطفال. وتدير "أليشيا" الآن برنامج أبحاث الصدمات لدى الأطفال في جامعة كاليفورنيا في سان فرانسيسكو، حيث أصبح التعاون بينها وبين "نادين بورك هاريس" وثيقًا في السنوات الأخيرة.

وقد أخبرتني "أليشيا" بأنها على الرغم من إعجابها بالدراسة التي أجراها كل من "سروف" و"إيجيلاند" في مينيسوتا، فإنها تشعر بأن تحليلهما يفتقر إلى فكرتين، أولاهما الاعتراف

الواضح بوجود صعوبة شديدة لدى الكثير من الآباء والأمهات في أحياء مثل باي فيو - هنترز بوينت في أن يوفرُوا التعلق الآمن لأطفالهم، وقد قالت لي "أليشيا" عندما زرتها ذات مرة في إحدى العيادات التي تعمل فيها في سان فرانسيسكو: "كثيرًا ما تطفئ ظروف الحياة على النزعة الطبيعية لدى الأم في رعاية طفلها، فعندما يمتلك الفقر والشك والخوف منك، يتطلب الأمر قدرة غير عادية تمكّنك من توفير الظروف اللازمة للتعلق الآمن"، أضف إلى ذلك أن تاريخ التعلق لدى الأم نفسها عندما كانت طفلة من شأنه أن يزيد من صعوبة عملية التربية بصورة أكبر: حيث إن الأبحاث التي أجريت في جامعة مينيسوتا وغيرها من الجامعات تبين أن توفير الأم - التي تُنجب للمرة الأولى - البيئة الآمنة من أجل أطفالها سيكون أكثر صعوبة إذا كان تعلقها بوالديها وهي طفلة تعلقًا غير آمن (أيًا كانت الخلفية الاجتماعية التي تنتمي إليها).

وقالت "أليشيا ليبيرمان" إن الجزئية الثانية التي لم يتم إثباتها في دراسة مينيسوتا هي قدرة الوالدين على التغلب على تأثير الصدمات والتعلق السيئ، وأن بإمكانهما تغيير الطريقة التي يتعاملان بها مع أطفالهما، فيعاملانهم على نحو يعزز التعلق الآمن والأداء السليم بدلًا من التعلق المضطرب. وتقول "أليشيا ليبيرمان" إن بعض الآباء والأمهات بإمكانهم تحقيق هذا التحول بمفردهم، ولكن معظمهم يحتاج إلى المساعدة، وهذا هو الأمر الذي ظلت تقوم به في معظم مسيرتها المهنية: وهو اكتشاف أفضل طريقة ممكنة لتقديم هذه المساعدة، وقد طورت "أليشيا" خلال السنوات التي أعقبت تركها لجامعة جونز هوبكينز علاجًا، أطلق عليه العلاج النفسي بين الآباء والأطفال، ويشتمل على نظريات "أينسورث" عن التعلق مع أحدث الأبحاث المتعلقة بالتوتر الناجم عن الصدمات، وفي هذا العلاج يعمل المعالجون بشكل متزامن مع الآباء المعرضين للخطر، ومع أطفالهم لتحسين علاقات التعلق، وحماية الآباء والأطفال من آثار الصدمات. وهناك اثنان من المعالجين من برنامج "أليشيا ليبيرمان" يعملان على تقديم العلاج إلى عشرات المرضى في عيادة "نادين بورك هاريس".

ويعتبر هذا العلاج علاجًا مكثفًا بدرجة ما، ويقدم خلال جلسات أسبوعية، وقد تستمر طيلة سنة، ولكن المبدأ الذي يقوم عليه العلاج - وهو تحسين مستقبل الطفل من خلال تشجيع إقامة علاقات قوية بينه وبين والديه - يُطبق بشكل متزايد في مجموعة واسعة من التدخلات بمختلف أنحاء البلاد، وكثيرًا ما تكون النتائج عظيمة عند تقييم هذه التدخلات.

ففي إحدى الدراسات، قام "دانتى تشيتشيتي" 50 - وهو عالم النفس في جامعة مينيسوتا - بمتابعة 137 أسرة لها تاريخ موثق لسوء معاملة الأطفال سابقًا، وبعبارة أخرى كان الأطفال في هذه الأسر معرضين لخطر كبير. ولكل أسرة طفل يبلغ عامًا واحدًا، وكان العلاج يركز عليه وحده، وفي بداية الدراسة تم تقييم جميع الأطفال باستخدام اختبار الموقف الغريب، وكانت النتائج مخيفة كما هو متوقع: فقد أظهر طفل واحد فقط من بين 137 طفلًا التعلق الآمن، في حين تم تصنيف 90 % منهم بأن التعلق الموجود لديهم تعلق مشوش، وهو النوع الأكثر صعوبة من أنواع التعلق المضطرب، ثم قسمت الأسر بشكل عشوائي إلى مجموعة معالّجة ومجموعة ضابطة، وقد قدم العلاج النفسي بين الآباء والأطفال الذي ابتكرته "إليشيا ليبرمان" إلى مجموعة المعالّجة طيلة سنة، أما المجموعة الضابطة فقد تلقت الخدمات المجتمعية العادية التي تقدم إلى الأسر التي يعاني فيها الأطفال سوء المعاملة، وعندما أتم الأطفال عامين، تشكل التعلق الآمن لدى 61 % من أطفال مجموعة المعالّجة، بينما لم يظهر هذا النوع من التعلق سوى لدى 2 % من الأطفال الموجودين في المجموعة الضابطة، وقد برهن "تشيتشيتي" على أن التربية التي تحسّن التعلق يمكن أن تنشأ لدى الآباء والأمهات، حتى الذين يعيشون أكبر قدر من الاضطراب منهم، كما يمكن أن تكون هناك فوائد كبيرة للوالدين وأطفالهم على حد سواء.

وهناك دراسات أخرى كشفت عن أن هذا التأثير لا يقتصر على تحسين علاقة التعلق، فحسب، بل له فوائد صحية للأجهزة المسؤولة عن الاستجابة للتوتر، وقد أثبت الباحثون هذا التأثير عبر تدخلات علاجية أقل حدة من العلاج الذي قدمته "إليشيا ليبرمان"، وهناك عالم نفس في يوجين في ولاية أوريغون الأمريكية، يدعى "فيليب فيشر"، يستخدم

علاجًا يدعى الرعاية البديلة بالعلاج متعدد الأبعاد 51 في مرحلة ما قبل المدرسة، حيث يقدم إلى الوالدين الحاضنين، طيلة ستة أشهر، التدريب والمشورة في أساليب التعامل مع الصدمات والمواقف الصعبة في المنزل، وحين يكون الأطفال في منزل للرعاية البديلة، فإنهم يجدون صعوبة في تنظيم استجابة التوتر (كما كانت الحال مع "مونيشا سوليفان")، ولكن في إحدى التجارب، بعد ستة أشهر من العلاج، لم يُظهر الأطفال دليلًا قويًا على اكتساب التعلق الآمن فحسب، بل عاد هرمون الكورتيزول ليؤدي عمله بصورة طبيعية تمامًا بعد أن كان هناك خلل في وظيفته.

وقد طورت "ماري دوزير" - عالمة النفس في جامعة ديلاوير - تدخلًا علاجيًا آخر للآباء الحاضنين، يسمى الاستدراك السلوكي الحيوي والتعلق، ويختصر بالإنجليزية 52ABC، ويشجع هذا العلاج الآباء الحاضنين على الاستجابة للإشارات الصادرة عن أطفالهم بمزيد من الاهتمام والحماسة والهدوء، وفي هذا العلاج يُظهر الأطفال معدلات مرتفعة من التعلق الآمن بعد عشر زيارات منزلية فقط 53، كما تصبح مستويات الكورتيزول لدى هؤلاء الأطفال مساوية لنظيرتها في الأطفال العاديين الذين ينعمون بصحة جيدة، ولا يحتاجون إلى رعاية بديلة. وربما كان الأمر الجدير بالملاحظة في علاج "دوزير" هو أن من يتلقون العلاج هم الوالدان أو القائمون على الرعاية لا الأطفال، ومع ذلك نجد أن للعلاج تأثيرًا عميقًا في عمل المحور الوطائي النخامي الكظري لدى الأطفال.

13. زيارة ميكايلا

في أحد أيام فصل الربيع الماضي، وبعد منتصف الظهيرة، زرتُ منزلًا في الناحية الجنوبية من شيكاغو، خاصًا بفتاة عمرها ستة عشر عامًا، تدعى "جاكي"، وقد أنجبت طفلة عمرها ثمانية أشهر، وتدعى "ميكايلا"، حيث تعيش معها والدتها "جاكي" في المنزل نفسه، وهناك رأيت عمليًا أسلوب تحسين التعلق، ولم أكن الزائر الوحيد، بل كانت هناك أيضًا امرأة أمريكية من أصول أفريقية تدعى "أنيتا ستيفارت مونتجمري"، وهي موظفة بإحدى الجمعيات الخيرية الدينية، تزور بانتظام الوالدين المعرضين للمخاطر (الأمهات المنفصلات

عن الآباء عادة) وأطفالهم في إطار برنامج يقدمه صندوق أونس للوقاية، وهو صندوق خيري في ولاية شيكاغو. وبعد انتهاء الزيارة تحدثت إلى "نيك ويكسلر"، وهو مختص أطفال، وكان يشرف على الزيارات المنزلية التابعة لصندوق أونس منذ ما يزيد على عشرين عامًا. فقال لي إنه على الرغم من اهتمامه هو وأفراد فريقه بالمشكلات التقليدية التي يناقشها زوار المنازل مع الآباء الجدد - تغذية الأطفال، ومنع التدخين، وتنمية حصيلة المفردات اللغوية - فإنهم مقتنعون بما توصلت إليه الأبحاث من أن تحسين التعلق هو أقوى وسيلة لديهم لتحسين النتائج التي سيصل إليها الطفل في المستقبل، ومن هنا، فإن التعلق هو الشيء الذي يؤكدّه القائمون على هذا الأمر.

ويقول "ويكسلر" إنه يضطر إلى تذكير القائمين بالزيارات المنزلية في البرنامج بأن مهمتهم هي تحسين علاقة التعلق، لا أن يحاولوا حل جميع المشكلات التي يرونها لدى الآباء والأمهات اليافعين. وقد قال لي "ويكسلر": "إن الأمر يمثل تحديًا كبيرًا لدى زوار المنازل؛ لأن الفرد يحب أن يُقدم على الأفعال التي تملئها عليه غريزته، ولكن إذا لم يكن بمقدورك دائمًا أن تعالج المشكلات المنزلية أو مشكلات المدرسة، فإنه يمكنك أن تبني داخل نفوس هؤلاء الآباء والأمهات قوة داخلية ومرونة تجعلانهم يؤدون دورهم في التربية على أفضل وجه ممكن".

ولا شك في أن العالم الذي كانت تعيش فيه "ميكايلا" كان بحاجة إلى إصلاحات كثيرة، فعندما وجدتها تلعب هي و"جاكي" و"ستيوارت مونجيري"، وتحدث معهم على سجادة غرفة المعيشة، تمنيت لو كان المنزل أكثر هدوءًا، ولو كان عدد الزوايا الحادة في الأثاث قليلًا، وتمنيت لو أنها لم تكن تعيش هي وأمها وجدتتها في هذا المبنى المهجور ذي المنزل السيئ، وألا نشم رائحة دخان السجائر الآتي من المنزل المجاور، ولكن "ستيوارت مونجيري" كانت تركز على "جاكي"، وتراقب نظراتها إلى "ميكايلا"، وتبدي تعليقات مشجعة، وتعبر لها عن دعمها القوي على أمل أن تنقله هي إلى ابنتها.

وهناك جيل سابق من التدخلات العلاجية في مرحلة الطفولة المبكرة قد نشأ تحت رعاية أبحاث "هارت" و"رايسلي" عن أهمية المهارات اللغوية في المراحل الأولى من الطفولة، وقد ركزت هذه التدخلات العلاجية بشكل أساسي على تشجيع الوالدين على اتخاذ خطوات في سبيل زيادة حصيلة المفردات اللغوية لأطفالهما، ولكن الحقيقة المثيرة للإحباط بشأن هذه التدخلات العلاجية هي أنك إذا كنت والد أحد الأطفال، وكانت حصيلتك من المفردات اللغوية محدودة - وهذه هي حال الكثيرين من ذوي الدخل المنخفض - فسيكون من الصعب عليك أن تثري الحصيلة اللغوية لطفلك، ولا شك في أن هناك فائدة من الإكثار من القراءة لأطفالك، ولكن الأطفال يتشربون اللغة من الوالدين، ولا يقتصر ذلك على اللحظات التي يتعلمون فيها المفردات، بل يتشربون اللغة في كل لحظة، وفي كل وقت، وهذا هو السبب في أن الأجيال تتوارث نقص حصيلة المفردات اللغوية من جيل إلى آخر، فيكون الأمر أشبه بدائرة مفرغة - ويمكن معالجة هذا الأمر من خلال الجهود الكثيرة التي تبذلها دور الحضانة، ولكن من الصعب كسر هذه الدائرة عن طريق التدخلات العلاجية التي تستهدف الوالدين فحسب.

ولكن ما أثبتته أبحاث "فيشر" و"دوزير" و"تشيتشيتي" و"أليشيا ليبرمان" هو أن القدرة على النمو والتحسين تكون أكبر كثيرًا عندما يتعلق الأمر بعلاقة التعلق، وعلى العكس من كون الحصيلة اللغوية لدى الوالدين دون المستوى، فإنه من الممكن إبطال مفعول التربية المسببة للتعلق المضطرب عن طريق تدخل علاجي بسيط نسبيًا؛ ما يعني أن مشكلة التعلق السيئ يمكن علاجها والتعافي منها بشكل تام، فالأم ذات الدخل المنخفض التي لديها مشكلات في علاقة التعلق إذا تلقت التدخل العلاجي المناسب، يصبح بإمكانها أن تكون تعلقًا آمنًا مع طفلها، الأمر الذي سيشكل فارقًا كبيرًا في حياة الطفل، وإذا تمكنت "أنيتا ستيوارت مونتجمري" من مساعدة "جاكي" و"ميكايلا" في تكوين رابطة تعلق آمن بينهما، عندها لن تزيد فرصة "ميكايلا" في أن تصبح طفلة سعيدة فحسب، بل ستزيد احتمالية إتمامها التعليم الثانوي، وعدم التعرض للسجن، وتأجيل الزواج إلى مرحلة تكون مستعدة

فيها لتولي مسؤولياته، كما أنها ستكون لديها علاقة أكثر إيجابية بأطفالها عندما تتزوج وتنجب في المستقبل.

14. ستيف جيتس

بعد أن أعلن "رون هوبرمان" - المدير التنفيذي لمدارس شيكاغو - عن خطته لتعيين مرشدين من مؤسسة مساعدة الشباب لإرشاد المراهقين الموجودين في المدينة ممن هم أكثر عرضة للخطر، قامت "هيثر ماك دونالد" - وهي حاصلة على زمالة أولين بمعهد مانهاتن المعني بالسياسات المحافظة 54 - بكتابة مقال طويل عن العنف بين الشباب في المدينة، وذلك في الإصدار ربع السنوي لمجلة *City Journal*، وكانت تنتقد في مقالها "هوبرمان" ومؤسسة مساعدة الشباب - وكانت تنتقد "باراك أوباما" لهذا السبب - بسبب تجاهلها ما أسمته السبب الرئيسي لمشكلة روزلاند: وهو "اختفاء الأسرة ذات الأصول الأفريقية التي تتكون من أب وأم". وقد ربطت مؤسسة مساعدة الشباب بأبحاث "سول ألينسكي" - وهو المنسق السياسي للجناح اليساري في القرن العشرين - واحتجت على عدم انتقاد التدخلات العلاجية التي كانت ترى أن مرشدي مؤسسة مساعدة الشباب يقومون بها، واقترحت بدلاً من تلك التدخلات أخرى يكون للمرشدين فيها دور مماثل لدور "مرشدي الكشاف"، وكتبت "ماك دونالد" تقول: "أن يكونوا معنيين بتوفير فرص لتعليم ضبط النفس، والمثابرة، وإطلاق العنان للخيال في القيم الإنسانية، والتحدث مع الطلاب عن الأمانة والاحترام، وتعليمهم التمييز بين الصواب والخطأ، فهذا من شأنه أن يصلح حالة الانهيار الموجودة في الناحية الجنوبية من المدينة".

ولكن الأمر الغريب هو أن ما رأيته وسمعته في الواقع من مرشدي مؤسسة مساعدة الشباب كان يبدو فظيلاً كما وصفته "ماك دونالد"، على الرغم من النقد الشديد الذي وجه إليها بسبب تصورهما عما كانت تقوم به المؤسسة. وبعيداً عن اجتناب الحديث عن الانهيار الأسري، قد بدا المرشدون من أمثال "ستيف جيتس" مشغولين به، وكانوا يتحدثون

بصراحة عن أنه لن تكون هناك حاجة إلى العمل الذي يقومون به لو أن الأسر الموجودة في بلدة روزلاند كانت تقوم بالدور الذي يفترض بها أن تقوم به.

ففي صباح أحد الأيام قال لي "ستيف جيتس: "انظر إلى أطفالنا، وإلى تركيبة الأسرة، وسيتجلى لك سبب قيامهم بما يقومون به الآن، فهناك علاقة مباشرة بين المشكلات الأسرية وما يقوم به الطلاب في المدرسة، إن الإخفاقات التي تحدث في تربية الأطفال والتفكك الأسري، لها جميعًا مساوئ تنعكس على الأطفال، فيحملونها معهم إلى المدرسة وإلى الشوارع، وإلى أي مكان يذهبون إليه".

ولا يخفى على "جيتس" الكثير من المشكلات التي يواجهها الشباب الصغار في بلدة روزلاند، بل هو على وعي شديد بالعوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي دمرت المنطقة خلال فترة حياته، بل إنه في الحقيقة كثيرًا ما يأخذ الأمر على محمل شخصي، فهناك مشكلة هجرة ذوي البشرة البيضاء، على سبيل المثال: عندما وُلد "جيتس" في مطلع السبعينيات من القرن الماضي في بلدة روزلاند، كانت أسرته من بين الأسر القليلة ذات الأصول الأفريقية في البناية، ويقول "جيتس": "لم يستمر ذلك طويلًا، فبمجرد أن تمكنت من المشي، كانت جميع الأسر ذات الأصول القوقازية قد رحلت"، ولم يكن الأمر مقصورًا على البناية التي يسكنها، ففي عام 1960 كان هناك أكثر من 45000 شخص من ذوي البشرة البيضاء يسكنون بلدة روزلاند، ولكن لم يتبقَّ منهم سوى 493 شخصًا بحلول عام 1990، وفي تلك الأثناء اختفى أيضًا القطاع الاقتصادي النابض بالنشاط في الناحية الجنوبية - الذي كان جده ووالده وأعمامه يعملون فيه - حيث أخذت المصانع تُغلق واحدًا تلو آخر؛ لكي تنتقل إلى منطقة أخرى. وكانت الأمراض الاجتماعية هي ما خلفته هذه الأمور في روزلاند، وقد بدأت تزداد سوءًا عامًا بعد عام، وكانت كل مشكلة تقوّي من نفسها، وتغذي مجموعة أخرى من المشكلات، بدءًا بالاعتماد على الرعاية الاجتماعية، ونهاية بإدمان المخدرات وأعمال العنف التي تقوم بها العصابات.

ولكن في حين نجد أن "جيتس" كان حريصًا على ألا يلقي باللوم على الوالدين في الأسر التي تعيش في روزلاند للكوارث التي حدثت في الحي، فإنه يرى أنهم ذوو التأثير الأكبر في تحسين نتائج الأطفال المستقبلية، فلا نراه يعزو ذلك التأثير إلى المدرسة، أو دار العبادة، أو مراكز العمل كذلك؛ بل إنه يُرجع التأثير الأكبر إلى الأسرة - أو - إذا لزم الأمر - إلى إنشاء أشكال لأسر بديلة أو مكّلة لمساعدة الأطفال الذين لا أسر لديهم من الأساس، وما لا شك فيه أن معدل نجاح هذا الأسلوب لا يصل إلى 100%، وقد رأيت عددًا من المآسي والعراقل لا حصر له خلال الشهور التي أمضيتها في مراقبة عمل "ستيف جيتس": فقد تعرض المراهقون الذين يتلقون إرشاده للاعتقال، أو السجن، أو إطلاق الرصاص، أو القتل، بيد أن الأمر كان ناجحًا في بعض الأحيان، فكانت التحولات التي ألهم مرشدو مؤسسة مساعدة الشباب عملاءهم بها رائعة للغاية.

15. كيثا جونز

كانت الطالبة التي تلقت الإرشاد عبر مؤسسة مساعدة الشباب التي بدا مستقبلها واعدًا أكثر من غيرها هي نفسها الطالبة التي تألمت أشد الألم عندما علمت قصتها، إنها "كيثا جونز"، التي كانت في السنة الأخيرة لها في مدرسة فينجر الثانوية، وكان عمرها سبعة عشر عامًا عندما قابلتها في مكتب "إليزابيث دوزير" في خريف عام 2010، كان هناك شيء غير طبيعي حيال مظهرها - فقد كانت الوشوم تغطي أعلى ذراعيها وأسفلها، وكانت تضع مسمارًا من مسامير الزينة في شفتها السفلى، وكان هناك خط بالصبغة ذات اللون الأحمر على شعرها القصير متلاطم المويجات، وكانت تعيش مع أمها في منطقة جادة بارنيل في الشارع رقم 113، على بعد عدة بنايات جنوب مدرسة فينجر في جزء من روزلاند يعرف باسم هاندريدز، وفي سنوات نشأتها كانت تعيش في منزل صغير أشبه بكوخ، وكان يعج بالضوضاء والزحام والنزاع، وكان يتناوب على الإقامة في المنزل الأشقاء والأعمام والعمات وأبناء العم. ونادرًا ما يكون والد "كيثا" موجودًا بالمنزل، فقد كان "لعوبًا" على حد وصفها، فكان يعمل ميكانيكيًا، وكان يسكن بعيدًا عنهم ببنايات قليلة مع

زوجته وأولاده، وكانت زوجاته - ومن بينهن والدة "كيثا" - متناثرات هنا وهناك في الحي مع أطفالهن الذين يبلغ إجمالي عددهم تسعة عشر طفلاً. وبينما ظلت "كيثا" في سنوات نشأتها الأولى تلتقي عادة بفتيات يبدون قريبات الشبه بها على نحو مريب، وكانت تقول في نفسها: حسناً، وهذه شقيقة أخرى، وكانت والدة "كيثا" عندما كانت في الثامنة عشرة من عمرها طالبة في مدرسة فينجر، لكنها فصلت من المدرسة في السنة الأخيرة إثر ذهابها إلى المدرسة وهي في حالة سكر. وقد أخبرتني "كيثا" بأن أمها أصبحت الآن مدمنة تعاطي المخدرات، كما هي الحال مع كثير من أفراد العائلة الكبيرة، وكان بعض أفراد العائلة يتاجرون في الكوكايين، وكانت الشرطة تهاجم المنزل عندما كانت "كيثا" صغيرة، وتبحث عن المخدرات أو الأسلحة النارية، وكان أفراد الشرطة يفتشون المنزل، ويلقون الآنية في أنحائه المختلفة، وكانوا عادة ما يكبلون أحد الأقارب بالأغلال، ويصطحبونه معهم.

وأخبرتني "كيثا" بأنها عندما كانت في الصف السادس، تحرش بها أحد أقربائها، وهو رجل متقدم في السن، قالت إنه يدعى "العم أنجيلو"، وكان هو أيضاً مدمن مخدرات، حيث كان يعيش معهم خلال فترة طفولتها. واسترسلت "كيثا" في تذكر هذا الأمر، فقالت: "لقد كنت صغيرة وخائفة، كنت لا أملك من أمري حيلة". لقد أنهكتها الإساءات التي تعرضت لها طيلة سنوات ولكنها لم تقل أي شيء، فقد كانت تأمل أن تلاحظ أمها ما يحدث وتتدخل لمنعه، فكانت تخشى من ألا تصدقها أمها إذا ما أخبرتها بذلك، وهو أمر لن تتمكن "كيثا" من أن تتحمله من أمها، ومن ثم سكنت، وظل غضبها يزداد يوماً تلو آخر، وكان الجدل بينها وبين أمها لا ينتهي، ولكن الأمر لم يتفاقم بينهما، فقد كانت "كيثا" ترى أن التناول على من هو أكبر منها ليس عملاً صائباً، وقد قالت لي: "لقد كان هذا هو سبب ذهابي إلى المدرسة، كان هدفي هو أن أتساجر، فقد كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لدي لتخفيف التوتر، ولم أجد أحدًا عن مشكلاتي، بل تركتها تتراكم في داخلي حتى يأتي الوقت الذي أكون فيه مستعدة للتنفيس عن غضبي، فعندما كنت أذهب إلى المدرسة، ويقول لي شخص ما كلاماً لا يعجبني كنت أصب عليه جام غضبي؛ لأنني كنت أعلم أنني لن أستطيع أن أتناول على أمي"، وقد ارتكبت "كيثا" في السنة الأولى في المدرسة العديد من المخالفات نتيجة ذلك؛

ما عرضها للفصل المؤقت مرة بعد أخرى، وكان الفصل يستمر مدة عشرة أيام في كل مرة، لكنها أصبحت تشتهر بأنها الفتاة الأكثر عنفًا في مدرسة تشتهر بذلك السلوك، وقالت لي: "لقد كان الجميع يرونني هكذا، فتاة تسعى إلى الشجار، وقد كنت أفخر بهذه السمعة".

وفي يونيو من عام 2010 طلبت "دوزير" أن يُخصص لـ "كيثا" مرشد من مؤسسة مساعدة الشباب، ولم تكن المرشدة الأولى التي عيّنها لها "ستيف جيتس" مناسبة لها، فقد كانت "تقليدية للغاية" في رأيها؛ لذا حاول معها "ستيف" مرة أخرى، فعُيّن لها مرشدة بدوام جزئي تدعى "لانيثا ريد"، وهي تبلغ من العمر ثلاثين عامًا، وتقيم في بلدة روزلاند، وكانت هذه المرشدة تتولى إرشاد شخص آخر يتعامل مع مؤسسة مساعدة الشباب، وكان لدى "لانيثا" عمل تعمل فيه بدوام كامل، وهو إدارة صالون التجميل الخاص بها، ويحمل الصالون اسم جيفتد هانز، وهو مكان جميل حافل بالترحاب والمودة يضيفي بهجة على البناية الكئيبة التي يقع فيها في الشارع رقم 103. وكثيرًا ما فكرت "كيثا" في أنها ترغب في العمل مصففة للشعر؛ ما جعل "لانيثا" تعيّن لها في الصالون بوصفها فتاة مسئولة عن وضع الشامبو، وغسل الشعر، والكنس، وكانت عادة ما تساعد على عمل الضفائر أو الجديلات وهي الخصلات الصغيرة التي يفضلها الكثير من الفتيان الذين يقيمون في الحي.

وكانت "لانيثا" شخصية روحية، تذهب إلى دار العبادة بانتظام، ولكنها تؤمن أيضًا بأهمية مظهر الفتاة الشابة؛ لذا قررت أن تحدث لدى "كيثا" تحولًا خارجيًا وداخليًا في آن واحد. فمظهر "كيثا" لم يكن يوحي بأنها فتاة تهتم بمظهر أظافرهما، ولكن "لانيثا" أقنعتها بأن تقلم أظافرهما، وتقوم بطلائها، وأن تصفف شعرهما، فعلمتها كيف تتزين باستخدام مساحيق التجميل، وكيف تستخدم الجفون المصطنعة، وعرفتها بالملابس الأنيقة. لقد قضيتا ساعات في صالون التجميل وخارجه في أنحاء الحي، حيث كانتا تتناولان الطعام، أو تلعبان البولينج، أو تجلسان معًا للحديث: إنها جلسة علاج طويلة في صالون التجميل، وأخبرتني "كيثا" بأن "لانيثا" كانت بمنزلة الأخت الكبرى بالنسبة إليها، فكانت تعد العشاء في الصالون في مساء يوم الأحد من أجل "كيثا" وغيرها من الفتيات اللواتي يتلقين الإرشاد

عن طريق مؤسسة مساعدة الشباب، حيث كن يتبادلن القصص والحكايات عن إهمال أمهاتهن وغياب آبائهن، وعن الفتيان، وعن المخدرات، والغضب. وهكذا بدأت "كيثا" تفتح قلبها وتتحدث بعد أن كانت ممتنعة عن التحدث عن أي شيء مع أي شخص، وقد قالت لي: "لقد تغيرت تمامًا نظرتي إلى الحياة".

واقترحت "لانيثا" على "كيثا" أن تبتهل ببعض الضراعات، فقالت: "إنني أسأل الله أن يعافيني فحسب، وأن يغفر لي كل ما بدر مني"، وتوقفت عن مخاصمة أمها، وعن الشجار مع زملائها في المدرسة، وعندما حاولت بعض فتيات الصف الثاني مضايقتها ببعض العبارات في رواق المدرسة، حافظت على هدوئها، وسألت "لانيثا" عما يجب عليها فعله حيال هذه المشكلة، وهنا ساعدتها "لانيثا" على الجلوس مع أولئك الفتيات في مكتب "دوزير"، ففوجئت "كيثا" بأنها ومن معها كن قادرات على حل المشكلة، حيث قالت لي "كيثا": "لقد تبين أن المشكلة كانت بسيطة ولا أهمية لها".

ثم حدث تطور مؤلم: وذلك عندما أخبرتها أختها الصغرى - التي كان عمرها ستة أعوام فقط - في خريف ذلك العام بأن العم "أنجيلو" حاول التحرش بها، وتقول "كيثا": "عندما قالت لي ذلك لم أتمالك نفسي من البكاء، وانتابني شعور كبير بالذنب؛ لأنني لو لم أخف الأمر عندما كنت صغيرة، لربما كان الآن قد رحل عنا، ولم تكن أختي لتتعرض لهذا الموقف". وأخبرت "كيثا" "لانيثا" بالأمر، فذهبت "لانيثا"، وأخبرت "ستيف جيتس"، فأخبرها "ستيف" بأنها يلزمها أن تبلغ إدارة خدمات الطفل والأسرة في إلينوي بهذا الأمر، فقد كان مرشدو مؤسسة مساعدة الشباب ملزمين بالإبلاغ عن الإساءة الجنسية أو الجسدية إلى السلطات المعنية، شأنهم في ذلك شأن معظم المختصين الاجتماعيين والمدرسين، وكانت "لانيثا" متأثرة تمامًا بفعل ما حدث. ولكن في روزلاند كانت إدارة خدمات الطفل والأسرة لا تقوم بالتصرف السليم: فقد كانوا يُبعدون الأطفال عن أسرهم، وبالنظر إلى المشكلات الموجودة في منزل "كيثا"، كانت "لانيثا" ترى أن "كيثا" وشقيقاتها إنما ينتمين لأمنهن لا منازل الرعاية البديلة.

ومن ثم قامت "لانيثا" بإخبار "ستيف" بأنها لا ترغب في إبلاغ إدارة خدمات الطفل والأسرة. وهددت بتقديم استقالتها من مؤسسة مساعدة الشباب، ولم تكن تعلم ما الذي يمكنها فعله، فقد قالت لي: "لقد أردت فقط أن أجلس شخصًا ما ليضرب 'أنجيلو'، ولكن ضميري قال لي أن أتعامل مع هذا الموقف بأفضل طريقة ممكنة"، وهكذا سمحت لـ "ستيف" بأن يبلغ إدارة الطفل والأسرة. وتمكنت من التفاوض مع المختصين الاجتماعيين في إدارة خدمات الطفل والأسرة، وفي النهاية تم إبعاد "أنجيلو" من المنزل لينتهي به الأمر في السجن، حيث وجهت إليه تهمة الاعتداء الجنسي على قاصر، أما "كيثا" وشقيقاتها فقد بقين في المنزل مع أمهن.

وتحقق ما كانت "كيثا" تخشاه، فلم تدعمها أمها جيدًا في قرارها التحدث عما يقوم به "أنجيلو"، فكانت تشكو من عدم تبقي شيء من الثلاثمائة دولار التي كان "أنجيلو" يسهم بها في دفع الإيجار، بل كانت "كيثا" تراها في بعض الأحيان أكثر قلقًا على "أنجيلو" وحياته في السجن من بناتها اللاتي كان يعتدي عليهن، ولكن "كيثا" كانت قد عازمت على تغيير حياتها، وقد زادت حادثة "أنجيلو" تصميمًا؛ حتى إنها قالت لي: "لن أسمح للماضي بأن يؤثر في مستقبلي، وسأفكر في ذلك الماضي من حين إلى آخر، لكنني لن أسمح له بأن يدير حياتي، إن أسوأ الأمور قد حدثت بالفعل، وأنا الآن أبحث عن أمور إيجابية، إن الطريقة التي أعيش بها حياتي قد أرهقتني بشدة لدرجة أنني سأبذل كل ما في وسعي لأغيّرها".

ومع أنها كانت متأخرة عن زملائها، فإنها قررت أن تتخرج في المدرسة معهم في صيف عام 2011، وقد أتاح لها نظام المدرسة هذا الأمر. ففي هذه الأيام إن كنت طالبًا في إحدى المدارس الثانوية في مدينة كبيرة، وكنت متأخرًا في دراستك، فهناك الكثير من الآليات المتاحة التي تسمح لك بأن تحصل على شهادات بشكل سريع: مثل الأعمال الاستثنائية والمدارس الليلية والدورات المتاحة على الإنترنت التي تتيح الحصول على الشهادات، مثل مشروع أفينتا الذي يتيح للطلاب في غضون شهر أو شهرين الحصول على دورة تستغرق فصلًا دراسيًا كاملاً. وهناك الكثير من المشككين في هذه الحلول المبدعة في

الحقل التعليمي، فيرون أنها عبارة عن طريقة جديدة للمدارس للتخلص من الطلاب الذين يصعب تعليمهم، وذلك بإخراجهم إلى عالم العمل، وهم يحملون شهادات دون أن يكون لديهم تعليم حقيقي، ولكن بالنسبة إلى "كيثا" - التي كانت على وشك أن تتخرج في مدرسة فينجر - فقد كانت هذه الدورات بمنزلة هدية من السماء، وكانت هذه هي المرة الأولى لها في مسارها الأكاديمي الذي تجتهد فيه في حصصها؛ وهكذا أخذت تحضر المدارس الليلية طيلة خمسة أيام في الأسبوع، وكانت كثيرًا ما تبقى في المدرسة من الساعة الثامنة صباحًا إلى السابعة مساءً. وفي يونيو عام 2011، أتمت "كيثا" دراستها في مدرسة فينجر، والتحقت بكلية ترومان، وهي كلية أهلية تقع في الناحية الشمالية من شيكاغو، حيث بدأت تدرس من أجل الحصول على شهادة في فن التجميل.

وفي أحد الأيام في ربيع عام 2011، جلستُ مع "كيثا" في كافيتريا مدرسة فينجر، وذلك قبل تخرجها في الكلية بشهور قليلة، حيث حدثتني عن خططها المستقبلية. فبعد أن تخرجت في كلية ترومان، وحصلت على رخصة مزاولة المهنة، أخبرتني بأن "لانيثا ريد" قد وعدتها بأن تتيح لها العمل لديها في صالونها بدوام كامل، وقالت لي "كيثا": "أتخيل أنني بعد خمسة أعوام من الآن ستكون لدي شقة أمتلكها من حر مالي، وعندها يمكنني أن أحضر شقيقاتي ليعشن معي".

وكان هذا هو أكثر ما يثير إعجابي دائمًا بـ "كيثا": فأحلامها لم تكن مقصورة عليها فحسب، بل كان لأسرتها مكان فيها. وأذكر أننا عندما كنا في الكافيتريا قالت لي: "أريد أن أبين لشقيقاتي أن هناك حياة أفضل من الحياة التي نعيشها كل يوم، إن الحياة التي يعشنها قد لا يبدو أن هناك ما هو أفضل منها؛ وذلك لأنهن لا يعرفن سوى بارنيل وهاندريدز، ذلك المكان الذي يعشن فيه، إن الحياة حافلة بأمور كثيرة أفضل من الشجار والقتل، هناك الكثير من الأمور الجيدة في الحياة، هناك الكثير والكثير".

ومن الصعب أن نجادل في صحة الأساس الذي بُني عليه مبدأ التدخل العلاجي المبكر. فالسنوات القليلة الأولى من عمر الطفل لها أهمية كبيرة في النمو السليم لمخه، فهي تمثل

فرصة فريدة لإحداث فارق في مستقبله. ولكن إحدى أكثر الحقائق المبشرة فيما يتعلق بالبرامج التي تتعامل مع المسارات العصبية والنفسية والانفعالية هي أن هذه البرامج بإمكانها أن تكون ذات تأثير كبير في وقت لاحق من مرحلة الطفولة أيضًا، على أنها تفوق كثيرًا التدخلات العلاجية المعرفية، فمستوى الذكاء الطبيعي يصعب تحسينه بعد سن الثامنة، في حين أن الوظائف التنفيذية والقدرة على التعامل مع التوتر والتحكم في الانفعالات القوية من الممكن تحسينها خلال مرحلة المراهقة بل خلال مرحلة البلوغ كذلك، وأحيانًا ما يكون ذلك التحسن ملحوظًا بشدة.

إن سنوات المراهقة غالبًا ما تكون سنوات صعبة بالنسبة إلى معظم الأطفال، وكذلك للأطفال الذين ينشأون في ظروف صعبة، وفي كثير من الأحيان يمكن لمرحلة المراهقة أن تكون نقطة تحول كبيرة، وذلك في اللحظة التي يظهر فيها تأثير الماضي في صورة قرارات سيئة، وهي القرارات التي تُخلف نتائج مدمرة بدورها، ولكن المراهقين لديهم القدرة - أو الإمكانية على الأقل - على إعادة النظر إلى حياتهم بطريقة لا تكون متاحة للأطفال، وكما يتضح من قصة "كيثا" (وكما ستتعلم في الفصول التالية)، فمرحلة المراهقة يمكن أن تكون فترة يحدث فيها تحول من نوع مختلف، إنه التحول الأكثر عمقًا: في اللحظة التي يتمكن فيها الشاب أو الشابة من أن يُبعد نفسه عن الفشل المؤكد، وأن يبدأ السير نحو طريق النجاح.

2. بناء الشخصية

1. أفضل فصل على الإطلاق

ربما كان المراهقون، البالغ عددهم ثمانية وثلاثين، الذين أتموا المرحلة المتوسطة في أكاديمية برنامج "المعرفة قوة" - واختصارها بالإنجليزية KIPP - في جنوب برونكس في ربيع سنة 1999، هم طلاب الصف الثامن الأكثر شهرة في تاريخ التعليم العام في أمريكا، فجميعهم من أصول أفريقية وإسبانية، ومعظمهم من أسر منخفضة الدخل، حيث اختارهم "ديفيد ليفين" - خريج جامعة ييل، وهو شاب أبيض البشرة طويل القامة، في الخامسة والعشرين من عمره - وهم في فصولهم قبل أربعة أعوام، وذلك عندما كانوا في الصف الرابع الابتدائي، وقد تمكن "ديفيد" من كسب هؤلاء الأطفال (ووالديهم أيضًا) 1 حيث تعهد لهم بأنه يمكنه أن يحولهم من طلاب منخفضي المستوى في مدرسة برونكس العامة إلى طلاب مؤهلين للجامعة، وذلك إذا التحقوا بمدرسته المتوسطة الفريدة من نوعها، وفي أثناء السنوات الأربع لهم في برنامج "المعرفة قوة"، تسنى لهم أن يروا نموذجًا غامرًا من التعليم الذي لم يعهدوه من قبل؛ إذ بدا كأن "ليفين" يرتجله، حيث جمع بين الأيام الطويلة، التي تكون فيها الطاقة عالية والتعليم ذا كثافة مرتفعة داخل الفصول الدراسية، وبرنامج دقيق لتهديب السلوكيات وتعديلها.

وبدا أن هذه الوصفة أو الصيغة التي صاغها "ليفين" قد نجحت نجاحًا ملحوظًا: ففي الاختبار التحصيلي للصف الثامن على مستوى المدينة عام 1999، حصل طلاب أكاديمية برنامج المعرفة قوة على أعلى الدرجات، مقارنة ببقية المدارس في برونكس 2، وعلى المركز الخامس في الترتيب على مستوى مدينة نيويورك كلها، وهذه الدرجات - التي لم يُسمع بها من قبل في مدرسة في حي فقير لا تتطلب الدخول إليها شروطًا محكمة - أدت إلى أن يتصدر برنامج المعرفة قوة 3 عناوين جريدة نيويورك تايمز، بالإضافة إلى تقرير كتبه "مايك والاس" على برنامج 60 minutes، الأمر الذي ساعد على إقناع "دوريس"

"دونالد فيشر"، وهما مؤسسا شركة جاب، بتخصيص ملايين الدولارات لتحويل برنامج المعرفة قوة إلى شبكة وطنية، وأدى هذا المشروع إلى إنشاء ما يزيد على مائة مدرسة أهلية تطبق برنامج المعرفة قوة في أنحاء البلاد خلال العقد الماضي، كما أن هذا المشروع أبقى برنامج المعرفة قوة - في مطلق الأحوال - في بؤرة النقاشات الوطنية عن المدارس الأهلية، والمعلمين المنتمين إلى النقابات، والاختبارات القياسية، وتأثير الفقر في التعليم.

وفي عام 1995 تم تذكير المجموعة الأولى في أكاديمية برنامج المعرفة قوة - وقد يقول البعض إنهم تم تربيهم - منذ اليوم الأول لهم في الدراسة بأهمية التعليم العالي، حيث تمت تسميتهم بفصل عام 2003، وهي السنة التي من المقرر أن يدخلوا فيها الكلية، وكان رواق المدرسة مزينًا بالألقاب والشعارات الجامعية، وكانت كل معلمة تزين فصلها بالأدوات التي كانت تستخدمها عندما كانت في الجامعة، وكانت هناك لافتة ضخمة عند السلم لتذكر الطلاب بمهمتهم: وهي تسلق الجبل الذي يؤدي إلى الجامعة، وعندما أنهوا برنامج المعرفة قوة، بدا أنهم يسرون برباطة جأش نحو هذا الهدف: فهم لم يتموا المرحلة المتوسطة بنتائج رائعة على المستوى الدراسي فحسب، بل تم قبول معظمهم في مدارس خاصة تنسم بالانتقائية الشديدة، أو في مدارس ثانوية دينية مرموقة، وكثيرًا ما كان ذلك القبول مقرونًا بمنحة دراسية كاملة.

ولكن الأمور لم تسير على النحو المنشود بالنسبة إلى عدد من طلاب المجموعة الأولى، فقد قال لي "ليفين": "لقد رأينا أن الفصل الأول لنا احتل المركز الخامس من حيث الأداء على مستوى مدينة نيويورك، وأصبح 90 % من هؤلاء الطلاب يدرسون في مدارس خاصة، أو مدارس دينية مرموقة؛ ومن ثم كنا نرى أن جميع المشكلات ستحل، ولكن الأمر لم يسر على هذا النحو"، فمعظم طلاب فصل عام 2003 نجحوا في المرحلة الثانوية، ودخل معظمهم الكليات، لكن الجبل بدأ يصبح أكثر انحدارًا: فبعد ستة أعوام من إنهائهم المرحلة الثانوية لم يحصل على الشهادة الجامعية سوى 21 % من هذه المجموعة، وهم ثمانية طلاب فحسب⁴.

كان "تايريل فانس" أحد أعضاء المجموعة الأولى في برنامج المعرفة قوة، وكانت تجربته التي عاشها مع هذا البرنامج عادية في كثير من الأحيان، فعندما وصل إلى الأكاديمية للمرة الأولى سببت له القواعد والإجراءات شعورًا بالارتباك والحيرة، حيث قال لي: "كان الأمر بمنزلة صدمة ثقافية، فأنا لم أرَ من قبل شيئًا كهذا"، وكان "فانس" ينظر إلى الواجب المنزلي باعتباره أمرًا اختياريًا، ولكنه كان إلزاميًا في أكاديمية برنامج المعرفة قوة، وأدى هذا الاختلاف في الرأي إلى سلسلة طويلة من النزاعات بينه وبين فريق العمل في الأكاديمية، وعندما ذهب طلاب الفصل في السنة السابعة إلى رحلة لفيرمونت، تخلف عنهم "فانس"؛ كي يتمكن من إنهاء واجبه المنزلي، فقد كان من الواضح أن المعلمين في الأكاديمية قد كرسوا أنفسهم له ولزملائه من الطلاب؛ ومن ثم فقد كرس وقته هو أيضًا لتنفيذ تعليماتهم، وقد قال لي ذات مرة: "لقد كان هؤلاء المعلمون أسرتي الثانية، فهذا هو الشعور الذي نلمسه جميعًا في النهاية، وهو أننا أسرة واحدة".

وكان "فانس" متفوقًا في الرياضيات في المرحلة المتوسطة، مثل معظم طلاب الفصل، فقد اجتاز امتحانًا على مستوى المدينة بجدارة، واجتاز مقرر الصف التاسع في الرياضيات عندما كان لا يزال في الصف الثامن، وقد أخبرني بأنه عندما ذهب إلى المدرسة الثانوية، وابتعد عن الطموح الكبير الذي كان يبثه فيه برنامج المعرفة قوة، إذ به يخسر هذه الروح التي كانت تحركه وتدفعه، ويسترسل قائلًا: "فقدت الدافع الذي كان موجودًا لدي في الأكاديمية"، وبدأ يجنح عن طريقه، ويحصل على درجات أقل في الاختبارات مقارنة بالدرجات التي كان يحصل عليها في المرحلة المتوسطة، واليوم يرى "فانس" أن برنامج المعرفة قوة قد أعده إعدادًا جيدًا للغاية على المستوى الأكاديمي، ولكنه لم يعده من الناحيتين النفسية والانفعالية، فهو يقول: "لقد انتقلنا من تلك الأسرة المتقاربة التي كان كل واحد فيها يعرف ما يفعله الآخرون، إلى المدرسة الثانوية، حيث لا يوجد من يتابعك، فليس هناك من يتحقق من أنك قد أنهيت واجبك المدرسي، وفي المدرسة الثانوية كان علينا أن نفعل ما يفعله غيرنا؛ لم يكن علينا سوى أن ننضج، لكننا لم نكن مجهزين لهذا الأمر".

وبعد المرحلة الثانوية التحق "فانس" بكلية تمتد فيها الدراسة إلى أربعة أعوام في شمال نيويورك، وذلك لدراسة الحاسب الآلي ونظم المعلومات، لكنه وجد أن المادة العلمية مملة، فانتقل إلى تخصص آخر، وهو إدارة النوادي. لكن حدث خلاف بينه وبين رئيس القسم، فترك الكلية، وابتعد فترة عن التعليم، ثم عمل في متجر للأحذية، وبعدها التحق بمدرسة من أجل التخصص في مجال التاريخ، ولم يمض وقت طويل حتى نفذت منه مصاريف الدراسة، فترك التعليم تمامًا، والآن أصبح في منتصف العشرينيات من عمره، وقد قضى السنوات الأخيرة وهو يعمل في مراكز اتصالات شركة AT&T وشركة Time Warner Cable، حيث كان يجيب عن أسئلة العملاء بمراكز خدمة العملاء، وعلى الرغم من أنه يستمتع بعمله، ويفخر بما حققه، لكنه يندم عندما ينظر إلى ماضيه. فقد قال لي: "لقد كانت لدي إمكانات كبيرة، وكان يفترض بي أن أستغلها في تحقيق إنجازات أعظم".

2. التفاؤل المُكتسب

لقد تألم "ديفيد ليفين" لرؤية هؤلاء الطلاب الأوائل وهم يواجهون متاعب الدراسة في الكلية، ففي كل شهر تقريبًا كان يأتي إلى مسامعه خبر عن أحد طلابه قرر أن يترك الكلية، فبدأ يجمع معلومات عن تحصيل الطلاب في الكليات بشكل شخصي: وراح يسأل نفسه، ما الذي كان بإمكانه القيام به بشكل مختلف؟ لقد كان هدف برنامج المعرفة قوة هو أن يقدم إلى الطلاب كل ما يحتاجون إليه للنجاح في الكلية، فما الشيء الذي فشل في دمجه في البرنامج؟

ولأن الطلاب الذين تسربوا من التعليم الجامعي لم يكونوا من طلاب الفصل الأول فحسب، بل كانوا أيضًا من طلاب الفصلين الثاني والثالث، فقد لاحظ "ليفين" شيئًا مثيرًا للفضول: وهو أن الطلاب الذين واصلوا الدراسة في الكلية لم يكونوا بالضرورة من الطلاب الذين تفوقوا دراسيًا في الأكاديمية، بل كانوا من الطلاب الذين كانت لديهم مواهب ومهارات معينة، مثل التفاؤل والمرونة والتفاعل مع المجتمع، وكان هناك الطلاب الذين حسّنوا درجاتهم، وعزموا على تحقيق الأفضل في المرة المقبلة، هؤلاء هم من تعافوا من المواقف

السيئة، أو المشاجرات مع والديهم، ومن شجعوا أساتذتهم على تقديم مزيد من المساعدة إليهم بعد انتهاء الحصة، ومن قاوموا الدافع الذي يدعوهم إلى الذهاب إلى السينما، وظلوا في منازلهم يذاكرون دروسهم، وكان "ليفين" يعلم أن هذه السمات وحدها لا تكفي لكي تجعلهم يحصلون على الشهادة الجامعية، ولكن هذه السمات قد ثبت أنها ضرورية للتخرج في الجامعة إذا لم تتوافر لأسرة الشاب موارد كثيرة، وإذا لم يكن هو محاطًا بشبكة أمان كالتى يمتلكها نظراؤه الأكثر ثراءً.

وكانت السمات التي لاحظها "ليفين" في خريجي الكليات متداخلة بدرجة كبيرة مع مجموعة القدرات التي حددها "جيمس هيكلمان" وغيره من علماء الاقتصاد، باعتبارها مهارات غير معرفية، ولكن "ليفين" قرر أن يستخدم مصطلحًا مختلفًا للتعبير عنها، وهو نقاط قوة الشخصية، فمنذ بدايات برنامج المعرفة قوة - في أحد فصول مدرسة من المرحلة المتوسطة في هيوستن مطلع التسعينيات - بدأ "ليفين" و"مايكل فاينبيرج" - مساعده - في تأسيس مدرسته التي تطبق برنامج المعرفة قوة - إضافة دروس عن الشخصية، تقدم إلى الطلاب، بالإضافة إلى الدروس الخاصة بالمواد الدراسية. وقاما بملء الجدران بشعارات من قبيل "عليك الاجتهاد"، و"كن مهذبًا"، و"ليست هناك طرق مختصرة"، كما وضعوا نظامًا للثواب والعقاب، وهو نظام لم يتم تصميمه من أجل الاقتصاد على تعليم الرياضيات وعلم الجبر فقط، بل أيضًا من أجل تعليم الطلاب العمل الجماعي، والتعاطف، والمثابرة. وفي أكاديمية برنامج المعرفة قوة كان الأطفال يرتدون قمصانًا تحمل شعار: "مدرسة واحدة، هدف واحد، مهارتان: التحصيل الدراسي وبناء الشخصية".

وكان كل من "ليفين" و"فاينبيرج" قد أتيا إلى هيوستن في الأساس باعتبارهما جزءًا من المجموعة الثالثة التي بعثتها مؤسسة تيتش فور أمريكا، وكانا حينها قد تخرجا حديثًا في الجامعة التي تتبع ما يسمى رابطة اللبلاب، وكانا جاهلين بالأمر نوعًا ما، ففي بداياتهما كانا يستعيران الحيل والأساليب التعليمية من المربين المبدعين ممن التقيا بهم، وبخاصة امرأة تدعى "هاريت بول"، وهي معلمة مخضمة، كانت تدرّس في فصل في نهاية الممر بالقرب من فصل "ليفين"، وقد يسرت الأغاني التي كانت تبتكرها تدريس المواد الأكاديمية بداية

بجدول الضرب، ونهاية بروايات شكسبير. وقال لي "ليفين": لكن عندما بدأنا ندرّس الشخصية، لم نجد أحدًا يكافئها في مهاراتها، إن عدم وجود بنية راسخة لتدريس الشخصية أو للتحدث كذلك عنها، كان يعني أن النقاشات في مدارس برنامج المعرفة قوة ستبدأ من نقطة الصفر في كل سنة، حيث يناقش المعلمون والمديرون من جديد القيم والسلوكيات التي كانوا يحاولون أن يغرسوها في طلابهم، وسبب اختيارهم لك، وكيفية قيامهم بالأمر.

وفي شتاء عام 2002 عندما كانت المجموعة الأولى من خريجي أكاديمية برنامج المعرفة قوة في طريقها إلى المرحلة الثانوية، حصل "ليفين" من شقيقه على كتاب يحمل عنوان *5 Learned Optimism* وهذا الكتاب من تأليف "مارتن سيليجمان"، وهو أستاذ علم النفس في جامعة بنسلفانيا، ويعد "سيليجمان" واحدًا من أبرز علماء المدرسة الفكرية المعروفة باسم مدرسة علم النفس الإيجابي، وهذا الكتاب المنشور عام 1991 هو الكتاب الذي تأسست عليه تلك الحركة، ويشير الكتاب إلى أن التفاؤل مهارة يمكن اكتسابها، وليس سمة غريزية؛ ومن ثم فإنه من الممكن تدريب المتشائمين من الأشخاص البالغين كي يصبحوا أكثر تفاؤلاً، ويقول "سيليجمان" إن هؤلاء إذا ما درّبوا أنفسهم على التفاؤل، فسيصبحون أكثر سعادة وصحة ونجاحًا على الأرجح. ويقول "سيليجمان" في كتابه عن التفاؤل المكتسب إن الاكتئاب لا يعتبر مرضًا لدى أغلبية الناس وفقًا لما يراه علماء النفس، بل هو "حالة مزاجية شديدة السوء"6 تحدث "عندما نلجأ إلى المعتقدات المتشائمة حيال الأسباب التي أدت بنا إلى الإخفاقات"، وينصح "سيليجمان" بأنه ينبغي لمن يريد أن يتجنب الاكتئاب، ويحول حياته إلى الأفضل، أن يغيّر "طريقة تفسيره الأمور"، وأن يستخدم تفسيرًا أفضل لتعليل سبب حدوث الأمور السيئة والأمور الجيدة له.

وجاء في كتاب "سيليجمان" أن المتشائمين يميلون إلى التجاوب مع الأحداث السلبية من خلال تفسيرها بأنها أحداث دائمة وشخصية وواسعة الانتشار.7(وهذه الأوصاف الثلاثة يطلق عليها "سيليجمان" "الأنماط الثلاثة"). فعندما يخفق المتشائم في الامتحان؛ لا يُرجع سبب الإخفاق إلى عدم الاستعداد الجيد للامتحان بل إلى غبائه، وعندما ترفض خطيبته

إتمام الارتباط به، نجده لا يطلب فرصًا أخرى من شركاء آخرين؛ لأن السبب ببساطة هو أنه غير محبوب، أما المتفائلون فهم على العكس من ذلك، تجدهم يبحثون عن تفسير محدد ودقيق وقصير الأجل للمواقف السيئة، ونتيجة ذلك ينهضون من عثراتهم، ويكررون المحاولة.

وحين قرأ "ليفين" كتاب "سيلجمان" تبين له أن هناك العديد من أنماط التفسير الثلاثة التي تحدت عنها الكتاب موجودة فيه، وفي أساتذته وطلابه. وقد كان مشهورًا بين الطلاب وبين زملائه في تلك الفترة بمحاضراته الطويلة التي يعلو فيها صوته، ويلقيها بانتظام على طلابه ذوي الأداء والسلوك السيئين. (وقد قال "فانس" ضاحكًا: "لقد كان يصرخ كثيرًا"). ووجد "ليفين" نفسه يتعجب مما قد تتسبب فيه تلك الخطب اللاذعة في نفسية الطلاب الذين اعتادوا سماع الملاحظات التي تنتقدهم بشكل شخصي ومكثف ودائم، فسؤال مثل: "لماذا لم تقم بواجبك المدرسي؟"، هو سؤال يمكن تفسيره بسهولة في شكل: "ما خطبك؟ إنك لا تستطيع أن تقوم بأي عمل صائب!"، وقد اشترى "ليفين" نسخة من الكتاب لكل معلم في فريق العمل بأكاديمية برنامج المعرفة قوة، ووضع قائمة بالأسئلة المخصصة للتأمل والتفكير مستوحاة من الكتاب، وفي أحد الأيام المخصصة للتنمية المهنية في صيف عام 2002، قام بتسليم زملائه من المدرسين قائمة الأسئلة لمناقشتها، وقد شملت القائمة أسئلة مزعجة لـ "ليفين" وزملائه، مثل: لماذا يشعر بعض طلابنا بأنهم غير محبوبين، وأنهم لا يحظون بالتقدير أو الثقة؟ وكذلك: لماذا يشعر بعض أولياء الأمور بعدم التقدير والاحترام، وبأننا نتحدث معهم بطريقة غير لائقة؟ وكيف نستمر في تنمية الروح والشخصية لدى الطلاب دون أن نتسبب في أذيتهم نفسيًا؟. كان الأمر بالنسبة إلى "ليفين" بداية عملية إعادة تقييم طويلة، وكان "ليفين" حينها قد أمضى عشر سنوات وهو يحاول تنمية شخصية طلابه، فكيف سيكون الأمر لو تبين أن الأساليب التي كان يستخدمها لم تكن ناجحة؟

3. ريفرديل

درس "ديفيد ليفين"، مثل طلابه، في مدرسة في حي برونكس، ولكن في منطقة مختلفة للغاية عنه، وفي مدرسة من نوع مختلف جدًا عن المدارس التي درس فيها طلابه. فلو أنك اتجهت إلى غرب أكاديمية برنامج المعرفة قوة، ومررت على ستاد يانكي، ثم توجهت إلى الشمال مباشرة عدة كيلومترات على طريق ميجور ديجان السريع، فإنك سرعان ما ستصل إلى حي ريفرديل، وهو حي ثري مليء بالأشجار والتلال الشاهقة والشوارع الملتوية، وقد سكنت هذا الحي الأسر الأكثر ثراءً في مدينة نيويورك لأكثر من قرن من الزمان، ومن بين المباني التاريخية الفخمة الموجودة في الحي هناك ثلاث مدارس خاصة، هي الأرقى والأعرق في المدينة، وهي: مدرسة هوراس مان، ومدرسة إيثيكال كالتشر فيلدستون، ومدرسة ريفرديل كانتري التي تقع في أعلى التل المرتفع وتطل ببهاء على حديقة فان كورتلاندت بارك، وعلى المدينة. وقد نشأ "ليفين" في حي بارك أفنيو، وانتقل إلى حي ريفرديل وهو في الصف الثامن، وتفوق في المدرسة ليس فقط لتمييزه في الرياضيات والعلوم، بل قد أصبح أيضًا قائد فريق كرة السلة.

وعندما تزور المدرسة اليوم، فإن أول ما يثير إعجابك هو الحرم المحيط بها، وهو الأكبر على الإطلاق في المدينة، ويتكون من مساحة تقدر بسبعة وعشرين فدانًا مزينة بالمباني الحجرية وملاعب لممارسة لعبة لأكروس، وليس هناك زي موحد لكن طلاب المرحلة المتوسطة والمرحلة الثانوية يشتركون في استخدام خزانة ملابس توجد بها معاطف من نوع فيتش وأبركرومبي، بالإضافة إلى حقائب الظهر من تصميم نورث فيس. (عندما زرت فصل اللغة الإنجليزية للصف العاشر في يوم من أيام فصل الشتاء كانت جميع الفتيات باستثناء فتاة واحدة يرتدين حذاء طويل الرقبة للوقاية من المطر سعره 125 دولارًا). وقد ذهب إلى هذه المدرسة "جون كينيدي" و"روبرت كينيدي" بعض الوقت عندما كانا صغيرين، ويتكون طلابها اليوم بشكل رئيسي من الناحية الشرقية العليا، ومن النخبة من الأماكن المتاخمة لمقاطعة ويستشستر، إنها المدرسة التي يرسل أصحاب النفوذ والسلطة أطفالهم إليها؛ لكي يتعلموا كيف يصبحون من أهل النفوذ والسلطة، وتبدأ المصاريف الدراسية من 38500 دولار لمرحلة ما قبل الحضانة.

عندما تلتقي بناظر المدرسة "دومينيك راندولف" للمرة الأولى، تجد أنه يبدو كاختيار غير عادي لقيادة مثل هذه المدرسة ذات المكانة العالية والمفعمة بالتقاليد، وهو يبدو رجلًا متحررًا طموحًا، وبه مس من غرابة الأطوار، ويرتدي عند ذهابه إلى العمل كل يوم بدلة سوداء وربطة عنق ضيقة، ويكون في كامل حلته، بالإضافة إلى سلوكه الهادئ، وشعره الأشيب المسترسل؛ ما يجعلك تتساءل عما إن كان يعزف على آلة الساكسفون في فرقة من فرق موسيقى السكا في ثمانينيات القرن الماضي. إن "راندولف" رجل صاحب فكر، فهو دائمًا ما يسعى وراء الأفكار، فعندما تتحدث إليه تشعر بأنك أمام رجل يتحدث في أحد مؤتمرات برنامج تيد، فحديثه مدعم بآخر الأبحاث التي أجراها علماء النفس السلوكي، وخبراء الإدارة، ومنظرو التصميمات. فعندما أصبح ناظرًا للمدرسة عام 2007، بدّل مكتبه مع مكتب سكرتيرته: فقد حصلت هي على المكتب المنعزل الموجود في الداخل، الذي كان النظار الذين سبقوه يجلسون فيه، وقد عدل في تصميم صالة الاستقبال الخارجية الصغيرة، وجعلها تعبر عن مكان العمل الخاص به ذي التفكير المنفتح، حيث وضع على الجدران لوحات بيضاء، وكان يرسم عليها الشعارات، ويعبر فيها عن الأفكار، وعندما زرته في أحد الأيام لم يكن على الجدار سوى لوحة واحدة بيضاء مطبوعة عليها علامة استفهام واحدة باللون الأسود.

وكان "راندولف" ناظر المدرسة ذات التنافسية الشديدة، وكان في أوائل الخمسينيات من عمره، متشككًا في العديد من العناصر الأساسية للمخاطر العالية المعاصرة التي يواجهها التعليم الأمريكي، فقد ألغى فصول الإلحاق المتقدم بعد توليه مسؤولية المدرسة، وشجع المدرسين على تقليل الواجبات المنزلية التي يفرضونها على الطلاب، ويرى أن الاختبارات القياسية التي تتطلبها مدرسة ريفرديل وغيرها من المدارس الخاصة من أجل القبول بمرحلة الحضانة والمرحلة المتوسطة "تمثل نظامًا غير عادل"؛ لأنها تقيّم الطلاب بشكل كامل تقريبًا من خلال اختبارات نسبة الذكاء، وعندما زرته في مكتبه في أحد أيام فصل الخريف، قال لي: "إن هذه الاختبارات تغفل بعض الجوانب المهمة اللازمة لنجاح الفرد".

وأهم ما تغفله هذه الاختبارات بحسب قول "راندولف" هو الشخصية، ويقول: "سواء أكنت تجيد قيادة العربات التي تجرها الخيول، أم كنت قادمًا من جنوب إيطاليا في عشرينيات القرن الماضي، فإن الفكرة التي سادت دائمًا في أمريكا هي أنك إذا اجتهدت في عملك، وأظهرت عزمًا حقيقيًا، فإنك ستنجح، ومن الغريب أننا قد نسينا هذا الآن. إنني أخشى من أن الأشخاص الذين يحصلون على درجات عالية في اختبارات الكفاءة الدراسية، تأتيهم تعليقات تفيد بأن جميع أفعالهم رائعة. وأعتقد أننا بذلك نهينهم للفشل على المدى البعيد، ولكي أكون صادقًا في كلامي، فإنني أرى أن مثل هذه النوعية من الأشخاص يعجز أفرادها عن مواجهة اللحظات الصعبة التي تواجههم بشكل مفاجئ، فلا أظنهم قد اكتسبوا القدرات التي تمكّنهم من التعامل مع مثل هذه المواقف".

لقد كان "راندولف" يفكر خلال عمله معلمًا مثل "ليفين" فيما إذا كان ينبغي للمدارس أن تغرس في نفوس تلاميذها سمات الشخصية الجيدة، وكيفية ذلك. وكانت هذه الغاية كثيرًا ما تبدو مسعى فرديًا، ففي المدارس البريطانية الداخلية التي التحق بها "راندولف" عندما كان صغيرًا، كان المعلمون يرون أنهم يدرسون الشخصية بالقدر نفسه الذي يدرّسون به الرياضيات أو التاريخ. وعندما انتقل "راندولف" إلى الولايات المتحدة وجد أن المعلمين الأمريكيين يترددون في التحدث عن الشخصية أكثر من نظرائهم البريطانيين، وعلى مدار سنوات عديدة كان "راندولف" يتبع أسلوب الحوار الوطني في الحديث عن الشخصية، أو يتبع الأسلوب الذي يمرر إليه، ولكنه كان يرى دائمًا أن هذه الأساليب لا تتناسب مع احتياجات المدارس. وفي الثمانينيات من القرن الماضي، طرح "ويليام بينيت" فكرة تدريس الفضيلة، لكن هذا المجهود سرعان ما أصبح ذا صبغة سياسية في رأي "راندولف"، فهو يقول إن هذه الجهود تم استغلالها من قبل المحافظين الجدد، لقد كان مهتمًا بكتابات "دانييل جولمان" عن الذكاء العاطفي في التسعينيات من القرن الماضي، ولكنها كانت قليلة المعلومات، وكانت عاطفية بشكل مبالغ فيه؛ ما جعلها لا تصلح قاعدة لنظام عملي للتدريس، وقد قال لي: "كنت أبحث عن شيء يمكن تحويله إلى أمر جاد، كنت أبحث عن شيء دائم الأثر يسمح بتغيير ثقافة المدرسة".

وفي شتاء عام 2005، قرأ "راندولف" كتاب *Learned optimism*، وأصبح مهتمًا بمجال علم النفس الإيجابي، ولم يكتفِ بالقراءة عن أبحاث "سيليجمان"، بل اطلع أيضًا على أبحاث مساعديه: "كريستوفر بيترسون"، من جامعة ميتشيجان، و"أنجيلا داكورث" وهي أحد الباحثين اللامعين الذين رعاهم "سيليجمان" في جامعة بنسلفانيا، وفي ذلك الوقت كان "راندولف" مساعد مدير مدرسة لورنسفيل، وهي مدرسة داخلية ونهارية خاصة بالقرب من جامعة برينستون في ولاية نيوجيرسي، وقد رتب للقاء مع "سيليجمان" في فيلادلفيا، وفي صباح اليوم الذي انطلق فيه "راندولف" إلى مقابلة "سيليجمان" بعد القيادة مسافة 65 كيلومترًا، كان "سيليجمان" قد رتب لاجتماع منفصل مع "ديفيد ليفين"، وعندما وصل كلا المعلمين في الوقت نفسه إلى مكتب "سيليجمان" تحفز الأخير لدمج الاجتماعين، وأن يدعو عالم النفس "بيترسون" الذي كان في زيارة إلى جامعة بنسلفانيا في ذلك اليوم للانضمام إلى الاجتماع في مكتبه من أجل نقاش حر عن التعليم بالمدارس وعلم النفس، وقد أصبح هذا الاجتماع بداية لتعاون طويل ومثمر.

4. نقاط قوة الشخصية

جاء كل من "ليفين" و"راندولف" إلى فيلادلفيا وهما يتوقعان أن يتحدثا عن التفاؤل، لكن "سيليجمان" فاجأهما بكتاب جديد ومختلف تمامًا، كان قد انتهى منه من فوره هو و"بيترسون"، وكان عنوانه: *Character Strengths and Virtues: A Handbook and Classification*. إن كتب "سيليجمان" الأكثر مبيعًا، التي نشرها سابقًا، كانت في مجال علم النفس وتنسم بالإيجاز، ويسهل على القارئ العادي استيعابها، أما عناوينها فكانت مصممة لجذب الأنظار في أي مكان لبيع الكتب، مثل كتاب *How to change Your Mind and Your Life*، أما كتاب *Character Strengths and Virtues* فهو مجلد أكاديمي كبير، يضم ثمانمائة صفحة، ووزنه نحو كيلوجرام ونصف الكيلو، وكان يباع بثمانين دولارًا، وهو موجه إلى المثقفين والعلماء. ووفقًا لمؤلفي الكتاب فإنه كان يهدف إلى أن يكون "دليلاً للسلامة العقلية" 8 أو انعكاسًا لكتاب *Diagnostic and Statistical Manual of Mental*

Disorders، وترجمته الدليل التشخيصي والإحصائي للأمراض النفسية، الصادر عن الرابطة الأمريكية للطب النفسي، وهو كتاب موثوق يتحدث عن الأمراض العقلية، ولا تخلو منه مكتبات المعالجين النفسيين والعقليين، لقد كان كتاب *Character Strengths and Virtues* تدشينًا لـ "علم الشخصية الجيدة" 9، وبعبارة أخرى، كان الكتاب هو ما كان كل من "راندولف" و "ليفين" يبحثان عنه، وإن لم يعلما ذلك.

ومصطلح الشخصية يعد أحد المصطلحات التي من شأنها أن تحوّل أي حوار إلى حوار معقّد، والسبب في ذلك هو أنه قد يعني أشياء مختلفة للغاية بالنسبة إلى مختلف الأشخاص. وهو غالبًا ما يمثل الامتثال لمجموعة معينة من القيم؛ ما يعني أن تعريفه سيختلف بالضرورة بمرور الوقت. ففي العصر الفيكتوري في إنجلترا، كان صاحب الشخصية الجيدة هو من يُظهر قيمًا مثل العفة، وحسن التدبير، والنظافة، والصلاح الديني، والآداب الاجتماعية. أما في أمريكا فقد كان للشخصية الجيدة ارتباط أكبر بالشجاعة، والاكتفاء الذاتي، والبراعة، والمثابرة، والعزيمة. ولكن كلاً من "سيلجمان" و "بيترسون" قد طمحا في كتابهما إلى تجاوز هذه الأوهام التاريخية؛ لتحديد الصفات التي كانت تحظى بالتقدير في جميع المجتمعات، وفي جميع الحقب التاريخية، لا في الثقافة الأمريكية الشمالية المعاصرة. وقد رجعا إلى مراجع تبدأ بكتابات أرسطو وفلاسفة الشرق، والكتب الثقافية والدينية الشرقية، السماوي منها والموضوع، وكتاب *Boy Scouts Handbook* وشخصيات بوكيمون الكرتونية، وفي النهاية وضع المؤلفان قائمة مكونة من أربع وعشرين صفة للشخصية، يعتقدان أنها تحظى باحترام عالمي، وهي تمثل نقاط قوة الشخصية. وتشمل القائمة بعض الصفات التي نعتقد أنها سمات نبيلة، مثل الشجاعة، والمواطنة، والعدل، والحكمة، والنزاهة. وهناك الصفات التي تنتمي إلى الجانب الانفعالي، مثل: الحب، وحس الدعابة، والهمة، وتقدير الجمال. كما أن هناك سمات تتعلق بصورة أكبر بالتفاعلات اليومية بين الأشخاص، مثل: الذكاء الاجتماعي (القدرة على التعرف على أشكال التواصل بين الأشخاص والتكيف السريع مع المواقف الاجتماعية المختلفة)، والطيبة، والامتنان.

وجاء في الكتاب الذي ألفه "سيليجمان" و"بيترسون" أن نقاط قوة الشخصية لدى معظم المجتمعات كان يفترض بها أن تشمل تكافؤًا أخلاقيًا، وكانت في كثير من الحالات تتداخل مع القواعد الدينية والقيود، ولكن القواعد الأخلاقية تصبح مقيدة عندما يتعلق الأمر بالشخصية؛ لأنها كانت تحصر السلوك الفاضل في الانصياع للسلطة الأعلى، ويقول المؤلفان: "إن الفضائل أكثر أهمية بشكل كبير من القواعد والقوانين" 11، ووفقًا لـ "سيليجمان" و"بيترسون" فإن قيمة الصفات الأربع والعشرين التي تمثل نقاط قوة الشخصية لا تتبع من علاقتها بأية منظومة أخلاقية محددة، بل من فائدتها العملية - أي ما يمكنك أن تجنيه من اكتسابك إياها، وتصرفك على أساسها، فغرس نقاط القوة هذه يمثل مسارًا موثوقًا به نحو "الحياة الجيدة" 12، وهذه الحياة لا تكون حياة سعيدة فحسب، بل تكون حياة هادئة وحافلة بالإنجاز.

وبالنسبة إلى عدد كبير منا، فإن الشخصية تشير إلى أمر غريزي وثابت، وهي مجموعة من الصفات التي تعرف جوهر الفرد، وقد عرّف كل من "سيليجمان" و"بيترسون" الشخصية بطريقة مختلفة، وهي: مجموعة القدرات أو نقاط القوة القابلة للتغيير بصورة كبيرة - بل إنها تتسم بالمرونة التامة في الواقع، وهي مهارات يمكنك أن تتعلمها، وأن تمارسها، ويمكنك أن تعلمها للآخرين.

ومع ذلك فإن المعلمين عندما يحاولون أن يدرسوا الشخصية على أرض الواقع، فإنهم كثيرًا ما يصطدمون بالقواعد الأخلاقية، ففي التسعينيات من القرن الماضي كان هناك تدافع كبير على الصعيد الوطني نحو تدريس الشخصية في الولايات المتحدة 13، وكان ذلك في جزء منه بسبب التعليقات المشجعة من قبل السيدة الأولى "هيلاري كلينتون" والرئيس "كلينتون"، الذي قال في خطابه السنوي: "إنني أشجع جميع مدارسنا على تدريس الشخصية والقيم الجيدة وإخراج المواطن الصالح"، لكن سرعان ما تحولت حملة كلينتون عن الشخصية إلى تبادل اتهامات وتشكيك بين مناصري طرفي النسيج السياسي القائم، حيث شكك اليمين في مبادرات تدريس الشخصية، ووصفوها بأنها حجة لاستئلال سيف الإصلاح السياسي، في حين وصفها اليسار بأنها محاولات غير معلنة للدعاية الدينية.

وتمتلك مئات المدارس الأمريكية العامة حاليًا برنامجًا لتدريس الشخصية، لكنها مناهج غامضة وسطحية، كما وجد أن المناهج التي تم تدريسها بصرامة كانت غير مجدية، وهناك تقييم وطني لبرامج تدريس الشخصية نشر عام 2010 من قبل المركز الوطني للبحوث التربوية 14 - وهو تابع لوزارة التربية والتعليم الأمريكية - ويتناول التقييم البرامج الموجودة في سبع مدارس ابتدائية مشهورة، وعلى مدار ثلاثة أعوام متعاقبة. وكانت نتيجة التقييم هي عدم وجود تأثير كبير لجميع هذه البرامج على الإطلاق، فلم يكن لها تأثير في سلوك الطلاب، أو في التحصيل الدراسي، أو في الثقافة المدرسية.

إن ما جذب اهتمام "ليفين" و"راندولف" إلى المنهج الذي اتبعه "سيلجمان" هو أنه لم يكن يركز على الإشارة إلى الأخلاق، بل كان يركز على النمو الشخصي والإنجاز. ويعتبر برنامج المعرفة قوة برنامجًا أخلاقيًا، سواء أكان هذا من قبل مؤيديه أم منتقديه، ففي كتابه الذي نشر عام 2008 تحت عنوان *Sweating the Small Stuff* 15 طَبَّق الصحفي "ديفيد ويتمان" عن استحسان اسم "الأبوية الجديدة" على الأساليب التي كانت أكاديمية برنامج المعرفة قوة وغيرها من المدارس تطبقها، وجاء في كتاب "ويتمان" أن هذه المدارس لم تكن تعلّم الطلاب "كيفية التفكير فحسب، بل كيفية التصرف وفقًا لما يعرف عمومًا بالقيم التقليدية للطبقة المتوسطة" 16. ولكن "ليفين" تحفظ على هذه النقطة، فهو لم تعجبه فكرة أن يكون هدف برنامج المعرفة قوة هو أن يغرس في الطلاب قيم الطبقة المتوسطة، كما لو كان أطفال الطبقة الثرية يمتلكون صفات شخصية يفتقر إليها الطلاب الذين ينتمون إلى الأسر منخفضة الدخل، وقد قال لي: "إن الشيء الذي أراه رائعًا بشأن منهج نقاط قوة الشخصية هو أنه بصورة أساسية مجرد من الحكم على القيم، فهناك مشكلة لا مفر منها في منهج القيم والأخلاقيات، وتتمثل في: إلى من تعود هذه القيم؟ وإلى من تعود هذه الأخلاقيات؟".

5. التحكم في الذات وقوة الإرادة

ظل كل من "سيليجمان" و"ليفين" على اتصال أحدهما بالآخر، بعد اجتماعهما الأول في مكتب "سيليجمان"، فكانا يتبادلان المكالمات الهاتفية، ورسائل البريد الإلكتروني، والمقالات، وروابط مواقع الإنترنت، وسرعان ما اكتشفا اهتمامات وأفكارًا كثيرة تجمع بينهما، على الرغم من الاختلاف الشديد بين بيئتي التدريس اللتين يعملان فيهما. وقد قررا توحيد الجهود فيما بينهما، ومحاولة فك طلاسم الشخصية معًا، وقد اتجها إلى "أنجيلا داكورث" طلبًا للمساعدة، التي كانت حينئذ تجري أبحاث ما بعد الدكتوراه في قسم "سيليجمان". (وهي الآن تشغل منصب أستاذ مساعد في هذا القسم). جاءت "داكورث" إلى جامعة بنسلفانيا عام 2002، وكان عمرها اثنين وثلاثين عامًا، حيث يعد متقدمًا عن الأعمار التقليدية للطلبة الخريجين. كان والداها من المهاجرين الصينيين، وكانت في فترة المراهقة والعشرينيات من عمرها تقوم بمهام متعددة، وتحقق إنجازات كبيرة، وبعد أن أتمت دراستها الجامعية في جامعة هارفارد (وبعد تأسيسها مدرسة صيفية للأطفال الذين ينتمون إلى أسر منخفضة الدخل في كامبريدج في وقت فراغها) تنقلت من محطة إلى أخرى في منتصف التسعينيات على أساس جدارتها، فتدربت في مكتب البيت الأبيض لكتابة الخطب، وحصلت على منحة مارشال في جامعة أكسفورد (حيث درست علم الأعصاب)، وعملت مستشارة إدارية لدى شركة ماكينزي آند كومباني McKinsey and Company، ومستشارة إحدى المدارس المستقلة، وظلت سنوات عديدة تفكر في إمكانية إنشائها مدرسة مستقلة خاصة بها، لكنها رأت في النهاية أن هذه المدارس ليست هي الأنسب لتغيير ظروف الطلاب الفقراء، أو لا تعتبر على الأقل الوسيلة المناسبة لها هي، وعندما سجلت في برنامج الدكتوراه في جامعة بنسلفانيا، كتبت في طلب التقديم أن خبراتها في العمل في المدارس أمدتها بـ"نظرة مختلفة تمامًا للإصلاح المدرسي"، وتلك النظرة مغايرة تمامًا لما كانت تراه، وهي في العشرينيات من عمرها. ومما كتبتة أيضًا: "إن المشكلة في رأيي لا تكمن في المدارس وحدها، بل في الطلاب أنفسهم 17، والسبب هو صعوبة التعلم، فالتعلم ممتع ومنعش ورائع - لكنه أيضًا كثيرًا ما يكون مخيفًا ومرهقًا وأحيانًا ما يكون محبطًا، ومن أجل مساعدة الطلاب الأذكاء ذوي الأداء المنخفض يجب

أولاً على المعلمين وأولياء الأمور أن ينظروا إلى الشخصية باعتبارها مساوية، على أقل تقدير، للذكاء من حيث الأهمية".

وفي جامعة بنسلفانيا بدأت "داكويرث" أولاً دراسة الانضباط الذاتي. ولتقديم أطروحة السنة الأولى قامت بجمع 164 طالباً من طلاب الصف الثامن في مدرسة ماستر مان الإعدادية 18، وهي مدرسة ذات سمعة طيبة، وتقع وسط مدينة فيلادلفيا، حيث أخضعت الطلاب لجميع اختبارات الذكاء التقليدية، بالإضافة إلى التقييمات التقليدية للانضباط الذاتي، وكانت طوال العام الدراسي تقيّم أداءهم باستخدام عدد من المقاييس الأكاديمية، وفي نهاية العام كانت المفاجأة؛ حيث إن درجات الطلاب في الانضباط الذاتي في الخريف السابق كانت أفضل مؤشر لتوقع مجموعهم التراكمي مقارنة بدرجاتهم في اختبارات الذكاء.

بدأت "داكويرث" التعاون مع "والتر ميشيل"، وهو أستاذ علم النفس في جامعة كولومبيا، ويشتهر في دوائر علم الاجتماع بدراسة يطلق عليها بصفة غير رسمية اسم تجربة مارشميلو. ففي أواخر الستينيات أجرى "ميشيل" - الذي كان وقتها أستاذاً في جامعة ستانفورد - تجربة رائعة لاختبار قوة الإرادة لدى الأطفال الذين يبلغون أربعة أعوام 19. حيث كان الباحث يقوم بإحضار كل طفل إلى غرفة صغيرة في إحدى الحضانات الموجودة في حرم جامعة ستانفورد، وكان يُجلس الطفل إلى مكتب، ويعرض عليه بعض الحلوى مثل المارشميلو، وكان هناك جرس على المكتب، وهنا يخبر الباحث الطفل بأنه سيتركه ويغادر الحجرة، وعندما يعود يمكن للطفل أن يتناول المارشميلو. ويخبر الباحث الطفل بأنه إذا أراد أن يأكل المارشميلو فليس عليه سوى أن يضرب الجرس، وعندها سيعود الباحث، ومن ثم يمكن للطفل أن يتناول المارشميلو، أما إذا انتظر الطفل إلى أن يعود الباحث ولم يضرب الجرس، فعندها سيحصل على قطعتي مارشميلو.

كان "ميشيل" يهدف من وراء التجربة إلى دراسة الأساليب المختلفة التي يتبعها الأطفال لمقاومة الإغراءات، ولكن التجربة اتخذت بعداً جديداً بعد مرور عقد من الزمن، حين بدأ

"ميشيل" يتفقد الأطفال الذين كانوا محل التجربة؛ ليرى إذا كانت قدرتهم على تأجيل الحصول على متعة تناول المارشميلو تمكنه من التنبؤ بأية نتائج تخصهم، سواء أكانت تلك النتائج أكاديمية أم غيرها، في المستقبل، فبدأ عام 1981 يتتبع أكبر عدد من الطلاب يمكنه تتبعهم، واستمر في متابعتهم على مدار السنوات التالية، وتبين أن هناك ارتباطات قوية بين الوقت الذي ينتظر فيه الطفل لتناول حلوى المارشميلو والنجاح الأكاديمي في المستقبل، فالطلاب الذين انتظروا لتناول الحلوى مدة خمس عشرة دقيقة كانت درجاتهم التحصيلية أعلى بـ 210 نقاط مقارنة بمن ضربوا الجرس بعد ثلاثين ثانية 20.

وكانت "داكورث" مهتمة بالنتائج التي توصل إليها "ميشيل"، وبدأ أن دراستها عن التحكم في الذات في فيلادلفيا كانت تؤيدها. لكنها في الحقيقة كانت أكثر اهتمامًا بالفرضية الأساسية لـ "ميشيل"، وهي: ما أكثر الحيل والإستراتيجيات كفاءة، والتي يمكنك تطبيقها عندما ترغب في أن ترفع درجة ضبط النفس لديك؟ وهل يمكن تعليم هذه الأساليب للآخرين؟ وقد أشارت تجربة "ميشيل" إلى بعض الإجابات المثيرة. وعلى سبيل المثال: نجد أن النظرية النفسية التحليلية والنظرية السلوكية قد أكدت أن أفضل طريقة لجعل الطفل يحفز نفسه على الانتظار والحصول على قطعتي مارشميلو كانت من خلال إبقاء هذه المكافأة في بؤرة انتباهه، وتأكيد المذاق اللذيذ لهاتين القطعتين، الذي سيشعر به الطفل عند تناولهما، ولكن تبين في الحقيقة أن العكس هو الصحيح: فعندما تم إخفاء المارشميلو عن نظر الطفل، كان قادرًا على الانتظار مدة أطول مقارنة بالمدة التي كان يسعه أن ينتظرها عندما تكون قطعة المارشميلو أمامه، أما الأطفال الذين انتظروا أطول مدة، فقد كانوا يلهون أنفسهم، ويصرفون انتباههم عن المارشميلو، فبعضهم كان يحدث نفسه، أو يغني في أثناء انتظاره عودة الباحث إلى الغرفة، والبعض الآخر كان يصرف نظره عن قطعة المارشميلو، وبعضهم كان يضع يديه على عينيه حتى لا يراها، أما الطفل الذي كان أكثر قدرة على الإطلاق على ضبط نفسه، فقد تمكن من أخذ سنة من النوم.

وقد اكتشف "ميشيل" أن الأطفال كانوا قادرين على إطالة مدة الانتظار بفاعلية أكبر عند إعطائهم دفعات بسيطة لتشجيعهم على التفكير في المارشميلو بطريقة مختلفة، فكلما كان

تفكيرهم فيه مجردًا، زادت قدرتهم على إطالة مدة الانتظار. فعندما طلب منهم أن ينظروا إلى المارشميلو بوصفه يشبه السحابة المنتفخة والمستديرة، زادت قدرتهم على إطالة مدة الانتظار بمعدل سبع دقائق 21. وتم تشجيع بعض الأطفال على النظر إلى صورة المارشميلو بدلًا من النظر إلى قطعة المارشميلو الحقيقية؛ ما جعلهم قادرين أيضًا على الانتظار مدة أطول. وهناك آخرون كانوا ينظرون إلى قطعة المارشميلو الحقيقية، لكن قيل لهم: "ضع إطارًا حولها في رأسك تمامًا كالإطار الذي يحيط بالصور"، وتمكن هؤلاء الأطفال من الانتظار نحو ثماني عشرة دقيقة.

ولكن عندما حاولت "داكويرث" أن تطوع اكتشافات "ميشيل" لتطبيقها في السياق المدرسي، اكتشفت أن الأمر أصعب مما كانت تظن. ففي عام 2003، أجرت تجربة استمرت ستة أسابيع على طلاب الصف الخامس في مدرسة بمدينة فيلادلفيا بمعاونة بعض زملائها، حيث أخضعوا الأطفال لتمرين التحكم في الذات، وقدموا إليهم جوائز نظير إتمامهم فروضهم المنزلية، وفي نهاية التجربة أبلغهم الأطفال بمحض إرادتهم بأنهم أصبحوا أكثر قدرة على التحكم في أنفسهم عما كان عليه الأمر عند بدء التجربة، ولكن واقع الأمر لم يكن كذلك: فقد أظهر العديد من المقاييس أن الطلاب الذين خضعوا لأنشطة التدخل لم يكونوا أفضل حالًا من طلاب المجموعة الضابطة الموجودة بالمدرسة نفسها، وذلك بعد انتهاء التجربة. وقد قالت لي "داكويرث": "لقد نظرنا إلى تقييم المعلمين عن التحكم في الذات، وفي إتمام التلاميذ واجباتهم المنزلية، ونظرنا إلى المعدل التراكمي لهم، ونظرنا إلى ما إن كانوا يتأخرون على حصصهم، وتبين لنا أن نتيجة التأثير كانت صفرًا في جميع هذه الحالات".

6. التحفيز

ومشكلة أساليب التحكم في الذات مثل التي اتبعتها أفضل من قاوم حلوى المارشميلو هي أنها لا تأتي بنتيجة إلا إذا كان الطفل يعرف ما يريد، والأهداف بعيدة الأمد التي أمّلت "داكويرث" في أن يطمح إليها الأطفال لم تكن محسوسة بما يكفي، ولم تكن أهدافًا فورية

أو جذابة، فهي لم تتعدّ قطعتي مارشميلو سيحصل عليهما الطفل بعد مرور عشرين دقيقة. فكيف تساعد الأطفال على اكتساب التركيز والمثابرة اللذين يحتاجون إليهما فيما يتعلق بالأهداف بعيدة المدى، والأهداف الأكثر تجردًا: مثل النجاح في اختبار ما، أو التخرج في المدرسة الثانوية، أو النجاح في الكلية؟

ترى "داكوورث" أنه من المفيد أن يتم تقسيم آليات التحصيل إلى بعدين منفصلين: التحفيز والإرادة، وهي تقول إن كلاً منهما ضروري لتحقيق الأهداف بعيدة المدى، ولكنهما لا يغني أحدهما عن الآخر بمفرده. إن معظمنا يعرف معنى امتلاك التحفيز، لكننا نفتقر إلى الإرادة، فعلى سبيل المثال: يمكن أن تتحفز لخسارة الوزن، لكنك لن تنجح في تجنب الفطائر المحلاة، وتناول الأطعمة الصحية، إلا إذا كانت لديك إرادة وعزيمة وانضباط ذاتي، وقد تصبح التدريبات وأساليب التحكم في الذات التي حاولت "داكوورث" أن تعلم تلاميذ الصف الخامس إياها مفيدة جدًا، إذا كانوا متحفزين للغاية، ولكن ما الذي سيحدث إذا كان الطفل غير متحفز للأهداف التي يريدها منه معلموه ووالداه؟ وهنا تقر "داكوورث" بأنه لن تكون هناك فائدة من جميع حيل الانضباط الذاتي.

ولكن هذا لا يعني أنه من المستحيل أن نغير التوجه الذي يسلكه التحفيز لدى الشخص، بل إن هذا الأمر سهل للغاية على المدى القصير. فسنستمر في مثال الحلوى، ونبحث في عدد من التجارب التي أجريت منذ عقود على معدل الذكاء وحلوى **إم آند إمز**، ففي التجربة الأولى التي أجريت في شمال ولاية كاليفورنيا في أواخر الستينيات من القرن الماضي، اختار باحث يدعى "كالفين إدلوند" تسعة وسبعين طفلاً تتراوح أعمارهم بين الخامسة والسابعة 22، وجميعهم ينتمون إلى عائلات "من الطبقة الدنيا والجزء الأدنى من الطبقة المتوسطة"، حيث تم تقسيم الأطفال عشوائيًا إلى مجموعة تجريبية وأخرى ضابطة، وفي البداية خضعوا جميعًا لنسخة قياسية من اختبار ستانفورد - بينيه للذكاء، وبعد سبعة أسابيع خضعوا لاختبار مشابه، لكن في هذه المرة مُنح كل طفل في المجموعة التجريبية قطعة من حلوى **إم آند إمز** عن كل إجابة صحيحة. وكانت نتيجة كلتا المجموعتين في

الاختبار الأول للذكاء متعادلة، أما في الاختبار الثاني فقد زادت درجات المجموعة التي تناولت الحلوى بمتوسط قدره 12 درجة، وهذا يعد قفزة كبيرة.

وبعد سنوات قليلة قام باحثان 23 من جامعة جنوب فلوريدا بتطوير تجربة "إدلوند"، ولكن في هذه المرة، وبعد إجراء اختبار الذكاء دون منح قطع الحلوى، قام الباحثان بتقسيم الأطفال إلى ثلاث مجموعات وفقاً لترتيبهم فيه، وكانت المجموعة الأعلى ذكاءً قد حصلت في الاختبار الأول للذكاء على متوسط درجات يقدر بنحو 119 نقطة. وكانت المجموعة متوسطة الذكاء قد حصلت على متوسط درجات يقدر بـ 101 نقطة، أما المجموعة منخفضة الذكاء، فكان متوسط درجاتها 79 نقطة، وفي الاختبار الثاني قدم الباحثان حلوى إم آند إمز عند كل إجابة صحيحة إلى نصف الأطفال الموجودين في كل مجموعة من هذه الفئات الثلاث، كما فعل "إدلوند"، أما النصف الآخر من كل مجموعة فلم تُقدم إليهم أية مكافآت، ولم تتحسن درجات الأطفال متوسطي الذكاء وذوي الذكاء المرتفع ممن حصلوا على الحلوى في الاختبار الثاني، في حين أن ذوي الذكاء المنخفض الذين حصلوا على قطعة من الحلوى عن كل إجابة صحيحة قد تحسنت درجاتهم في اختبار الذكاء لتصل إلى نحو 97 درجة، وبذلك يكونون قد تمكنوا تقريباً من سد الفجوة التي تفصلهم عن ذوي الذكاء المتوسط.

لقد كانت دراسات الحلوى هذه ضربة قاصمة للمفهوم التقليدي عن الذكاء، الذي كان يقول إن اختبارات الذكاء تقيس شيئاً حقيقياً ودائماً - شيئاً لا يمكن تغييره كثيراً ببعض قطع الحلوى، كما أثارت تلك الدراسات سؤالاً مهماً ومحيراً عن الأطفال الذين يُعتقد أنهم منخفضو الذكاء، وهو: هل هم منخفضو الذكاء فعلاً، أم أن الأمر ليس كذلك؟ وأي الرقمين كان صحيحاً في قياس ذكائهم؟ الرقم 79 أم 97؟

هذا هو اللغز المحير والمربك الذي يواجهه المعلمون بصورة منتظمة، وبخاصة من يعمل منهم في المدارس شديدة الفقر، فأنت باعتبارك معلماً مقتنعاً بأن طلابك أذكى مما يبدو عليهم، وتعلم أن بإمكانهم أن يصبحوا أفضل كثيراً مما هم عليه إذا ما ركزوا جهودهم. لكن

كيف تحملهم على ذلك؟ هل يُفترض بك أن تعطيهم قطعة من الحلوى عن كل إجابة صحيحة بقية حياتهم؟ هذا لا يبدو حلاً عملياً، وواقع الأمر هو أن هناك بالفعل الكثير من الجوائز التي تقدم إلى الطلاب من الأسر ذوي الدخل المنخفض في المرحلة المتوسطة، وهذه الجوائز ليست فورية، وليست على كل إجابة صحيحة، بل هي على المدى البعيد، فإذا كانت درجات الطالب في الاختبارات ومجموعه التراكمي في المرحلة المتوسطة والثانوية يعكسان مستوى ذكاء يصل إلى 97 نقطة بدلاً من 79، فهذا يعني أن هذا الطالب من المرجح أن ينهي المرحلة الثانوية، ثم يتخرج في الجامعة، ويحصل على وظيفة جيدة، وعندها يمكنه أن يشتري ما يحلو له من أكياس حلوى **إم آند إمز**.

ولكن كما يعلم مدرسو المرحلة المتوسطة، فإن إقناع الطلاب بهذا المنطق أصعب مما يبدو عليه. إذ يتبين أن التحفيز أمر شديد التعقيد، وأن المكافآت قد تأتي بنتائج عكسية في بعض الأحيان، وهناك قصة جاءت في كتاب *Freakonomics* لكل من "ستيفن ليفيت" و"ستيفان دوبر" عن دراسة أجراها الباحثون في سبعينيات القرن الماضي؛ ليعرفوا إذا كان تقديم المكافآت المادية الصغيرة إلى المتبرعين بالدم سيزيد من عددهم 24. وكانت النتيجة أن عدد المتبرعين لم يزد، بل أصبح أقل.

وفي حين أن اختبار الحلوى يشير إلى أن تقديم المحفزات المادية إلى الأطفال من أجل النجاح يُفترض به أن يشكل فارقاً كبيراً، لكن هذا لا يحدث في أغلب الأحيان من الناحية العملية. ففي السنوات الأخيرة، حاول "رونالد فراير"، أستاذ الاقتصاد في جامعة هارفارد، أن يوسع نطاق تجربة الحلوى ليطبقها على نظام المدارس الحضرية، فاختبر العديد من البرامج التحفيزية المختلفة في المدارس العامة 25 - وقدم علاوات إلى المدرسين إذا حسّنوا نتائج فصولهم في الاختبارات، وقدم إلى الطلاب محفزات مثل رصيد مجاني للهاتف إذا عملوا على تحسين نتائجهم في الاختبارات، كما قدم إلى الأسر مكافآت مالية إذا كانت نتائج أطفالها أفضل في الاختبارات. وأجريت الاختبارات بدقة وحذر، ولكن النتائج كانت في معظمها مخيبة للآمال، وهناك نقاط إيجابية في الأمر - ففي مدينة دالاس، كان هناك برنامج يقدم مكافآت مالية إلى الأطفال عن كل كتاب يقرؤونه، وقد أسهم هذا في

رفع معدل القراءة لدى الطلاب الناطقين بالإنجليزية، غير أن معظم هذه البرامج كان فاشلاً. وقد تكلفت أكبر تجربة من هذا النوع من "فراير" ما يبلغ أربعة وسبعين مليون دولار، واستمرت ثلاثة أعوام، وكانت تقدم مكافآت مالية إلى المدرسين في مدينة نيويورك، وفي ربيع عام 2011، أعلن "فراير" أن هذه التجربة لم تحقق أية نتائج إيجابية على الإطلاق.

7. اختبار سرعة تمييز الأرقام

إن مشكلة محاولة تحفيز الآخرين هي عدم معرفة أحد كيفية القيام بهذا الأمر بشكل جيد، وهذا على وجه التحديد هو السبب في وجود صناعة كبيرة تقوم على الملصقات التحفيزية، وكتب المساعدة الذاتية، والمتحدثين التحفيزيين؛ فما يحفزنا يصعب شرحه في أكثر الأحيان، وكذلك يصعب قياسه.

ويكمن جزء من التعقيد المتعلق بهذا الأمر في أن الشخصيات بأنواعها المختلفة تستجيب لأنواع مختلفة من التحفيزات، وهذا الأمر كشفت عنه سلسلة من التجارب التي أجريت عام 2006 على يد "كارميت سيجال"، التي كانت حينها تقوم بدراسات ما بعد الدكتوراه في قسم الاقتصاد في جامعة هارفارد، وقد أصبحت الآن أستاذة في جامعة زيوريخ. وقد أرادت "سيجال" أن تختبر العلاقة بين الشخصية والمحفزات 26، فاختارت أسهل الاختبارات التي يمكن تخيلها وسيلة لذلك، وهو اختبار يدعى سرعة تمييز الأرقام، ويقوم بتقييم المهارات الكتابية الأساسية، وكان ذلك الاختبار بسيطاً بدرجة كبيرة، ففي البداية يُمنح المشاركون مفتاحاً لإجابة مجموعة متنوعة من الكلمات البسيطة، يخصص لكل منها رقم تعريف مكون من أربعة أرقام، وتكون قائمة مفتاح الإجابة مماثلة لما يلي:

وفي أسفل الصفحة يوجد اختبار متعدد الاختيارات توجد فيه الأرقام الأربعة كإجابات محتملة لكل كلمة من هذه الكلمات.

ما عليك سوى إيجاد الرقم الصحيح من مفتاح الإجابة، ثم اختياره من المربع السفلي (1ج، 2أ، 3ج، إلى آخره). إنه اختبار سهل، وإن كان مملاً نوعاً ما.

وقد حددت "سيجال" مجموعتين كبيرتين من البيانات التي تتضمن درجات آلاف الشباب في اختبار سرعة تمييز الأرقام، واختبار معياري لقياس المهارات المعرفية، وكانت إحدى مجموعات هذه البيانات تخص الدراسة الوطنية الطولية للشباب، وهي دراسة كبيرة بدأت تتبع مجموعة تزيد على اثني عشر ألف شاب عام 1979، وكانت المجموعة الثانية من البيانات تخص مجموعة من المجندين في الخدمة العسكرية خضعوا لاختبار سرعة تمييز الأرقام بوصفه جزءاً من سلسلة من الاختبارات التي كان عليهم أن يجتازوها ليتم قبولهم في الجيش الأمريكي، وبالنسبة إلى طلاب المدارس الثانوية والجامعات الذين كانوا جزءاً من الدراسة الوطنية الطولية للشباب، لم يكن لديهم محفز حقيقي لكي يبذلوا جهداً في الاختبارات - حيث كانت نتائج الاختبارات موجهة إلى الأغراض البحثية فقط، دون أن يكون لها أي تأثير في الشهادات الأكاديمية، أما المجندون فكانت نتائج الاختبارات شديدة الأهمية بالنسبة إليهم، فالنتائج السيئة فيها ستحول دون دخولهم الجيش.

وعندما قارنت "سيجال" درجات المجموعتين في كل اختبار، تبين لها أن درجات طلاب الجامعات والمرحلة الثانوية كانت في المتوسط أفضل من درجات المجندين، وذلك في الاختبارين المعرفيين. لكن كانت درجات المجندين أفضل في اختبار سرعة تمييز الأرقام، وربما يقال إن سبب هذه النتائج هو أن الشباب الذين اختاروا أن ينضموا إلى القوات المسلحة كانوا موهوبين بالفطرة في ربط الأرقام بالكلمات، ولكن هذا الاحتمال لا يبدو راجحاً، فقد أدركت "سيجال" أن الشيء الذي كان اختبار سرعة تمييز الأرقام يقيسه، كان أكثر عمقاً من المهارات الكتابية: وهو رغبة المشاركين في الاختبار، وقدرتهم على إجبار أنفسهم على الاهتمام به، على الرغم من أنه أكثر الاختبارات المملة على مستوى العالم، لقد بذل المجندون - الذين كان مستقبلهم على المحك - جهداً أكبر في اختبار سرعة تمييز الأرقام مقارنة بالأطفال الذين كانوا ضمن الدراسة الوطنية الطولية للشباب، وبالنسبة إلى

المجندين, فقد كان الجهد الإضافي الذي بذلوه في هذا الاختبار البسيط كافيًا لجعلهم يتفوقون على نظرائهم الذين كانوا أوفر حظًا منهم في التعليم.

ولا تنسَ أن الدراسة الوطنية الطولية للشباب لم تكن مجرد اختبار عابر, بل ظلت تتبع مدى تقدم هؤلاء الشباب طيلة سنوات عديدة بعد ذلك, ولما كانت هذه هي الحال, رجعت "سيجال" إلى البيانات, ونظرت إلى درجات المهارات المعرفية لكل طالب, وكذلك إلى درجات سرعة تمييز الأرقام عام 1979, ثم قارنت هذه الدرجات بعد عشرين عامًا بالدخل المادي الذي يحققه من كانوا طلابًا وهم في مقتبل الأربعينيات من العمر, وكما كان متوقعًا فقد كان الطلاب الذين حصلوا على درجات أعلى في اختبارات المهارات المعرفية يحققون مكاسب مالية أكبر, ولكن الأمر كان كذلك أيضًا بالنسبة إلى الطلاب الذين حققوا درجات أعلى في اختبار سرعة التعرف على الأرقام الذي كان غاية في البساطة, وعندما نظرت "سيجال" فقط إلى درجات المشاركين الذين خضعوا للدراسة الوطنية الطولية للشباب ممن لم يتخرجوا في الكلية, وجدت أن درجاتهم في اختبار سرعة تمييز الأرقام لا تختلف عن درجاتهم في الاختبارات المعرفية من حيث القدرة على التنبؤ بالأجور التي من الممكن أن يحصلوا عليها عندما يصبحون أشخاصًا بالغين, لقد كان أصحاب الدرجات الأعلى يجنون أموالًا تزيد آلاف الدولارات على التي كان أصحاب الدرجات الأقل يجنونها.

فما السبب في ذلك؟ هل تعطي سوق العمل الحديثة في أمريكا مقارنة قوائم الكلمات والأرقام قيمة كبيرة, بالطبع لا, ولم تكن "سيجال" في الحقيقة تعتقد أن الطلاب الذين حصلوا على درجات أعلى في اختبار سرعة تمييز الأرقام كانت لديهم مهارات أفضل في تمييز الأرقام مقارنة بغيرهم من الطلاب, لقد كان أداؤهم أفضل لسبب واحد, وهو أنهم بذلوا جهدًا أكبر, وهنا نجد أن ما يمثل قيمة في سوق العمل هو ذلك التحفيز الداخلي الذي جعلهم يحاولون أن يبذلوا جهدًا أكبر في الاختبار, حتى لو لم تكن هناك مكافأة على ذلك الجهد, ولم يكن أحد يعلم أن اختبار تمييز الأرقام كان يقيس إحدى المهارات غير المعرفية التي لها أهمية كبيرة في مرحلة النضج.

إن اكتشافات "سيجال" تمدنا بطريقة جديدة للتعامل مع ما نسميهم الأطفال منخفضي الذكاء، الذين كان لهم دور في تجربة الحلوى في جنوب فلوريدا. وتذكر أن هؤلاء الأطفال كانت نتائجهم سيئة في أول اختبار لقياس الذكاء، ولكنهم حققوا نتائج أفضل كثيرًا في الاختبار الثاني الذي قدمت فيه الحلوى على سبيل التحفيز، لذا كان السؤال المطروح هو: أي الرقمين كان يمثل معدل الذكاء الحقيقي للطالب ذي "الذكاء المنخفض"، الرقم 79 أم الرقم 97؟ لا شك في أنك قد ترجح أن الرقم الذي يمثل المعدل الحقيقي للذكاء هو 97. ويفترض بك أن تبذل قصارى جهدك في اختبارات الذكاء، وهذا ما فعله الأطفال ذوو الذكاء المنخفض عندما تم تحفيزهم عن طريق تقديم الحلوى، ولا ريب في أنهم كانوا يعرفون الإجابات الصحيحة، وإلا فإن قطع الحلوى لن تمدهم بالذكاء الذي يمكنهم من معرفة الإجابات، ومن ثم فإن الحقيقة هي أن هؤلاء الأطفال لم يكن معدل ذكائهم منخفضًا على الإطلاق، بل كانوا متوسطي الذكاء.

ولكن ما تشير إليه تجربة "سيجال" هو أن درجة الاختبار الأول، وهي 79، كانت متوافقة مع النتائج المستقبلية لهؤلاء الأطفال، فقد كانت نتائج اختبار سرعة التعرف على الأرقام - وهو ذلك الاختبار الذي لا يكون فيه الكثير على المحك؛ ومن ثم تكون المكافأة عليه ضئيلة - هي المؤشرات التي تشير إلى مدى نجاح الشخص في المستقبل. فقد يكون مستوى ذكاء الطلاب مرتفعًا، لكن تنقصهم الصفة التي تجعل الشخص يبذل قصارى جهده في اختبار الذكاء دون أن تكون هناك أية محفزات؛ أيًا كانت هذه الصفة، وقد أظهرت أبحاث "سيجال" أن هذه الصفة ذات قيمة كبيرة، وأن التحلي بها أمر مهم.

8. يقظة الضمير

ما الصفة التي أظهرها الباحثون عن النجاح في تجربة "سيجال" على أولئك الأطفال الذين بذلوا جهدهم بغض النظر عن وجود مكافأة من عدمه؟ إن الاصطلاح العلمي الذي استخدمه علماء نفس الشخصية هو: يقظة الضمير. وعلى مدار العقدين الماضيين أجمع علماء نفس الشخصية على أن الطريقة الأكثر فاعلية لتحليل الشخصية الإنسانية هي

دراستها من خلال خمسة أبعاد، وتعرف هذه الأبعاد الخمسة بالخمسة الكبار، وهي: الوفاق، والانبساط، والعصابية، والانفتاح على التجربة، ويقظة الضمير. فعندما أخضعت "سيجال" في إحدى دراساتها طلابًا من الذكور لاختبار الشخصية القياسي، كان الطلاب الذين لم يستجيبوا للمحفزات المادية - الذين بذلوا قصارى جهدهم، سواء أكانت هناك حلوى أم لا - يحققون نتائج أعلى على مستوى يقظة الضمير.

ويعتبر "برينت روبرتس" أكبر خبراء مجال يقظة الضمير في علم نفس الشخصية، وهو أستاذ في جامعة إلينوي في مدينة أوربانا في مقاطعة شامبين، وقد تعاون مع عالم الاقتصاد "جيمس هيكرمان" وعالمة النفس "أنجيلا داكورث"، وأخبرني "روبرتس" بأنه في أواخر التسعينيات - عندما كان قد تخرج حديثًا، وكان يحدد مجال البحث الذي يريد أن يتخصص فيه - لم يكن هناك من يرغب في دراسة يقظة الضمير، فمعظم علماء النفس كانوا يعتبرون هذه السمة منبوذة في مجال الشخصية، ولا يزال بعضهم ينظر إليها بهذه النظرة. ويقول "روبرتس" إن هذا الأمر يختلف بحسب ثقافة كل شخص. وكما كان الأمر مع كلمة شخصية، نجد أن كلمة يقظة الضمير ذات ارتباطات قوية، ولكنها ليست إيجابية في جميع الأحيان، وذلك خارج المجال الأكاديمي، وقد قال لي: "إن الباحثين يفضلون دراسة الأمور التي تمثل قيمة لديهم، والأشخاص الذين يقدّرون يقظة الضمير ليسوا بالمتقنين، أو الأكاديميين، أو الليبراليين. ومعظمهم من اليمين الديني المحافظ ممن يعتقدون أن الناس يجب أن يتم التحكم فيهم بصورة أكبر". (ووفقًا لـ "روبرتس" فإن علماء النفس يفضلون دراسة الانفتاح على التجربة، ويتحدث "روبرتس" في أسي، فيقول: "إن الانفتاح أمر لطيف. فهو يتعلق بالإبداع، بالإضافة إلى علاقته الشديدة بالأيديولوجيا التحررية، فمعظم علماء نفس الشخصية، وأنا منهم، ذوو نزعة تحررية، ونحن باعتبارنا علماء نفس نحب أن ندرس أنفسنا بالأحرى").

وهكذا بقي علماء نفس الشخصية - باستثناء "روبرتس" - حتى وقت قريب بعيدين عن مناقشة يقظة الضمير، وفي تسعينيات القرن الماضي تم تبني السمات الخمس الكبرى، ومن بينها يقظة الضمير²⁷ في أحد التخصصات الشهيرة في علم النفس، يسمى: علم النفس

الصناعي التنظيمي، ونادرًا ما يحصل الباحثون في هذا المجال على مناصب في الجامعات العريقة، بل يعمل معظمهم مستشارين لمديري الموارد البشرية في الشركات الكبرى التي - بعيدًا عن النقاشات الأكاديمية ولغتها - تحتاج بصفة خاصة إلى العمال الأكثر إنتاجية وموثوقية واجتهادًا، وعندما بدأ علم النفس الصناعي التنظيمي - الذي يُعرف بعلم النفس المهني - استخدام تقييمات متنوعة للشخصية من أجل مساعدة الشركات على التعرف بهؤلاء العمال، اكتشف الباحثون أن يقظة الضمير من بين الصفات الخمس الكبرى كانت هي السمة التي تشير بصورة أفضل إلى النجاح في بيئة العمل.

إن أكثر ما يثير اهتمام "روبرتس" بيقظة الضمير هو أنها يمكن أن تشير إلى كثير من النتائج التي تتجاوز نطاق العمل²⁸. فأصحاب الضمير اليقظ بدرجة عالية يحققون درجات أفضل في المرحلة الثانوية وفي الجامعة، فأخطاؤهم قليلة، وحياتهم الزوجية ناجحة. ويعيشون أعمارًا أطول من غيرهم، ولا يقتصر سبب ذلك على قلة انخراطهم في السلوكيات المضرة بالصحة كالتدخين، ومعاقرة الشراب. واحتمالات تعرضهم لمشكلات السكتات الدماغية أقل من غيرهم، كما أن ضغط الدم لديهم منخفض، وهم أقل عرضة لمرض ألزهايمر، وقد قال لي "روبرتس": "ربما يكون من الأفضل أن تكون هناك بعض الأمور السلبية التي تصاحب يقظة الضمير، لكن حتى هذه اللحظة تبدو يقظة الضمير أحد الأبعاد الأساسية لنجاح الفرد طوال دورة حياته، إنها تساعد على نجاح الفرد منذ نشأته حتى نهاية حياته".

9. الجانب السلبي للانضباط الذاتي

إن كل ما ذكرناه لا يعني بالطبع أن الجميع يتفق على أن يقظة الضمير أمر إيجابي تمامًا، فبعض الأدلة التجريبية الأولى التي تبرهن على وجود ارتباط بين يقظة الضمير والنجاح في المدرسة ومكان العمل جاء من أشخاص لا يهتمون كثيرًا بالمدرسة أو بمكان العمل، ويدفع عالما النفس الماركسيان "صمويل باولز" و"هربرت جينتس"، في كتابهما *Schooling in Capitalist America* الصادر في عام 1976 بأن المدارس الأمريكية

العامة تسمح بتعزيز الانقسام بين فئات المجتمع²⁹. وجاء في هذا الكتاب أن الرأسماليين من أجل أن يحافظوا على طبقة العمال "كان على النظام التعليمي أن يعلم الأشخاص الخضوع والطاعة كما ينبغي"³⁰. وقد اعتمد المؤلفان على بحث معاصر لـ "جين سميث"، الذي اكتشف أن الاختبار الذي كان أكثر صدقًا في التنبؤ بمستقبل طلاب المرحلة الثانوية لم يقيس معدل الذكاء، بل كان يقيس تقييم زملاء الطالب له في صفة أطلق عليها "سميث" اسم "قوة الشخصية"، وتتضمن هذه الصفة "أن يكون الشخص يقظ الضمير، ومسئولاً، ومنظمًا إلى درجة كبيرة، ولا يميل إلى الاستغراق في أحلام اليقظة، وأن يتسم بالحسم والمثابرة"³¹. وقد كان نجاح هذا المقياس في التنبؤ بأداء الطلاب في الجامعة يفوق غيره من التقييمات المعرفية بثلاثة أضعاف، وتلك التقييمات كانت تشمل اختبار الكفاءة الدراسية والترتيب الفئوي، ونظرًا إلى افتتاح كل من "باولز" و"جينتس" بنتائج "سميث"، وبحث أجراه أحد الزملاء، وهو مشروع بحثي جديد خضع فيه جميع طلاب السنة الأخيرة في المرحلة الثانوية - والبالغ عددهم 237 طالبًا في إحدى المدارس الكبيرة في ولاية نيويورك - لعدد من اختبارات الذكاء واختبارات الشخصية، فقد اكتشفا - كما هو متوقع - أن درجات المهارات المعرفية تنبأت بالمجموع التراكمي، لكن كان هناك مؤشر له القدرة نفسها على التنبؤ، وقد قاما باشتقاقه من مجموع اختبارات الشخصية، وعددها عشرون اختبارًا، منها اختبار يقظة الضمير.

وهذه النتائج بالنسبة إلى علماء النفس من أمثال "سيلجمان" و"بيترسون" و"داكويرث" وروبرتس" تؤكد أهمية الشخصية في النجاح الأكاديمي، أما بالنسبة إلى "باولز" و"جينتس" فقد كانت برهانًا على أن منظومة التعليم كان يتم التلاعب بها من أجل إيجاد طبقة العمال التي تنفذ ما يُطلب منها، وتنصاع له، حيث كان المعلمون يكافئون الطلاب على تنفيذ العمل الروتيني، فوفقًا لـ "باولز" و"جينتس" كان الطلاب الأعلى درجة في المجموع التراكمي هم من حصلوا على أقل الدرجات في مقاييس الإبداع والاستقلالية، وحصلوا على أعلى الدرجات في مقاييس الانضباط، وتأجيل الرضا الشخصي، والتنبؤ، والثقة. ولكن بعد ذلك استخدم كل من "باولز" و"جينتس" مقاييس مشابهة لأصحاب

الأعمال الإدارية، واكتشفوا أن المشرفين كانوا يعاملون العمال بالطريقة نفسها التي كان المعلمون يعاملون بها طلابهم، فكانوا يعطون الموظفين 32 الذين يتمتعون بمستويات عالية من الإبداع والاستقلالية تقييمات منخفضة، ويعطون من لديهم مستويات عالية من اللباقة والانضباط والثقة ومن يؤجلون رضاهم الشخصي تقييمات عالية، وهذه الاكتشافات كانت تأكيداً لفرضية "باولز" و"جينتس": وهي أن أصحاب الشركات الأمريكية كانوا يريدون قطعاً من الموظفين ضعاف الشخصية، يمكن الاعتماد عليهم؛ لذا أنشأوا منظومة التعليم التي تبنت هذه السمات.

ووفقاً لأبحاث "روبرتس" فإن الأشخاص الذين حصلوا على درجات مرتفعة في اختبارات يقظة الضمير يميلون إلى تشارك بعض الصفات: فهم منظمون ومجتهدون في العمل، ويمكن الوثوق بهم، ويحترمون المعايير الاجتماعية. لكن ربما كان المكون الأهم لسمة يقظة الضمير هو الانضباط الذاتي. وعندما يتعلق الأمر به، فإن الاقتصاديين الماركسيين ليسا وحدهما من يشكك في قيمته.

وقد دفع "بيترسون" و"سيلجمان" في كتابهما *Character Strengths and Virtues* بأنه "ليس هناك ضرر حقيقي في التحلي بقدر كبير من الانضباط الذاتي" 33، فهو عبارة عن صفة مثل القوة أو الجمال أو الذكاء؛ لا تنطوي على جانب سلبي لها - فكلما كان نصيبك فيها أكبر كان ذلك أفضل، ولكن هناك مدرسة من مدارس الفكر المعارضة لهذه الفكرة - يقودها الراحل "جاك بلوك"، وهو باحث في علم النفس في جامعة كاليفورنيا في بيركلي - أكدت أن التحلي بالانضباط الذاتي المفرط يمثل مشكلة كبيرة تماماً مثل الافتقار إلى تلك الصفة، ففي أحد الأبحاث كتب "بلوك" واثنان من زملائه يقول: إن الأشخاص الذين يفرطون في الانضباط 34 "أشخاص مقيّدون بدرجة مبالغ فيها"، فهم "يجدون صعوبة في اتخاذ القرارات (و) قد لا يكون من الضروري لهم تأجيل إشباع رغباتهم أو تجاهلها"، ووفقاً لهؤلاء الباحثين، فإن أصحاب الضمير اليقظ أشخاص عاديون للغاية: فهم مغلوبون على أمرهم، وقلقون، ومشاعرهم مكبوتة.

ولا شك في أن ما توصل إليه "بلوك" موثوق، فمن السهل أن نرى كيف يمكن ليقظة الضمير أن تتحول إلى هاجس متسلط. لكن من الصعب في الوقت نفسه أن نجادل بشأن صحة البيانات التي تكشف عن وجود علاقة بين الانضباط الذاتي والنتائج الإيجابية. ففي عام 2011 زادت الأدلة المتاحة بعد أن نشر فريق من الباحثين نتائج دراسة استمرت ثلاثين عامًا، خضع لها ما يزيد على ألف شاب في نيوزيلندا 35، وقد أظهرت النتائج - بتفاصيل جديدة - وجود روابط واضحة بين الانضباط الذاتي في مرحلة الطفولة، والنتائج المترتبة على ذلك في مرحلة البلوغ، فعندما كانت عينة البحث تتراوح أعمار أفرادها بين الثالثة والحادية عشرة، استخدم الباحثون - بقيادة عالمي النفس "أبشالوم كاسبي" وتيري موفيت"، وكان من بينهم "برينت روبرتس" - مجموعة متنوعة من الاختبارات والاستبيانات لقياس مستوى الانضباط الذاتي لدى الأطفال، ثم جرى دمج هذه النتائج في تقييم واحد لمستوى الانضباط الذاتي لكل طفل، ولما تم إجراء مسح لهذه العينة حين أتم أفرادها الثانية والثلاثين من العمر، اكتشف الباحثون أن قياس مستوى الانضباط الذاتي في مرحلة الطفولة أدى إلى التنبؤ بمجموعة واسعة من النتائج، فكلما قل مستوى الانضباط الذاتي للفرد في مرحلة الطفولة، زادت احتمالية ممارسته التدخين في سن الثانية والثلاثين من العمر، وزادت احتمالية إصابته بالمشكلات الصحية، وكان أكثر عرضة ليصبح تصنيفه الائتماني سيئًا، وأن يتعرض لمشكلات قانونية. وفي بعض الحالات كان حجم التأثير كبيرًا للغاية: فاحتمالية الإدانة بارتكاب جرائم كانت أكبر ثلاث مرات لدى البالغين الذين حصلوا على أقل درجات في اختبار الانضباط الذاتي في مرحلة الطفولة، وذلك مقارنة بمن حصلوا على أعلى الدرجات في الاختبار نفسه، كما كانت احتمالية الوقوع في فخ الإدمان المتعدد بينهم أكبر ثلاثة أضعاف، وكذلك زادت إلى الضعفين احتمالية تربية أطفالهم في أسرة مفككة، وذلك مقارنةً بمن حققوا درجات عالية في اختبار الانضباط الذاتي في مرحلة الطفولة.

10. المثابرة

ولكننا نجد أن "أنجيلا داكورث" كذلك تتفق مع الرأي القائل إن الانضباط الذاتي له قيوده، وتقول "أنجيلا" إن الانضباط الذاتي قد يكون مفيداً للغاية في التنبؤ بأن الطفل سيتمكن من إتمام المرحلة الثانوية، ولكنه لا يفيد عندما يتعلق الأمر بمحاولة معرفة ما إن كان من الممكن أن يصبح مخترعاً في المستقبل، فيخترع تقنية جديدة مثلاً، أو أن يصبح مخرجاً يخرج أفلاماً تنال الجوائز، فبعد أن نشرت دراستها الرائعة التي تقارن بين الانضباط الذاتي ومعدل الذكاء في مجلة سايكولوجيكال ساينس عام 2005، إذ بها تدرك أنه لم يكن تحديداً هو الدافع إلى النجاح الذي كانت تبحث عنه. فبدأت تدرس المسيرة المهنية الخاصة بها، فهي وفقاً للمعايير الموضوعية كانت غاية في الذكاء، وأدركت أنها كانت لديها مستويات عالية من الانضباط الذاتي: فكانت تستيقظ مبكراً، وتجتهد في عملها، وتلتزم بالمواعيد النهائية للمهام، وكانت تذهب إلى صالة الألعاب الرياضية بانتظام. ومع أنها كانت ناجحة بكل تأكيد - فهناك عدد قليل جداً من طلاب الدكتوراه يتاح لهم في السنة الأولى أن ينشروا أطروحتهم في مجلة عريقة مثل مجلة سايكولوجيكال ساينس - فإنها لم تحظ بالتوجيه في بداية مسيرتها المهنية، لنقل كما حدث مع "ديفيد ليفين" مثلاً، الذي بدأ مسيرته في الثانية والعشرين من عمره، وظل يسعى وراء الهدف نفسه منذ ذلك الحين، متغلباً على الكثير من العقبات، وتمكن مع "مايكل فاينبرج" من إنشاء شبكة من المدارس المستقلة الناجحة، وكانت هذه المدارس تعلم آلاف الطلاب. شعرت "داكورث" بأن "ليفين" - الذي كان في سن قريبة منها - يمتلك سمة لا تمتلكها هي: وهي الالتزام العميق بمهمة واحدة، والإصرار على إتمام تلك المهمة، فرأت أن هناك حاجة إلى إطلاق اسم على هذه الصفة، فاختارت اسم المثابرة.

وفي أثناء عملها مع "كريس بيترسون" الذي شارك "سيليجمان" في تأليف كتاب *Character Strengths and Virtues*، طورت "داكورث" اختباراً لقياس مستوى المثابرة، وأسمته مقياس المثابرة 36. كان الاختبار بسيطاً بصورة خادعة، فهو يتكون من اثنتي عشرة جملة موجزة، يقوم الشخص الخاضع للاختبار بتقييم نفسه بناء عليها، ومنها: "أحياناً ما يتشتت انتباهي، بفعل الأفكار والمشاريع الجديدة، عن المشاريع والأفكار

السابقة"، و"مواجهة العراقيين لا تصيبني بالإحباط"، و"إنني مجتهد في عملي"، و"لا أبدأ شيئاً إلا أتممته".

ومع كل جملة يقيّم المشاركون أنفسهم على مقياس يبدأ من خمس نقاط في حالة "ينطبق عليّ تمامًا"، وينتهي بنقطة واحدة في حالة "لا ينطبق عليّ تمامًا"، ويستغرق الاختبار نحو ثلاث دقائق، ويعتمد بصورة كاملة على الإفادة الذاتية - وحين طبّق كل من "بيترسون" و"داكويرث" هذا الاختبار في مجال تخصصهما اكتشفا أنه يمكنه أن يتنبأ بالنجاح بشكل ملحوظ. وقد اكتشفت "داكويرث" أن الارتباط بين المثابرة ومعدل الذكاء يشكل علاقة واهية - فهناك أشخاص مثابرون وأذكياء، وهناك أشخاص مثابرون وحمقى - فقد مكنت الدرجات المرتفعة في مقياس المثابرة في جامعة بنسلفانيا الطلاب الذين دخلوا الكلية بدرجات منخفضة من أن يحققوا، على الرغم من ذلك، مجموعاً تراكمياً عالياً، فقد وجدت "داكويرث" في مسابقة التهجئة الوطنية أن الأطفال الذين حصلوا على نقاط مرتفعة في اختبار المثابرة، كانت لديهم فرص أكبر في الاستمرار في المسابقة في جولاتها الأخيرة، والأمر الجدير بالذكر هو أن "داكويرث" و"بيترسون" كانا قد أخضعا لاختبار المثابرة ألفاً ومائتي طالب من الطلاب الجدد عند دخولهم الأكاديمية العسكرية في ويست بوينت، حيث بدأوا التدريب الصيفي المرهق، والمعروف بـBeast Barracks، أو وحوش الثكنات. وكانت الأكاديمية العسكرية قد صممت تقييماً معقداً خاصاً بها، ويسمى المجموع الكلي للمتقدم، ومن خلاله يتم الحكم على المتقدمين إلى الأكاديمية، وتحديد أي منهم سيلبي معاييرها. ويشمل التقييم الدرجات الأكاديمية، ومقياساً للياقة البدنية، ودرجات القدرات القيادية، لكن الاستبيان البسيط لـ"داكويرث" الذي يختبر المثابرة، والمكون من اثنتي عشرة جملة، كان هو المؤشر الأكثر دقة في التنبؤ بمثابرة الطلاب في برنامج وحوش الثكنات أو عدم تحملهم التمارين وخروجهم من الأكاديمية.

11. تقييم الشخصية

عندما بدأ كل من "ديفيد ليفين" و"دومينيك راندولف" في التشاور مع "أنجيلا داكورث" وزملائها بشأن الشخصية، اقتنعا بسهولة بأن الانضباط الذاتي والمثابرة يمثلان نقاط قوة جوهرية لشخصية طلابهم؛ وإن لم تكن هاتان الصفتان نقطتي القوة الوحيدتين ذواتي الأهمية، لكن القائمة الكاملة التي وضعها "سيلجمان" و"بيترسون" للصفات الأربع والعشرين بدت ثقيلة للغاية، ولم يكن من السهل بالنسبة إلى "ليفين" و"راندولف" تحويلها إلى منظومة عملية يمكن تدريسها في مدارسهما، وهنا سألا "بيترسون" عما إن كان بإمكانه أن يلخص القائمة في عدد يمكن العمل عليه، فقام "بيترسون" بتحديد مجموعة من نقاط القوة التي كانت - وفقًا لأبحاثه - أكثر قدرة على التنبؤ بتحقيق الفرد الإنجازات الكبيرة في حياته، وقدرته على أن يحيا حياة ترضيه، لذا فقد استقروا على قائمة نهائية مكونة من سبعة عناصر، وذلك بعد إجراء بعض التعديلات البسيطة:

المثابرة

الانضباط الذاتي

الهمة

الذكاء الاجتماعي

الامتنان

التفاؤل

الفضول

وقد عمل كل من "داكويرث" و"ليفين" و"راندولف" على مدار عام ونصف العام بعد ذلك على تحويل قائمة عناصر القوة السبعة إلى أداة تقييم مكونة من صفحتين في شكل استبيان يقوم به المعلمون أو أولياء الأمور أو الطلاب بأنفسهم. وأخذ المعلمون يقترحون مجموعة متنوعة من المؤشرات المحتملة لكل عنصر من تلك العناصر، وهي عبارات تشبه كثيرًا المؤشرات الاثني عشر التي اختارتها "داكويرث" للاستبيان الذي وضعته لقياس المثابرة، وقد استخدمت عشرات الاستبيانات ميدانيًا في مدرسة ريفرديل، وأكاديمية برنامج المعرفة قوة، حيث كانت تطلب من المدرسين أن يقيّموا الطلاب على مقياس مكون من خمس نقاط لكل مؤشر من المؤشرات الاثني عشر، وكذلك كانت تطلب من الطلاب أن يقيّموا أنفسهم على المقياس نفسه، وقد استقرت في النهاية على أربعة وعشرين مؤشرًا هي الأكثر موثوقية من الناحية الإحصائية، بدايةً بجملة "هذا الطالب متعطش لاكتشاف الأشياء الجديدة" (كمؤشر لصفة الفضول)، ونهايةً بجملة "يعتقد هذا الطالب أن مستقبله سيتحسن إذا بذل جهدًا" (كمؤشر لصفة التفاؤل).

كانت الخطوة التالية واضحة بالنسبة إلى "ليفين"، ففي عام 2007 - عندما كان في مؤتمر صغير مخصص للمدعوين فقط كان قد نظم "راندولف" في مدينة لورينسفيل، وكان موضوع المؤتمر عن علم النفس الإيجابي - واثته فكرة وضع درجات لمادة تدرّس الشخصية للطلاب الموجودين في أكاديميته، حيث تعامل معاملة بقية المواد الدراسية، مثل الرياضيات والعلوم والتاريخ، فكان "ليفين" يتساءل في نفسه عن مدى روعة هذه الفكرة بحيث لا تقتصر درجات الطلاب على المجموع التراكمي فقط، بل تكون هناك درجات للشخصية، ولنفرض أنك كنت مسؤولاً عن امتحانات المتقدمين إلى الكليات، أو كنت مدير الموارد البشرية في إحدى الشركات، وكنت تختار الموظفين الجدد، ألم تكن تفضل أن تعرف أيًا من المتقدمين أو الموظفين حصل على أعلى الدرجات في اختبار المثابرة أو التفاؤل أو الهمة؟ ولو أنك كنت والد أحد الطلاب بأكاديمية برنامج المعرفة قوة، أما كنت سترغب في أن تعرف ما يميز ابنك، أو ابنتك، عن غيره من الطلاب فيما يتعلق بالشخصية، كما ترغب في معرفة مستواه في القراءة؟ بالنسبة إلى "ليفين" كانت الإجابة

عن كل هذه الأسئلة، هي: نعم. وبمجرد أن حصل على القائمة النهائية للمؤشرات من "داكويرث" و"بيترسون" بدأ يحولها إلى تقييم دقيق ومحدد يمكن إعطاء الطلاب وأولياء الأمور إياه في مدارس برنامج المعرفة قوة في نيويورك، ويحدث ذلك مرتين كل عام: لقد كان ذلك التقييم التقرير المدرسي الأول عن الشخصية.

وقد كانت فكرة تقرير متابعة الشخصية تثير الانزعاج عند "راندولف" في مدرسة ريفرديل، وقد قال لي ذات مرة: "إنني أواجه مشكلة فلسفية مع تقييم الشخصية، فبالنسبة إلى الطبيعة الخاصة لطلاب المدرسة التي أعمل فيها على الأقل، فإنك بمجرد أن تعد شيئًا باعتباره تقريرًا مدرسيًا، فسوف تجد الكثير من الطلاب يتدربون عليه، وأنا لا أريد أن أضع مقياسًا للشخصية يمكن التلاعب به بعد ذلك، وسوف أكره الأمر إذا ما وصل إلى تلك النقطة".

ولكنه لا يزال يتفق مع "ليفين" على أن القائمة التي وضعها كل من "داكويرث" و"بيترسون" قد تكون أداة مفيدة في التواصل مع الطلاب بشأن مفهوم الشخصية. وهكذا أخذ المنهج الذي أسماه أحد معلمي مدرسة ريفرديل بـ"المنهج سريع الانتشار" الذي يهدف إلى نشر فكرة هذه الطريقة الجديدة في تقييم الشخصية في مجتمع ريفرديل، فكان يتحدث إلى أولياء الأمور عن مفهوم الشخصية، وكان يوجه إلى أفراد فريق العمل أسئلة مباشرة عن الموضوع في اجتماعاتهم، واتصل بالأعضاء الذين يوافقون على رؤيته، وشجعهم على اقتراح برامج جديدة. وفي شتاء عام 2011 خضع طلاب الصفين الخامس والسادس في مدرسة ريفرديل للمسح الذي يحتوي على أربعة وعشرين مؤشرًا، وقام مدرسوهم بتقييمهم أيضًا. وناقش فريق العمل النتائج، ولكن لم تُعرض تلك النتائج على الطلاب أو أولياء الأمور، ولم يُطلق عليها اسم تقارير مدرسية.

إن الخطى المدروسة التي انتهجها "راندولف" كانت في جزء منها نتيجة نمط شخصيته، فهو يستمتع بما يسميه العملية الحوارية، وهي الحوارات المستمرة التي تقود إلى تغيير آراء الآخرين تدريجيًا. ولهذه الطريقة أهمية كبيرة في ثقافة مدرسة ريفرديل، فهي مدرسة

لا يعين فيها المدرسون لاهتمامهم بالمجال التربوي، بل بسبب كفاءتهم في مواد التخصص، ويبين "راندولف" ذلك قائلاً: "يأتي المدرسون إلى هذه المدرسة؛ لأنهم يريدون أن يكون لديهم مستوى ما من الاستقلالية، ويمكنني من الناحية النظرية أن أقول: 'إنهم يقومون بعملهم بالطريقة التي يرونها فقط'، وهو أمر قد 'لا يوافق' عليه البعض".

عندما قضيت بعض الوقت في مدرسة ريفرديل اتضح لي أن النقاش بشأن الشخصية في المدرسة لم يكن يقتصر على البحث عن أفضل تقييم وتحسين لشخصية الطلاب، وكيفية تبني الطرق الجديدة لتطبيق هذا الأمر سريعاً، بل كان الأمر أكثر عمقاً، حيث كان هناك سؤال مطروح عن المعنى الحقيقي للشخصية. فعندما قدم "راندولف" إلى مدرسة ريفرديل كان هناك بالفعل برنامج قائم لتدريس الشخصية، وكان يسمى توعية الأطفال بأخلاقيات مدرسة ريفرديل، وتم تبني هذا البرنامج عام 1988 في الصفوف الدنيا، التي تتمثل في مرحلة رياض الأطفال، وصولاً إلى الصف الخامس الابتدائي. وكان هذا البرنامج بمنزلة مخطط للسلوكيات والأخلاقيات الطيبة، فكان يفرض على الطلاب "معاملة الجميع باحترام"، و"الاهتمام بمشاعر الآخرين، والبحث عن سبل لمساعدة الأشخاص الذين جرح شعورهم". وكانت هناك ملصقات في رواق المدرسة تذكر الطلاب بالقيم التي يحض عليها هذا البرنامج **(أحرص على السلوك الجيد، وتجنب النميمة، وساعد الآخرين)**. وكان المعلمون في الصفوف الدنيا يتحدثون بفخر عن هذه القيم باعتبارها جزءاً جوهرياً في تميز المدرسة عن غيرها.

وعندما سألت "راندولف" عن برنامج التوعية هذا بدت عليه الجدية، وتكلم بأسلوب لطيف قائلاً: "أرى أن نقاط قوة الشخصية موجودة في الإصدار الثاني منه، فاللغة الجديدة التي نتحدث بها عن الشخصية تعجبني؛ لذا أود أن أقول إننا في الجيل التالي من برنامج توعية الأطفال بأخلاقيات المدرسة".

ولكن الحقيقة هي أن المنهجية التي اتبعها "سيليجمان" و"بيترسون" في نقاط قوة الشخصية ليست تطويراً لبرامج مثل برنامج توعية الأطفال بأخلاقيات مدرسة ريفرديل،

بل هي مناقضة لها، ففي عام 2008 نشرت مؤسسة وطنية تهدف إلى تثقيف الشخصية، وتدعى كاركتر إديوكيشن بارتشرشيب بحثًا تم فيه تقسيم تعليم الشخصية إلى فئتين 37: الفئة الأولى هي البرامج التي تنمي "الجانب الأخلاقي من الشخصية"، وتتضمن قيمًا أخلاقية مثل الإنصاف، والكرم، والنزاهة، والفئة الثانية التي تخاطب "الأداء الشخصي"، وتشتمل على قيم مثل الجهد، والكد، والمثابرة. وينحصر برنامج توعية الأطفال بأخلاقيات مدرسة ريفرديل في الفئة الأولى؛ "الجانب الأخلاقي من الشخصية"، ولكن نقاط القوة السبع للشخصية التي اختارها "راندولف" و"ليفين" لمدارسهما كانت تميل بدرجة كبيرة إلى الأداء الشخصي: ففي حين أن المكوّن الأخلاقي لتلك النقاط - وهي نقاط قوة الشخصية مثل الهمة والتفاؤل والذكاء والفضول - ليس كبيرًا للغاية، لكنها تجعلك تفكر في "ستيف جوبز" و"بيل كلينتون" أكثر من تفكيرك في "مارتن لوثر كينج الابن" أو "غاندي".

واختار "راندولف" معلمتين للإشراف على مبادرة تدريس الشخصية بالمدرسة، وهما "كيه. سي. كوهين" - وهي مستشارة للمدارس الإعدادية والثانوية - و"كارين فيرست" - وهي مختصة بالتعليم للمدارس الابتدائية، كانت "كوهين" في منتصف الثلاثينيات من العمر، وكانت تتسم بالود وعمق التفكير، وقد أتمت تعليمها في مدرسة فيلدستون الخاصة التي تقع على آخر الطريق المؤدي إلى مدرسة ريفرديل، وكان لديها اهتمام كبير بتنمية الشخصية، وقلقة - مثل "راندولف" - إزاء شخصية الطلاب في مدرسة ريفرديل. ولكنها لم تكن مقتنعة بنقاط القوة السبع التي اختارتها مدرسة ريفرديل، وقد قالت لي: "عندما أفكر في الشخصية الجيدة، أفكر 'هل تتسم بالإنصاف؟'، و'هل أنت أمين في التعامل مع الآخرين؟'، و'هل تتسم بالغش؟'، فلا أفكر في رباطة الجأش، ولا في الاجتهاد في العمل، بل أفكر فيما إن كان الشخص جيدًا أم لا".

كانت رؤية "كوهين" للشخصية قريبة كثيرًا من الجانب الأخلاقي للشخصية أكثر من قربها من جانب الأداء، وظلت هذه الرؤية هي المسيطرة خلال الشهور التي زرت فيها مدرسة ريفرديل، وعندما قضيت يومًا في المدرسة في شتاء عام 2011، حيث جلست في العديد من الفصول، وحضرت العديد من الاجتماعات، كانت هناك رسائل في كل مكان عن السلوك

والقيم، ولكن كان معظمها عن البعد الأخلاقي. كان ذلك اليوم حافلاً عندما ذهبت إلى المدرسة الإعدادية - حيث كان يوم ارتداء البيجامات، وكان هناك اجتماع في الصباح، وفوق هذا كله كان على الطلاب الذين سيسافرون في رحلة إلى بوردو - تمتد أسبوعين - لقضاء إجازة الربيع، أن يغادروا مبكراً؛ لأنهم سيسافرون مساءً إلى باريس بالطائرة. وكان موضوع ذلك الاجتماع عن الأبطال، فوقف ستة طلاب أمام زملائهم - الذين كانوا يبلغون ثلاثمائة وخمسين طالباً - وقام كل منهم بتقديم عرض موجز عن بطل من اختياره، وهؤلاء الأبطال هم: "روبي بيل بريدجز"، الفتاة الأمريكية ذات الأصول الأفريقية التي كانت ضمن أول مجموعة يطبق عليها دمج المدارس (دمج مدارس ذوي البشرة البيضاء مع مدارس ذوي البشرة السوداء) في نيو أورليانز عام 1960، و"محمد بوعزيزي" تاجر الفواكه التونسي الذي أدت تضحيته بنفسه إلى إشعال فتيل الثورة في بلاده، والممثل والناشط "بول روبيسون"، والملاكم "ماني باكياو".

وقد سمعت حديثاً مطولاً عن القيم والأخلاق في الاجتماع، وفي الفصول، وفي حواراتي مع مختلف الطلاب، وكانت القيم التي أكدها الجميع قيماً اجتماعية، مثل: احتواء الآخرين، والتسامح، وتقبل التنوع. (لقد كان ما سمعته عن تاريخ الأمريكيين ذوي الأصول الأفريقية في مدرسة ريفرديل أكثر مما سمعته في غيرها من المدارس التي تطبق برنامج المعرفة قوة). ففي أحد أطراف حجرة تناول الغذاء الرائعة الخاصة بالمدرسة، حيث تنتشر أشعة الشمس كان هناك معرض للصور، حيث وضعت فيه صور لأسر متنوعة - من أسرى يمولها والدان كفيفان، إلى أسرى مختلطة الأعراق، إلى أطفال تمت كفالتهم لعدم وجود من يعولهم. وقد سألت فتاة في الصف الثامن عن الشخصية، فقالت لي إن أكبر مشكلة تواجهها هي وصديقاتها هي الاحتواء - وكانت الفتاة تعاني جراء تجنب الآخرين لها. لقد كان تعريف الشخصية في مدرسة ريفرديل يدور على حد علمي في إطار مساعدة الآخرين، أو على الأقل في إطار الامتناع عن إيذاء مشاعرهم. أما عن كيفية اكتساب نقاط القوة التي من الممكن أن تساعد الفرد على تحقيق حياة أكثر نجاحاً، فلم أسمع عن ذلك سوى النزر اليسير.

ومع ذلك، فقد أخبرني "راندولف" بتخوفاته بشأن برنامج الشخصية الذي لم يتجاوز القيم الحميدة، وقال لي: "إن الخطر الكامن فيما يتعلق بالشخصية يتمثل في أنك إذا رجعت إلى تلك الأخلاقيات العامة - كاحترام والأمانة والتسامح - لالتبس عليك مفهومها. ولو أنني وقفت أمام الطلاب وقلت 'إن الاحترام المتبادل فيما بينكم أمر مهم' فإنهم لن يستوعبوا كلامي، ولكنني إذا قلت لهم: 'إنكم بحاجة إلى أن تعبروا عن تحكمكم في ذاتكم' أو أخذت أشرح لهم قيمة الذكاء الاجتماعي - وقلت لهم إن هذا من شأنه أن يعزز التعاون بينكم - فسيكون الأمر واضحًا ومفهومًا بشكل أكبر".

وعندما تحدثت إلى "كارين فيرست" - المعلمة التي كانت تشرف على مشروع الشخصية في المرحلة الابتدائية في مدرسة ريفرديل - أخبرتني بأنها كانت متخوفة من أنه سيكون من الصعب إقناع الطلاب وأولياء الأمور بوجود أية فائدة من نقاط قوة الشخصية المكونة من أربعة وعشرين عنصرًا. وبالنسبة إلى طلاب أكاديمية برنامج المعرفة قوة، فقد قالت "كارين" إن فكرة مساعدة الشخصية لهم على الوصول إلى الكليات، كانت أمرًا مغريًا، فهي ستحفزهم على التعامل بجدية مع نقاط قوة الشخصية، أما بالنسبة إلى طلاب مدرسة ريفرديل، فلم يكن هناك شك في أنهم سوف يتخرجون في الكلية، لقد قالت "كارين فيرست": "إنهم سيتخرجون في الكليات، فهذا الأمر قد حدث مع جميع الأجيال التي سبقتهم في عائلاتهم. ومن ثم فمن الصعب أن تقنعهم بدراسة الشخصية من هذه الجهة. إن تعلم نقاط القوة هذه بالنسبة إلى طلاب أكاديمية برنامج المعرفة قوة كان في جزء منه محاولة لفهم سبب نجاح الآخرين، فيمكن أن تقول لهم: 'إننا نكشف لكم عن سر نجاح الآخرين'، ولكن هؤلاء الطلاب يعيشون بالفعل في مجتمع ناجح. وهم يعتمدون على معلمهم في إمدادهم بالمعلومات التي توضح لهم كيف يمكنهم أن يصبحوا ناجحين".

12. الترف

سأبدأ هنا بـ "دوايت فيدال" الذي يدرّس اللغة الإنجليزية في مدرسة ريفرديل لطلاب المرحلتين الإعدادية والثانوية، كان "فيدال" خريج المدرسة عام 2001، وهو متميز عن

غيره من أعضاء هيئة التدريس والسبب في ذلك يرجع إلى أنه أمريكي من أصول أفريقية، فعندما قابلته كان هو المدرس الوحيد في المدرسة الثانوية الذي ينتمي إلى أصول أفريقية، نشأ "فيدال" في حي برونكس، حيث كان يعيش مع والدته التي كانت تعمل سكرتيرة، وزوجها الذي كان يعمل كهربائيًا، والتحق بمدرسة ريفرديل وهو في المرحلة الثانوية، حيث كان قد حصل على منحة دراسية، وأخبرني بأنه أحب الموارد الوفيرة المتاحة في المدرسة، والفصول التي كانت تحفل بالتحديات الأكاديمية، كما أخبرني بأن الثراء الذي يبدو على زملائه ذوي البشرة البيضاء كان أمرًا يصعب اعتياده. وفي الصف الثامن كانت هناك زميلة تعمل معه على مشروع مدرسي، ودعته إلى منزل أسرتها في الجانب الشرقي الراقي؛ لكي يعملًا معًا على المشروع، ويقول فيدال: "لن أنسى أبدًا ما شعرت به حين مشيت في شقتها؛ لقد كنت منبهراً للغاية بما رأيته من ثراء وترف"، وقد جعله هذا الأمر، على حد قوله، يحافظ على وجود مسافة بينه وبين العديد من زملائه، وقد أخبرني بأنه لم يدعُ أحدًا من أصدقائه من ذوي البشرة البيضاء إلى منزله طوال سنوات دراسته في مدرسة ريفرديل؛ فقد كان يشعر بأن حياته كانت مختلفة اختلافًا كبيرًا عن حياتهم.

أما الآن، وبعد أن أصبح يدرّس لأطفال يعيشون في مثل تلك الثروة، بات ينظر إلى هؤلاء الأطفال المترفين نظرة مختلفة. فعلى الرغم من أنه بدأ "بداية متواضعة للغاية" فإنه استمد القوة من وجود أمه إلى جواره، حيث كان يستطيع أن يتحدث إليها متى احتاج إلى ذلك، ويبدو أن الكثير من طلابه لا تربطهم بآبائهم علاقات قوية، ويقول إن كثيرًا من زملائه يتحدثون عن أولئك الآباء الذين "يراقبون أبناءهم، ويهّبون لإنقاذهم متى احتاجوا إلى ذلك"، ويقول: "لكن هذا لا يعني أنهم يرتبطون بأطفالهم بروابط عاطفية، أو يقضون معهم وقتًا".

وعندما كنت في مدرسة ريفرديل في أحد الأيام التي يكون النشاط فيها موجهًا إلى التنمية المهنية، نظم "دومينيك راندولف" حدثًا دعا إليه المدرسين جميعًا لمشاهدة فيلم *Race to Nowhere*، وهو فيلم يتحدث عن الضغوط التي كانت تواجه طلاب المرحلة

الثانوية الأثرياء، وقد أصبح من أنجح الأفلام البعيدة عن التيار الثقافي السائد حينها في العديد من الضواحي الثرية، حيث يتسبب عرضه ولو مرة واحدة في المدارس ودور العبادة والمراكز المجتمعية في إصابة مئات بل آلاف من أولياء الأمور بالقلق، ويرسم الفيلم صورة كئيبة عن حال المراهقين في الفترة الحالية، ويصل إلى ذروة التصعيد العاطفي عند سرد قصة انتحار فتاة مراهقة متفوقة، والسبب على ما يبدو شعورها بضغط متواصلة عليها في المدرسة، وفي المنزل من أجل تحقيق النجاح. وبالنسبة إلى المدرسين في ريفرديل، فقد كان للفيلم تأثير قوي في الكثير من المدرسين، حتى إن إحدى المدرسات قامت إلى "راندولف" والدموع تنهمر من عينيها.

لقد ساعد هذا الفيلم على تضافر الجهود لقيام حركة متنامية مؤلفة من علماء النفس والعاملين في حقل التربية الذين يعتقدون أن منظومة التعليم وأساليبها الحالية في تنشئة الأطفال الأثرياء وتعليمهم في الولايات المتحدة تعمل في الحقيقة على تدمير هذا النشء، وتعد شخصية "مادلين ليفين" إحدى الشخصيات المحورية في الفيلم، وهي عالمة نفس في مقاطعة مارين، ومؤلفة الكتاب الأكثر مبيعاً الذي يحمل عنوان: *The Price of Privilege: How Parental Pressure and Material Advantage Are Creating a Generation of Disconnected and Unhappy Kids*، وتستشهد "ليفين" في كتابها بالعديد من الدراسات والأبحاث الاستقصائية لتدعم رأيها بأن الأطفال الذين ينتمون إلى أسر ثرية تظهر عليهم حالياً "معدلات مرتفعة على نحو غير متوقع للمشكلات الانفعالية بداية من السنة الأولى في المرحلة الثانوية" 38. وتقول إن هذا الأمر لا يأتي من قبيل المصادفة في الإحصائيات، بل هو نتيجة مباشرة للطريقة التي تربي بها الأطفال في بيوت الأسر الأمريكية الميسورة، وتقول "ليفين": إن الآباء والأمهات الأثرياء في أيامنا هذه يكثر لديهم الابتعاد العاطفي عن أطفالهم مقارنة بغيرهم، وهم في الوقت نفسه يلحون على أبنائهم في تحقيق مستويات عالية من الإنجاز؛ ما يشكل مزيجاً من المؤثرات السامة التي يمكنها أن تخلق "مشاعر قوية من اليأس والخجل" 39 لدى أطفالهم.

ويستند كتاب "ليفين" إلى بحث أجرته "سونيا لوثر"، أستاذة علم النفس في كلية المعلمين في جامعة كولومبيا، وقد تخصصت "لوثر" على مدار العقد المنصرم في بحث المشكلات النفسية الخاصة التي تواجه الأطفال الذين ينشأون في الأسر المترفة، (وقد حضرت مؤتمر لورنسفيل عام 2007 بناءً على دعوة من "راندولف"). وعندما بدأت "لوثر" بحثها كانت مهتمة بشكل أساسي بمشكلات المراهقين الذين ينتمون إلى أسر منخفضة الدخل، ولكنها رأت في أواخر التسعينيات أنها بحاجة إلى إيجاد مجموعة مقارنة، وذلك لمساعدتها على إجراء مقارنة أفضل لأنماط التربية التي كانت تراها في الأحياء الحضرية الفقيرة، وأنماط التربية التي كانت تراها في الجماعات السكانية التي تعيش حياة أفضل. وهكذا أجرت دراسة للمقارنة بين ما يزيد على مائتي طالب من طلاب الصف العاشر، ومعظمهم من ذوي البشرة البيضاء الذين يسكنون الضواحي الثرية والعدد نفسه تقريباً من طلاب الصف العاشر، ومعظمهم من ذوي الأصول الأفريقية، ويعيشون في ظل أسر منخفضة الدخل. وفوجئت "لوثر" عندما وجدت أن نسبة معاقرة الشراب، والانخراط في التدخين، وتناول المواد المخدرة في المراهقين من أبناء العائلات الثرية كانت أكثر منها في المراهقين الذين ينتمون إلى الأسر منخفضة الدخل 40، وكان 35% من الفتيات اللاتي يسكنن في الضواحي الثرية قد تعاطين هذه الأشياء المذكورة مقارنة بـ 15% فقط من الفتيات اللاتي يسكنن في المناطق الفقيرة، كما كانت الفتيات اللاتي ينتمين إلى أسر ثرية يعانين تزايداً في معدل الاكتئاب، وقد اشتكت 22% منهن من أعراض سريرية خطيرة.

ثم طُلب منها أن تعمل في مجال الاستشارة في مدرسة إعدادية أخرى في مدينة أكثر ثراءً، حيث تابعت مجموعة من طلاب المرحلة المتوسطة عدة سنوات 41، فوجدت أن نحو خمس هؤلاء الطلاب الذين ينتمون إلى أسر من ذوي الدخل المرتفعة يواجهون مشكلات متعددة، وبصورة مستمرة 42، بما فيها تعاطي المخدرات، وشرب الكحوليات، بالإضافة إلى نسب مرتفعة من الاكتئاب وصعوبات دراسية مستمرة، ولكن في هذه المرة قامت بإجراء استبيان بين الطلاب عن علاقتهم بوالديهم، بالإضافة إلى تجميع معلومات عن أهمهم النفسية وسلوكيات الجنوح لديهم، واكتشفت أن التربية كانت لها أهمية كبيرة على كلتا

النهايتين من النطاق الاجتماعي الاقتصادي، فبالنسبة إلى المراهقين الأغنياء والفقراء على حد سواء، كانت هناك خصائص محددة متعلقة بالأسرة، تشير إلى عدم الاتزان لديهم، ومنها انخفاض مستوى التعلق بالأم، وتزايد النقد الموجه من الآباء والأمهات، وغياب الرعاية والاهتمام من قبل الأسرة بعد انتهاء اليوم الدراسي في المدرسة، كما اكتشفت "لوثر" أن السبب الرئيسي في الآلام النفسية بين الأطفال الذين ينتمون إلى أسر ثرية كان هو "الضغوط الشديدة عليهم من أجل تحقيق النجاح، بالإضافة إلى انعزالهم عن والديهم على المستويين الجسدي والعاطفي على حد سواء"43.

وقد اكتشف "دان كيندلون" - الأستاذ المساعد في علم نفس الأطفال في جامعة هارفارد - مزيداً من الأدلة عن الضغوط الخاصة التي تقع على الأطفال الذين ينتمون إلى أسر ثرية44، وذلك في دراسة أجراها عن الأسر الثرية على مستوى الدولة من أجل إعداد كتابه الذي نشره عام 2000، وقد اكتشف "كيندلون" - كما فعلت "لوثر" - مستويات مرتفعة للغاية من القلق والاكتئاب بين الطلاب الذين ينتمون إلى أسر ثرية بخاصة في مرحلة المراهقة، كما اكتشف أن الفجوة العاطفية بين كثير من الآباء الأثرياء وأطفالهم كانت في كثير من الأحيان تدل على تساهل الآباء مع السلوكيات السيئة على نحو غير طبيعي، وفي دراسة "كيندلون" كان الآباء الذين يجنون ما يزيد على مليون دولار سنوياً - بهامش كبير - هم أكثر من يقولون إنهم أقل تشدداً من والديهم45.

وقد أخبرتني "كيه. سي. كوهين" بأنها تحدثت كثيراً مع غيرها من المعلمين عن الترف وآثاره الضارة المحتملة على تنمية شخصية الطلاب، وقد استدعت "كيندلون" إلى مدرسة ريفرديل للتحدث في هذا الموضوع مع الطلاب والمعلمين، وقد أخبرتني كل من "كوهين" و"فيرست" بأنه في الوقت الذي يضغط فيه الكثير من الآباء والأمهات على أبنائهم من أجل التفوق الدراسي، فإنهم يمنعونهم دون قصد من خوض التجربة التي يمكن لها أن تؤدي إلى نضج الشخصية، وتقول "فيرست": "إن أطفالنا لا يتحملون هذا القدر الكبير من المعاناة، وليس هناك سبيل يمكنهم من ذلك، فهم بمعزل عن هذه التجربة، وعندما

ينزعجون يأتي إلينا آباؤهم وأمهاتهم لإخبارنا بذلك، ونحن بدورنا نحاول أن نتحدث مع أولياء الأمور عن تقبل التحديات؛ لأنها تقود إلى التعلم".

وكانت "كوهين" تشرح الأمر فيما يتعلق بالمدرسة الإعدادية كالتالي: "إذا كان مستوى الطفل متدنياً، وكان والداه يعتقدان أنه متفوق، نجد أن الآباء والأمهات يعترضون على تقييمنا مستويات أبنائهم؛ طارحين أسئلة من قبيل: 'ماذا تقول؟ إن البحث الذي قدمه ابني بحث رائع!، فنجد بعض الآباء يتصلون بنا من أجل أطفالهم، ويقولون: 'ألا يمكنك أن تمهله يومين إضافيين لإنهاء البحث؟'، هذا هو التدليل المفرط للأطفال بهدف منحهم كل شيء، وكسب حبهم، ولكنه إنما يكون على حساب شخصيتهم - وهذه الحالة متفشية في ثقافتنا. وأعتقد أنها إحدى المشكلات الكبرى التي نواجهها في مدرسة ريفرديل".

وهذه الحالة هي بالطبع مشكلة لجميع الآباء والأمهات، وهي لا تقتصر على الأسر المترفة وحدها، بل إننا أمام مفارقة ذات أهمية رئيسية في التربية المعاصرة، فنحن لدينا دافع بيولوجي حاد وقوي نحو منح أطفالنا كل ما يريدونه أو يحتاجون إليه حماية لهم من المخاطر والمتاعب، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة. ومع هذا فنحن نعلم - بدرجة ما على الأقل - أن أكثر ما يحتاج إليه أطفالنا هو شيء من المعاناة: إنهم يحتاجون إلى شيء من التحدي والحرمان الذي يمكنهم أن يتجاوزوه، ويتغلبوا عليه، حتى لو كان ذلك لمجرد أن يثبتوا لأنفسهم أنهم قادرون على ذلك، فكونك والدًا تجد صعوبة في الإجابة عن هذه الأسئلة الشائكة في كل يوم، وسوف تكون محظوظًا لو كان نصف قراراتك صحيحًا. ولكن اعترافك بوجود هذه المعضلة، وأنت في منزلك تتمتع بالخصوصية التي يوفرها لك، شيء، ومناقشتها أمام الناس في المدرسة، التي يدرس بها أطفالك بتكلفة كبيرة، شيء آخر.

وهذه هي المشكلة التي يتصدى لها "راندولف" في مدرسة ريفرديل، حيث يحاول أن يُحدث تقدمًا في هذا النوع الجديد من الحوار المتعلق بالشخصية، عندما تعمل في المدارس العامة - سواء أكانت مستقلة أم تقليدية حكومية - فإنك تتلقى راتبًا من الدولة، وتكون مسؤولًا بدرجة ما مع إخوانك المواطنين عن الوظيفة التي تقوم بها، وهي إعداد

الطلاب للانضمام لعالم البالغين، ولكن عندما تعمل في مدرسة خاصة مثل مدرسة ريفرديل، فإنك تظل على علم دائمًا بأنك تعمل لدى أولياء الأمور الذين يدفعون إليك راتبك؛ الأمر الذي يزيد بدوره من تعقيد الحملة التي يحاول "راندولف" أن يطلقها، فلو كنت تفترض أن طلابك تنقصهم سمات أساسية مثل المثابرة، والعرفان بالجميل، والانضباط الذاتي، فإنك بهذا تنتقد أولياء الأمور ضمناً - ما يعني أنك تنتقد أصحاب العمل بشكل غير مباشر.

إن الأسر الثرية تختار لأطفالها مدارس مثل ريفرديل بوصفها إستراتيجية لإدارة المخاطر، وإن لم تصرح هذه الأسر بذلك الأمر على هذا النحو، ولو أنك نظرت إلى قائمة الأشخاص الناجحين الذين تخرجوا في مدرسة ريفرديل، فسوف ترى بعض الأسماء المثيرة للإعجاب، مثل "كارلي سيمون"، و"تشيفي تشيس"، و"روبرت كرولويش"، حاكم ولاية بنسلفانيا وعضو جديد في مجلس الشيوخ الأمريكي عن ولاية كونيتكت - وهذا العدد من القادة الحقيقيين يعتبر قليلاً بالنسبة إلى مدرسة كانت تخرج أشخاصاً متميزين على مدار 104 أعوام. (مع اعتذاري لـ "تشيفي"). وفي الغالب؛ لا يكون الهدف من مدارس مثل ريفرديل هو رفع سقف الإنجازات التي يمكن للطفل أن يحققها في الحياة، بل الارتقاء به، ومده بمزيد من العلاقات والمؤهلات التي تجعل من الصعب للغاية على الطفل أن يبتعد عن الطبقة العليا التي ينتمي إليها، وفوق هذا كله، فإن ما تقدمه مدرسة ريفرديل إلى أولياء الأمور هو زيادة احتمالية تجنب الفشل لدى أطفالهم بدرجة كبيرة.

ووفقاً لـ "راندولف" فإن المشكلة هي أن أفضل طريقة لبناء شخصية الطلاب اليافعين تكون من خلال محاولتهم القيام بشيء ينطوي على احتمال الإخفاق بشكل كبير، ففي الأمور التي تنطوي على نسبة كبيرة من المخاطرة - سواء أكانت في مجال الأعمال أم الرياضة أم الفنون - تزيد احتمالية تعرضك لهزيمة ساحقة مقارنة بالأمور التي تقل فيها درجة الخطورة، ولكن على الرغم من ارتفاع نسبة المخاطرة يكون هناك أيضاً احتمال أكبر بأن تحقق نجاحاً حقيقياً وأصيلاً، ويبين "راندولف" فكرته فيقول: "إن تعزيز المثابرة

والانضباط الذاتي إنما يتأتى من خلال المرور بالفشل، وليس هناك من يفشل في أي شيء في معظم أماكن الدراسة الأكاديمية في الولايات المتحدة".

ويقول "ديفيد ليفين" إنه يعتقد أن طلاب أكاديمية برنامج المعرفة قوة لديهم أفضلية على نظرائهم من طلاب مدرسة ريفرديل في هذا الجانب، فقد قال لي: "إن التحديات اليومية التي يمر بها أطفالنا من أجل التعليم تختلف اختلافاً كبيراً للغاية عن التحديات اليومية التي يمر بها الأطفال الذين يذهبون إلى مدرسة ريفرديل، ونتيجة ذلك فإن طلابنا أكثر مثابرة من طلاب مدرسة ريفرديل، وذلك في العديد من الجوانب".

وكما لاحظت "كارين فيرست"، فإن معظم طلاب مدرسة ريفرديل يمكنهم أن يبصروا مساراً واضحاً أمامهم نحو نوع معين من النجاح، فهم سירתادون الكليات، وسيخرجون فيها، وسيحصلون على وظائف ذات مرتبات كبيرة - وإذا ما تعثروا خلال مسيرتهم، فإن أسرهم ستنتشلهم من عثراتهم بكل تأكيد، وذلك في فترة العشرينيات أو الثلاثينيات من عمرهم إذا لزم الأمر، ولكن على الرغم من هذه المزايا التي يتمتع بها طلاب مدرسة ريفرديل، فإن "راندولف" ليس مقتنعاً بأن التعليم الذي يتلقونه حالياً في المدرسة، أو الدعم الذي يتلقونه في المنزل، سيمدهم بالمهارات اللازمة لخوض طريقهم نحو نجاح أكثر عمقاً، وهو ذلك النجاح الذي اعتبره "سيليجمان" و"بيترسون" بمنزلة المحصلة النهائية للشخصية الجيدة، وهذا النجاح يتمثل في الحياة المثمرة والهادفة والسعيدة، ولا شك في أن "راندولف" يريد لطلابه النجاح - ولكنه يرى أنهم بحاجة إلى أن يتعلموا كيف يخفقون أولاً؛ كي يتسنى لهم أن يصلوا إلى ذلك النجاح.

13. التهذيب والقواعد السلوكية

في الساعة السادسة من مساء يوم الأربعاء من شهر أكتوبر كان "توم برونزيل" واقعاً في مقدمة قاعة اجتماعات كبيرة يوزع التقارير المدرسية الخاصة بالشخصية على عدد من آباء طلاب أكاديمية برنامج المعرفة قوة، وكان يقول: "لقد كنا نقول دائماً في أكاديمية

برنامج المعرفة قوة إن تدريس الشخصية لا يقل أهمية عن المواد الدراسية، إننا نعتقد أنه لو كان أطفالكم يمتلكون المهارات التي يحتاجون إليها كذلك - ونحن نبذل كل ما في وسعنا للحرص على ذلك - فإنهم لن يحققوا الكثير من الإنجازات إذا وصلوا إلى سن النضج دون أن تكون لديهم مهارات الشخصية القوية؛ لأننا نعلم أن الشخصية هي ما يُبقي الإنسان سعيدًا، وناجحًا، ومحققًا لغاياته".

كان "برونزيل" - الذي كان في أواسط الثلاثينيات من العمر - عميدًا للطلاب في مدرسة إنفينيتي الإعدادية، التي كانت تطبق برنامج المعرفة قوة. وكانت هي المدرسة الثالثة التي تطبق برنامج المعرفة قوة في مدينة نيويورك عند افتتاحها عام 2005، في أحد طوابق مدرسة روبرتو كليمنت الإعدادية في الشارع الغربي رقم 133، قبالة إحدى محطات الحافلات الكبيرة في المدينة. وكان "برونزيل" صارمًا بصفته المسئول عن فرض النظام في مدرسة إنفينيتي، لكنه في تلك الليلة كان يبتسم كثيرًا، وكان يرتدي قميصًا ذا أزرار في ياقته، وربطة عنق وسروال جينز متجعّدًا، وكان متوترًا قليلًا عند استعراضه شرائح العرض التقديمي من خلال حاسوبه المحمول، الذي كان يعرضها عبر جهاز العرض الموجود خلفه، وأصبح "برونزيل" المسئول المباشر في برنامج المعرفة قوة عن التقرير المدرسي عن الشخصية، وكان يرأس الاجتماعات الشهرية لما أطلق عليه مجموعة عمل الشخصية لمدرسة ريفرديل وبرنامج المعرفة قوة، لقد كان اختياره هذه المهمة اختيارًا غريبًا من وجوه عدة - فقد أتى إلى برنامج المعرفة قوة بوصفه معارضًا ليقظة الضمير، إذ هو ناقد صريح لذلك النظام في التهذيب والتأديب.

ومنذ الأيام الأولى لأكاديمية برنامج المعرفة قوة كان مؤسسها - "ليفين" و"فاينبرج" - يحظيان بشهرة واسعة، وسمعة سيئة، بسبب تنظيم سلوكيات الطلاب بأساليب حادة ومباشرة، فكانا يحددان للطلاب كيف يفترض بهم أن يجلسوا، وأن يتحدثوا، وأن ينتبهوا، وأن يسيروا في أروقة المدرسة، ويقول "ديفيد وايتمان" في كتابه *Stuff Small the Sweating* إن المدارس "التحكمية" مثل مدارس أكاديمية برنامج المعرفة قوة "تخبر الطلاب بالسلوك المتوقع منهم تحديدًا 46، كما يخضع سلوكهم فيها للمراقبة الدقيقة، مع

تقديم الجوائز إلى من يلتزمون بالتعليمات، وفرض العقوبات على المخالفين". ويتكلم "جاي ماثيو" في كتابه عن تأسيس الأكاديمية، وعنوانه *Nice Hard. Be Work* واصفًا قسوة "ليفين" في أسلوبه 47، فيذكر إحدى المرات التي رأى فيها "ليفين" أحد الطلاب وهو يرمي بورقة، فما كان منه إلا أن أجلسه على كرسي أمام الفصل، ووضع أمامه سلة قمامة على الأرض، وأخبر الطلاب بأن بإمكانهم أن يلقوا بأي ورق يجدونه في تلك السلة - وقد ألقى معظم هذا الورق على الطالب، (ويقول "ماثيو" إن "ليفين" قد ندم على هذه الحادثة بعد ذلك).

عندما وصل "برونزيل" - في عام 2005 - إلى مدرسة إنفينيتي التي تطبق برنامج المعرفة قوة، كان على وشك التخرج في كلية بانك ستريت، وهي كلية متخصصة في التربية والتعليم، ومشهورة بميولها التقدمية. وكانت أطروحته - التي بحثها وألفها خلال عام ونصف العام منذ بدأ العمل في مدرسة إنفينيتي - تمثل انتقادًا مستفيضًا لنظام التربية والتهذيب المتبع في المدرسة، ويقول "برونزيل" في أطروحته "إن النظام المتبع في المدرسة المبني على الانصياع والطاعة كان يمثل تجسيدًا للاعتماد على الإجراءات العقابية؛ ما يلغي تمامًا قدرة الطالب على اتخاذ القرارات بنفسه" 48. وقد ذكر أن تدري سلوكيات الطلاب في برنامج المعرفة قوة المطبق في مدرسة إنفينيتي ناتج عن هذا الأمر - فليس هناك تفكير عميق من قبل الطلاب في العواقب الناجمة عن تصرفاتهم، فهم يسلكون السلوك الحسن عندما يكونون تحت أبصار مدرسيهم، أما إذا ما أعطاهم المدرس ظهره، فتراهم يقدمون على أكبر عدد ممكن من التصرفات السيئة التي يمكن أن ينجوا بها دون عقاب.

ومع أن "برونزيل" كان يشكك في بعض العناصر الأساسية لتقاليد برنامج المعرفة قوة، فقد تلقى استجابة مشجعة من "ليفين"، ومن "جوزيف نيجرون"، المدير الشاب لمدرسة إنفينيتي، التي حققت نتائج رائعة خلال عامها الأول، وفقًا لمعايير برنامج المعرفة قوة كذلك، وقد بدأت المدرسة بفصل للصف الخامس، ينتمي طلابه إلى سكان المشاريع الإسكانية، وحي ويست هارلم، وحي واشنطن هايتس، وقد تم اختيارهم عشوائيًا. وكان

هناك 24 % فقط 49 من بين هؤلاء الطلاب هم من اجتازوا اختبار اللغة الإنجليزية للصف الرابع في المدارس العامة التي كانوا يرتادونها سابقًا، وكان هناك 35 % فقط ممن تفوقوا في مادة الرياضيات في الصف الرابع. ولكن بعد عام على دراستهم وفق برنامج المعرفة قوة، اجتاز 81 % منهم اختبار اللغة الإنجليزية للصف الخامس، بينما اجتاز 99 % منهم اختبار مادة الرياضيات للصف الخامس، وقد قال لي "نيجرون" إنه يتفق مع "برونزيل" في أن النظام المتبع في مدرسة إنفينيتي لم يكن سليمًا في السنة الأولى، وجاء على لسانه: "كان الأطفال يقومون بأمر سليم، لكن لم تكن لديهم المبررات للقيام بها، فنحن لم يكن لدينا ذلك الكم من مشكلات الطلاب، وكانت النتائج لدينا جيدة، ولقد كان هذا أمرًا رائعًا، لكننا لم نكن نشعر بأن الدور الذي تقوم به المدرسة يحقق لطلابها حياة سعيدة وحافلة بالإنجازات".

عندما قابلت "برونزيل" في خريف عام 2010 كان قد مر عليه أكثر من خمسة أعوام في مدرسة إنفينيتي التي تطبق برنامج المعرفة قوة، وكانت المدرسة قد شهدت تغيرات بمرور الوقت، وكان أحد أسبابها الانتقادات التي كان يوجهها إلى المدرسة. فكانت العقوبات أقل قسوة، وكان مفعولها قصير الأمد، وكانت الحوارات المتعلقة بالانضباط والنظام بين الطلاب والمديرين تتم على انفراد - وإن كانت لا تزال ذات طابع حاد - وكان هناك تأكيد أكبر على احترام الطلاب، وسماع آرائهم. وقد كان التقرير المدرسي عن الشخصية بالنسبة إلى "برونزيل" جزءًا أساسيًا من هذه الإصلاحات، فكان يقدم هيكلًا مختلفًا للحوارات المتعلقة بالسلوك، وقد أدى هذا الأسلوب الجديد في الحوار إلى تفكير أعمق ونضج أكبر.

وقد خفف "برونزيل" في الوقت نفسه من حدة انتقاده الأساسي، وقد أخبرني بأنه يقدر بعض عناصر نظام تعديل السلوك في برنامج المعرفة قوة، الذي كان يراه من قبل نظامًا شديد التسلط، على سبيل المثال: كان هناك نظام للعادات المتبعة في الفصل يتدرب عليه طلاب برنامج المعرفة قوة في بداية الصف الخامس، وهي السنة الأولى لهم في برنامج المعرفة قوة، ويمكن اختصار هذا البرنامج في خمسة تعليمات، وهي الانتصاب في الجلوس، والإنصات، وطرح الأسئلة، والإيماء بالإيجاب، وتتبع المتحدث بالعينين. وكان

"برونزيل" يرى أن هذا النظام مفيد في التناوب اللغوي، وهو القدرة على التعرف على الأوضاع الثقافية المختلفة، واتخاذ السلوك المناسب لكل منها، وهذه القدرة لها أهمية كبيرة في المدارس التي تطبق برنامج المعرفة قوة، وغيرها من المدارس الحضرية التي يرتادها الفقراء، ووفقًا لنظرية التناوب اللغوي فإنه لا توجد مشكلة في تصرفاتك العادية عندما تكون في الشارع، ولكن عندما تكون في أحد المتاحف، أو في مقابلة للالتحاق بإحدى الكليات، أو في مطعم فاخر، فأنت تحتاج في مثل هذه المواقف إلى أن تعرف كيف تتصرف تحديدًا، وإلا فإنك ستضيع على نفسك فرصًا مهمة، وقد قال لي "برونزيل": "إننا في برنامج المعرفة قوة ندرّس قواعد السلوك المهنية، وقواعده في الجامعة، وكذلك القواعد السلوكية السائدة ثقافيًا، ويجب علينا أن ندرس هذا الأمر في كل لحظة من اليوم".

وهذا هو الجانب الذي يتميز به معلمو برنامج المعرفة قوة، ومعلمو مدرسة ريفرديل، تميزًا شديدًا. وقد أخبرتني "كيه. سي. كوهين"، مستشارة التوجيه التربوي لمدرسة ريفرديل، بأنها رأت خلافًا متزايدًا بين المدرستين بشأن مؤشرات معينة موجودة في التقرير المدرسي الخاص بالشخصية، وذلك على مدار العام الدراسي. وقالت إن هذا لم يكن بسبب زيادة تقدير منها ومن المدرسين الآخرين في مدرسة ريفرديل نقاط قوة الشخصية مثل الانضباط الذاتي مقارنة بمدرسي برنامج المعرفة قوة، ولكن كان السبب هو أنهم بدأوا يدركون أنه من الممكن لهم أن يعرفوا هذه النقاط بطريقة مختلفة، واستطردت "كوهين" قائلة: "على سبيل المثال إذا كنت تبدي مظاهر الانضباط الذاتي في مدارس برنامج المعرفة قوة، فإنك تجلس منتصبًا، وتتابع المعلمين بعينيك، أما في مدرستنا فإنك قد تستبدل مقعدك، وتضع مكانه كرة لتجلس عليها دون أن يكثر أحد لذلك، فلا يهمننا حتى لو استلقيت على الأرض".

وعندما كنا نتحدث في مكتب "كوهين" أخذت تطالع قائمة المؤشرات الأربعة والعشرين الموجودة في التقرير المدرسي الذي وضعه برنامج المعرفة قوة عن الشخصية، وذكرت عددًا من المؤشرات الأخرى التي يمكن أن يكون لها أثر مختلف من مدرسة إلى أخرى،

وقالت "انظر مثلاً إلى هذه العبارة: 'الطالب يتعامل بأدب مع أقرانه، ومن يكبرونه سناً'.
(وهذه العبارة مؤشر للانضباط الذاتي)، هذا رائع، ولكن في مدرسة ريفرديل، يأتي إليّ
الأطفال ويربتون بأيديهم على ظهري، ويقولون: 'مرحباً يا كيه. إس.!' وهذا أمر لا بأس به.
ومع هذا ففي المدارس التي تطبق برنامج المعرفة قوة دائماً ما يدعى المعلمون بألقابهم
الوظيفية، وهذا الأمر يعد أمراً شكلياً في النهاية"، ونحن هنا بصدد الإرباك المتعلق
بالتناوب اللغوي، فالأطفال الذين يشكلون في الحقيقة جزءاً من الثقافة المهيمنة لا
يتصرفون بالضرورة في المدرسة وفقاً لهذه الثقافة - وقد يكون كلامي أكثر تحديداً لو
قلت إن التسكع وارتداء قميص غير مهندم، والمزاح مع المدرسين، سلوك يمثل الثقافة
المهيمنة في مدرسة ريفرديل.

واستطردت "كوهين" في قولها: "لدينا أطفال يمضغون العلكة باستمرار؛ لأن لديهم فرطاً
في النشاط، فهم يهدأون عندما يمضغون العلكة. وفي المدارس التي تطبق برنامج المعرفة
قوة لا يمكنك أن تسمح بهذا أبداً؛ لذا نحن نفترض هنا أن أطفالنا يمتلكون قيماً وأخلاقاً؛
ومن ثم لا بأس في أن يحصلوا على بعض المرح إذا ما احتاجوا إلى ذلك. أما في المدارس
التي تطبق برنامج المعرفة قوة فهذا مرفوض؛ لأن على الجميع الامتثال للضوابط، وهذا
الامتثال يُفترض به أن يساعدهم على النجاح".

إن مضغ العلكة يعتبر إحدى المخالفات في المدارس التي تطبق برنامج المعرفة قوة، وهذا
أمر حقيقي، ولكن هناك أمراً حقيقياً آخر، وهو أن بعض المدرسين - نتيجة الحوار المستمر
في برنامج المعرفة قوة عن تنمية الشخصية - قد وجدوا طريقة لتحويل النقاش عن
المخالفات، مثل مضغ العلكة، إلى شيء له معنى أكبر من مجرد الامتثال. وقبل يومين من
حديثي مع "كوهين" كنت قد تحدثت مع "سايبوري ستابروسكي"، وهي معلمة تدرّس
القراءة للصفيين السابع والثامن بمدرسة إنفينيتي التي تطبق برنامج المعرفة قوة، وتبلغ من
العمر ثلاثين عاماً. وقد ذكرت لي أنها أمسكت بإحدى الفتيات في فصلها في وقت مبكر من
ذلك اليوم، وكانت تمضغ العلكة، وقالت لي "ستابروسكي": "فأنكرت الفتاة، وقالت 'لا أنا لا
أمضغ العلكة، بل ألقب لساني'". وهنا أبدت "ستابروسكي" استياءها من تصرف الفتاة،

لكنها استطردت قائلة: "فقلت لها 'حسناً! لا بأس'. وبعد برهة من الوقت وفي الحصة نفسها رأيتها مرة أخرى وهي تمضغ العلكة، فقلت لها 'ها أنت تمضغين العلكة مجدداً! لقد رأيتك'، فقالت الفتاة: 'كلاً، انظري؟' وحركت الفتاة العلكة في فمها، ورآها جميع من في الفصل وهي تفعل ذلك، ولو حدث هذا قبل عدة سنوات لثارت ثائرتي، ولكنك سأصيح فيها، ولكن في هذه المرة قلت لها 'إنك لم تكتفي بمضغ العلكة - وهو أمر بسيط - ولكنك كذبت عليّ مرتين، وهذا شيء يبعث على خيبة الأمل. ما الذي يكشفه هذا الفعل عن شخصيتك؟' عندها شعرت الفتاة بالندم".

كانت "ستابروسكي" قلقة من أن تنتاب تلك الفتاة، التي كانت كثيراً ما تجد صعوبة في ضبط سلوكها، نوبة غضب قصيرة في منتصف الحصة، أو نوبة غضب طفولية، كما يطلق عليها في لغة جماعة برنامج المعرفة قوة، ولكن الحقيقة هي أن الفتاة لفظت العلكة من فمها، وجلست حتى انتهت الحصة، ثم جاءت إلى معلمتها تعتذر عن فعلها والدموع تنهمر من عينيها، وهنا قالت لي "ستابروسكي": "لقد دار بيني وبينها حوار طويل، وقالت: 'إنني أحاول بكل طاقتي أن أصبح فتاة ناضجة، ولكن لا شيء يتغير!'. فقلت لها: 'هل تعرفين ما الذي يتغير؟ إن ما تغير فيك هو أنك لم تصابي بنوبة غضب أمام غيرك من الأطفال، مثلما كان من الممكن أن يحدث لك منذ أسبوعين'".

بالنسبة إلى "توم برونزيل" لا يعد ذلك الموقف تدريباً لمادة دراسية، أو تهذيباً، بل إنه علاج. وبخاصة أنه يبدو علاجاً معرفياً سلوكياً، وهو أسلوب نفسي عملي يقدم تأييداً نظرياً لمجال علم النفس الإيجابي بأسره. ويشمل العلاج المعرفي السلوكي استخدام العقل الواعي لإدراك الأفكار السلبية أو الأفكار ذاتية التدمير، أو يستخدم التفسيرات ومناقشة النفس (بالمعنى الحرفي أحياناً) من أجل إقناعها بوجهة نظر أفضل.

وقد قال لي "برونزيل": "إن الأطفال الذين ينجحون في المدارس التي تطبق برنامج المعرفة قوة هم من يمكنهم أن يعالجوا أنفسهم بالعلاج المعرفي السلوكي على الفور"، وكان يرى أن هناك جزءاً من المهمة يقع على عاتقه، وجزءاً آخر يقع على عاتق معلمي

برنامج المعرفة قوة، الذين كانوا يمدون طلابهم بالأدوات التي تمكّنهم من ذلك. وقال لي: "إن الأطفال الذين هم في هذا العمر يتعرضون في كل يوم لأزمات داخلية بسيطة، وأعني بذلك أنهم الآن في مرحلة المدرسة الإعدادية، ويمرون بأسوأ السنوات في حياتهم. ولكن الأطفال الذين ينجحون في التغلب على هذه المرحلة هم من يمكنهم أن يقولوا لأنفسهم: "أنا أستطيع أن أتجاوز هذا الموقف البسيط، إنني بخير، وغداً يوم جديد".

14. العادات الجيدة

إن العلاج المعرفي السلوكي ليس سوى مثال لما يسميه علماء النفس، الإدراك الفائق، وهو مصطلح شامل يعني التفكير في حد ذاته بصفة عامة، وفهم التقرير المدرسي عن الشخصية يلزمك النظر إليه بوصفه إحدى الإستراتيجيات الكبرى للإدراك الفائق، ومن الأمور التي أثارت اهتمام "ديفيد ليفين" في البداية بشأن التفاؤل المكتسب هو إصرار "مارتن سيليجمان" على أن أفضل وقت لتحويل الأطفال المتشائمين إلى أطفال متفائلين هو الوقت الذي يسبق "مرحلة البلوغ، ولكن ينبغي أن يكون هذا الوقت في مرحلة متأخرة من الطفولة 50 حيث يكون الإدراك الفائق لدى الطفل قد تشكّل، (أي يكون قادراً على التفكير بشأن التفكير بوجه عام) - وبعبارة أخرى؛ ينبغي أن يتم ذلك عند وصول الطلاب إلى المدرسة الإعدادية في المدارس التي تطبق برنامج المعرفة قوة. وتشمل عمليات الإدراك الفائق: التحدث عن الشخصية، والتفكير في الشخصية وتقييم الشخصية.

ولكن "أنجيلا داكورث" تعتقد أن التحدث عن الشخصية والتفكير فيها ليس بالأمر الكافي، خاصة للمراهقين، فهناك فرق بين مجرد علمك أنك تحتاج إلى زيادة إصرارك، أو رفع همتك، أو التحكم في نفسك، وامتلاكك الأدوات التي تمكنك من ذلك، وهذا هو الجانب الآخر لتمييز "داكورث" بين التحفيز والإرادة أو قوة الإرادة. فكما أن الإرادة القوية لا تنفع الطالب وحدها إذا لم يكن متحفزاً للنجاح، فإن التحفيز وحده لا يكفي إذا لم تكن لديه إرادة قوية لمواصلة السعي نحو الأهداف، وتحاول "داكورث" الآن مساعدة الأطفال على اكتساب أدوات قوة الإرادة - وهو مشروع يمثل في جوانب عديدة منه امتداداً لعملها مع

"والتر ميشيل" عن دراسة الإستراتيجيات التي يستخدمها الأطفال لمقاومة إغراء تناول حلوى المارشملو - وفي أحد أيام الخريف ذهبت إلى ورشة للتنمية المهنية كانت تعقدتها لمعلمي مدرسة إنفينيتي التي تطبق برنامج المعرفة قوة؛ وذلك لتمدهم بالمعلومات الأساسية العملية والمحددة عن الأدوات الخاصة باستخدام إستراتيجية الإدراك الفائق، التي اختبرتها مع طلاب الصف الخامس في تلك المدرسة على مدار العام الدراسي.

وهذا التدخل العلاجي يطلق عليه: المقارنة الذهنية على أساس الافتراض بنية التنفيذ، وهو اسم غير جذاب، ويبدو صعبًا، وقد تم تطويره من قبل عالمة نفس في جامعة نيويورك، تدعى "جابريل أوتينجن"، بالتعاون مع عدد من زملائها. وقد اكتشفت "أوتينجن" من خلال بحثها أن الأفراد يستخدمون ثلاث إستراتيجيات عند وضع الأهداف، وأن اثنتين من هذه الإستراتيجيات الثلاث تبوء بالفشل، ويفضل المتفائلون الانغماس في المستقبل؛ ما يعني تخيل المستقبل الذي يرغبون في تحقيقه (بالنسبة إلى طالب المرحلة الإعدادية قد يكون هذا المستقبل متمثلًا في التفوق في الرياضيات والحصول على أعلى الدرجات في السنة التالية) ويتخيلون كل الأمور الجيدة التي ستترتب على ذلك كأنها حقيقية - فيتخيلون الثناء والرضا عن الذات والنجاح المستقبلي، كما اكتشفت أن المشاعر الناتجة عن ذلك تكون مشاعر جيدة - فيمكنها أن تزيد من إفراز هرمون الدوبامين - ولكن لا علاقة لها إطلاقًا بالنجاح الحقيقي.

أما الشخص المتشائم، فيستخدم إستراتيجية تسمى التفكير المستمر، وتشتمل على التفكير في كل ما يمكن أن يحول دون تحقيق أهدافه، فإذا كان هناك طالب في المرحلة الإعدادية يأمل أن يتفوق في الرياضيات، وكان من هذا النوع المتشائم، فإنه قد يفكر في الأشياء التي ستمنعه من إتمام واجبه المنزلي، وأنه لن يجد مكانًا هادئًا يمكنه من المذاكرة، كما أن هذا الطالب سيكون مشتتًا بصفة دائمة في الحصة، وليس من الغريب إذن أن تكون إستراتيجية التفكير هي الأخرى بعيدة عن تحقيق الإنجاز الحقيقي.

أما الطريقة الثالثة فهي المقارنة الذهنية وتضم عناصر من الطريقتين السابقتين، وتعني هذه الإستراتيجية التركيز على النتائج الإيجابية بالتزامن مع التركيز على العوائق التي تحول دون الوصول إليها، وجاء في ورقة بحثية كتبتها كل من "داكوورث" و"أوتينجن" مؤخراً أن القيام بهذين الأمرين في الوقت نفسه "يخلق ارتباطاً قوياً بين المستقبل والواقع، ما يبرز الحاجة إلى التغلب على العوائق من أجل تحقيق المستقبل المنشود" 51. ووفقاً لـ "أوتينجن" فإن الخطوة التالية للوصول إلى النجاح هي التحلي بـ "نية التنفيذ" - وهي عبارة عن خطط محددة في هيئة جمل شرطية تربط العوائق بالأساليب المتاحة للتغلب عليها، مثل "إذا سبب لي التلفاز تشتتاً عقب المدرسة، عندها سوف أؤجل مشاهدة التلفاز إلى ما بعد الانتهاء من واجبي المنزلي"، وقد أثبتت "أوتينجن" فاعلية المقارنة الذهنية لمفاهيم التنفيذ من خلال عدد من التجارب 52: فقد ساعدت هذه الإستراتيجية الأشخاص الذين يتبعون حمية غذائية في الإكثار من تناول الفواكه والخضراوات، وساعدت طلاب الصف الأول الثانوي على الاستعداد بشكل أفضل لاختبار القبول بالمدارس الثانوية، ومساعدة المرضى الذين يعانون آلام الظهر المزمنة على الإكثار من التنقل والحركة.

وتبين "داكوورث" هذا الأمر للمعلمين في ورشتها، فتقول: "إن مجرد تخيل أنك تقوم بواجب الرياضيات كل يوم في الفصل الدراسي المقبل يجعلك تشعر بشعور جيد حينها، ولكنك لا تقوم بشيء. إنني أرى في كثير من المدارس التي أذهب إليها لافتات مكتوباً عليها 'إذا حلمت بشيء فسيمكنك تحقيقه!'، ولكننا بحاجة إلى أن نبتعد عن التخيل الإيجابي الذي نحلم فيه بالثراء والشهرة، وأن نبدأ التفكير في العوائق التي تقف الآن في طريق الأهداف التي ننشدها".

إن منهج المقارنة الذهنية على أساس الافتراض بنية التنفيذ يهدف إلى إيجاد طريقة تضع بها قواعد لنفسك، ويذكر "ديفيد كيسلر" - وهو المدير السابق لإدارة الغذاء والدواء الأمريكية - في كتابه الذي صدر مؤخراً بعنوان *The End of Overeating* أن هناك سبباً عصبياً حيوياً لعمل القواعد، سواء أكنت تستخدم هذه القواعد لتجنب الأطعمة المقلية (كما

فعل "كيسلر" أم لكبح رغبتك في مشاهدة برنامج *Idol American* (كما هي الحال بالنسبة إلى طالب الرياضيات بمدرسة إنفينيتي الذي يتخيل تفوقه في هذه المادة في الفصل الدراسي التالي). وجاء في كتاب "كيسلر" أنك عندما تضع القواعد لنفسك، فإنك تستخدم القشرة أمام الجبهة باعتبارها شريكًا لك في مواجهة الأجزاء الأخرى من مخك، التي تدعوك إلى الاستجابة للرغبات والإغراءات. ويشير "كيسلر" إلى أن القواعد تختلف عن قوة الإرادة، فهي البديل عنها الذي يتعلق بالإدراك الفائق. فعندما تضع لنفسك قاعدة مثل ("لن أتناول حلوى الدامبلنج (الزلابية) المقلية أبدًا") يمكنك أن تتجنب الصراع الداخلي المؤلم بين رغبتك في تناول الأطعمة المقلية وتصميمك القوي على مقاومتها، ويستطرد "كيسلر" في حديثه عن القواعد فيقول: "إنها تمدنا بالنظام، وتعدنا لمواجهة المحفزات المغرية، وصرف انتباهنا عنها" 53. وسرعان ما يصبح اتباع القواعد تلقائيًا، مثل التعرض للإغراءات التي تحاول هذه القواعد إيقافها.

عندما نتحدث "داكورث" عن الشخصية كما فعلت في ذلك اليوم الذي كنت فيه في ورشة العمل التي أقامها برنامج المعرفة قوة، فإنها كثيرًا ما تستشهد بـ "ويليام جيمس"، الفيلسوف وعالم النفس الأمريكي، الذي جاء في كتاباته أن السمات التي نسميها فضائل ليست سوى عادات بسيطة؛ ليس أكثر أو أقل من ذلك. وتشرح "داكورث" هذا الأمر لمعلمي برنامج المعرفة قوة فتقول: "إن العادة والشخصية عبارة عن شيء واحد في جوهرهما، فليس هناك أطفال جيدون وأطفال سيئون، بل هناك أطفال لديهم عادات جيدة وأطفال لديهم عادات سيئة، وعندما نتحدث بهذه الطريقة يفهم الأطفال ما نعنيه؛ لأنهم يعرفون أن العادات قد يكون من الصعب تغييرها، ولكن ذلك التغيير ليس مستحيلًا. ويقول "ويليام جيمس" إن جهازنا العصبي يشبه الورقة، فأنت تطوي الورقة مرة بعد أخرى، وسرعان ما تأخذ تلك الورقة شكلًا متجمعًا. وأعتقد أن هذا هو ما تفعلونه في برنامج المعرفة قوة. فعندما يترك الطلاب المدارس التي تطبق برنامج المعرفة قوة، تكون لديهم رغبة في أن تتأكدوا من أن الأثر الذي أحدثه البرنامج في الطلاب سيستمر معهم ليقودهم إلى النجاح لاحقًا".

ووفقًا لـ "داكويرث" فإن أصحاب الضمير اليقظ لا يتعمدون أن تكون سلوكياتهم أخلاقية دائمًا. بل إن السلوكيات الأخلاقية هي مجرد استجابة تلقائية تهدف إلى القيام بشيء "جيد"، أي القيام بالخيار الأكثر قبولًا على المستوى الاجتماعي، أو الأكثر نفعًا على المدى الطويل. ففي جميع المواقف لا يكون السبيل الأكثر رشادًا هو الخيار الأكثر ذكاءً. وعلى سبيل المثال: نجد في اختبار سرعة تمييز الأرقام لـ "كارميت سيغال" أن الطلاب الذين حققوا أعلى الدرجات كانوا يعملون بجد على مهمة مملة دون أن تكون هناك مكافأة تعود عليهم، وهناك كلمتان تعبران عن هذا السلوك. أولاهما يقظة الضمير. والثانية هي الحمق. ولكن على المدى الطويل يكون من الأكثر نفعًا للمرء أن يكون اختياره التلقائي نابغًا من يقظة الضمير؛ لأنه عندما تكون هناك أهمية للسلوك الذي ستقدم عليه - عندما يكون عليك أن تستذكر من أجل الامتحان النهائي، أو الحضور في الموعد المحدد لمقابلة العمل، أو تحديد ما إن كنت ستستجيب لإغراء ما، أو تخذع شريكة حياتك - فإنك على الأرجح ستقدم على الاختيار السليم، ولن يكون عليك حينها أن تجهد نفسك في الوصول إلى ذلك الاختيار. فالإستراتيجيات التي تكون على شاكلة المقارنة الذهنية على أساس الافتراض بنية التنفيذ، أو تخيل إطار حول صورة المارشملو؛ ليست في النهاية إلا حيلًا تسهل علينا اتباع المسار الأخلاقي.

15. الهوية

عندما زرت مدرسة إنفينيتي التي تطبق برنامج المعرفة قوة في شتاء عام 2011، في منتصف العام الأول لتطبيق التقرير المدرسي للشخصية، كان الحديث عن الشخصية منتشرًا في أرجاء المدرسة، وكان الأطفال يرتدون قمصانًا ثقيلة عليها شعار "شخصية إنفينيتي"، وكانت نقاط قوة الشخصية جميعها مدونة على الجزء الخلفي من تلك القمصان. بل إن أحد القمصان التي تشجع على الانضباط الذاتي كان يشتمل على إيحاءة بالموافقة لـ "والتر ميشيل": وكانت تلك الإيحاءة مكونة من هذه العبارة: "لا تأكل المارشملو!" وكانت الجدران مغطاة بلافتات مكتوب عليها: **هل أنت منضبط ذاتيًا؟ وإنني**

أشارك بنشاط! (وهذا أحد مؤشرات المهمة). وكانت هناك لوحة في رواق المدرسة مكتوب في أعلاها الشخصية مهمة وكانت هناك كلمة مثبتة باللوحة وهي: أنت مراقب! وكانت هناك بطاقات يملؤها الطلاب متى لاحظوا سلوكًا يقوم به أحد زملائهم يدل على قوة الشخصية. وقد ذكرت "جاسمين آر" زميلها "ويليام إن" وهمته العالية، فقالت عنه: كان "ويليام" يرفع يده عند كل سؤال في حصة الرياضيات).

ورحت أسأل "ديفيد ليفين" عن مدى تشبع المدرسة بهذه الرسائل، ألم يكن يظن أن ما يحدث مغالى فيه؟ ولكنه قال لا، بل على العكس من ذلك. وقال: "إن هذا الأمر لن ينجح إلا إذا تخلل كل شيء في المدرسة، بداية باللغة التي تُستخدم في تحضير الدروس إلى طريقة تقديم المكافآت، وفهم اللافتات الموجودة على الحائط، فلن يكون لهذا الأمر تأثير كبير ما لم يتغلغل إلى أدق شيء في المدرسة".

إن الرسائل التي توضع على الجدران ليست أمرًا جديدًا بالطبع على برنامج المعرفة قوة، فمنذ البداية كان "ليفين" و"فاينبرج" يستخدمان الملصقات، والشعارات، واللافتات والقمصان لخلق ثقافة مدرسية فاعلة في برنامج المعرفة قوة، ولغرس الشعور بالتميز والانتماء في نفوس الطلاب. وقد أخبرتني "داكويرث" بأنها تعتقد أن نهج برنامج المعرفة قوة في التعامل مع الهوية الجماعية يشكل جزءًا محوريًا في مدى فاعلية المدرسة، وقد قالت: "إن برنامج المعرفة قوة يجري تغييرًا للدور الاجتماعي بحيث يتحول الطفل فجأة إلى التفكير بعقلية مختلفة تمامًا، إنهم يركزون على العلاقات بين المجموعات؛ على سبيل المثال: 'نحن الطلاب في برنامج المعرفة قوة نعلم مظاهر الانضباط الذاتي، في حين أن الآخرين لا يعرفونها؛ لأنهم لا يدرسون في برنامج المعرفة قوة'.

لقد برهن علماء النفس على أن هوية المجموعة من الممكن أن يكون لها تأثير قوي في الإنجاز - وقد يكون هذا التأثير إيجابيًا أو سلبيًا. ففي مطلع التسعينيات، تعرف عالم النفس "كلود ستيل" - وهو الآن عميد كلية التربية في جامعة ستانفورد - على ظاهرة أطلق عليها اسم تهديد الصورة النمطية. وقد أظهر "ستيل" أن الشخص إذا ما وجهت إليه إشارة

نفسية بسيطة؛ لها علاقة بالمجموعة التي ينتمي إليها قبل أن يخضع لاختبارات قياس القدرة الذهنية، أو الجسدية، عندها يمكن أن يكون لذلك تأثير كبير في جودة أدائه في الاختبار، ومنذ ذلك الحين تمكّن الباحثون من إثبات هذا التأثير في عدد لا حصر له من المواقف المختلفة، فعندما أخبر الطلاب ذوو البشرة البيضاء الذين كانوا سيلعبون في ملعب جولف صغير به عشر حفر، بأن الغرض من اللعبة هو اختبار قدراتهم في الرياضة (وهي قدرة كانوا يعتقدون أنهم لا يمتلكونها) 54، إذ بهم يخفقون في أربع تسديدات مقارنة بمجموعة مشابهة من الطلاب ذوي البشرة البيضاء الذين قيل لهم إن الغرض من اللعبة هو اختبار قدرتهم على التفكير الإستراتيجي (وقد كانوا واثقين بأنهم يمتلكون هذا النوع من التفكير)، أما بالنسبة إلى الطلاب ذوي البشرة السمراء فقد حدث العكس: فقد أخفقوا في أربع تسديدات عندما علموا أن الهدف هو اختبار ذكائهم في التفكير الإستراتيجي، وتقول نظرية "ستيل" إن الشخص عندما يكون متخوفاً من تأكيد صورة نمطية معينة عن المجموعة التي ينتمي إليها، فإنه يصبح قلقاً مما يؤثر سلباً في أدائه - وفي هذه الحالة كانت الصورة النمطية عن الطلاب ذوي البشرة البيضاء هي أنهم ليسوا رياضيين، وكانت الصورة النمطية عن الطلاب ذوي البشرة السمراء هي أنهم أقل ذكاءً.

وقد اكتشف باحثون آخرون تهديد الصورة النمطية في مواقف أكثر خطورة كثيراً من ملعب الجولف الصغير. فعندما طلب من الأشخاص الذين كانوا في الستينيات والسبعينيات والثمانينيات من عمرهم بأن يقرأوا مقالاً عن ضعف الذاكرة مع التقدم في العمر 55، قبل خضوعهم لاختبار قياس قوة الذاكرة، كانت نتيجة الاختبار أنهم تذكروا 44 % من الكلمات الموجودة في الاختبار، في حين أن أفراداً من مجموعة مماثلة لم تطلب منهم قراءة ذلك المقال تمكنوا من تذكر 58 % من الكلمات الواردة في الاختبار، وفي أحد الاختبارات الصعبة في مادة الرياضيات لطالبات الكلية، كانت نتيجة الطالبات اللائي تلقين تعليقات قبل الاختبار تتعلق بكونهن من الإناث أسوأ من نتيجة الطالبات اللائي لم يتلقين أية إشارات متعلقة بهويتهن.

ولكن الأخبار السارة بخصوص تهديد الصورة النمطية هو أنه، وإن كان يثار بفعل الإشارات البسيطة، فإن علاجه بسيط ويسير. فبت رسالة محددة للغاية للطلاب المعرضين لتهديد الصورة النمطية يعد أحد أنجح الأساليب العلاجية التي تم اختبارها في مواقف متنوعة، وهذه الرسالة هي: إن الذكاء ليس ثابتًا بل هو سمة طيعة. وتبين تلك الدراسات والأبحاث أن الطلاب إذا تشبعوا بهذه الفكرة التي تبثها الرسالة، فإنهم يكتسبون الثقة، وغالبًا ما يؤدي ذلك أيضًا إلى ارتفاع مجموعهم التراكمي ودرجاتهم في الاختبارات.

والأمر الأكثر إثارة للاهتمام في هذه العلاجات الخاصة بتهديد الصورة النمطية هو أن التشكيك في مرونة سمة الذكاء يعد موضع جدال ساخن بين علماء النفس وعلماء الأعصاب⁵⁶. فعلى الرغم من أن درجات الاختبارات التحصيلية مثل اختبارات تقييم الكفاءة يمكن أن تتأثر بالتدريب بأنواعه المختلفة دون شك، فإن أنقى أنواع الذكاء لا تعد طيعة على الإطلاق. بيد أن هناك عالمة نفس في جامعة ستانفورد تدعى "كارول دويك" قد اكتشفت أمرًا مهمًا: وهو أن التحصيل الدراسي لدى الطلاب يكون أفضل إذا كانوا يؤمنون بأن سمة الذكاء طيعة، وذلك بغض النظر عن حقيقة هذا، وتقسم "دويك" الناس إلى نوعين⁵⁷: أصحاب العقلية الثابتة، وهم الذين يعتقدون أن الذكاء وغيره من المهارات أمور ثابتة وفطرية، وأولئك أصحاب عقلية النمو، الذين يعتقدون أنه من الممكن تحسين الذكاء وتعزيزه. وقد كشفت "دويك" عن أن عقليات الطلاب تدل على مساهمهم الأكاديمي⁵⁸: فمن يؤمنون بقدرة الفرد على تحسين ذكائه، يحسنون درجاتهم بالفعل.

ولا شك في أن عقلية الفرد تعد شيئًا طيعًا، سواء أكانت سمة الذكاء كذلك أم لا، وقد كشفت "دويك" وغيرها عن أن الطلاب إذا تلقوا النوع المناسب من التدخل أو العلاج، يمكنهم أن يتحولوا من التحلي بعقلية ثابتة إلى التحلي بعقلية النمو⁵⁹؛ ما يرفع من إنجازاتهم على المستوى الأكاديمي نتيجة ذلك، وقد أجرى "جوشوا أرونسون" - الذي كان كثير التعاون مع "كلود ستيل" - مع اثنين من زملائه، دراسة للمقارنة بين تأثيرات العلاجات المختلفة التي تهدف إلى تغيير عقلية الفرد، وأجريت الدراسة على مجموعة من طلاب الصف السابع بمدينة تكساس، معظمهم ينتمون إلى أسر متدنية الدخل، وعلى مدار

العام الدراسي، كان كل طالب يعمل مع مرشد، وكان المرشد طالبًا جامعيًا يلتقي الطالب أو الطالبة مرتين، وتكون مدة كل جلسة تسعين دقيقة، وبعد ذلك يتواصل معه بانتظام من خلال البريد الإلكتروني، وكان بعض الطلاب يتم اختيارهم عشوائيًا لسماع رسالة من مرشديهم تنم عن عقلية النمو 28.3 مثل: "إن الذكاء ليس هبة ثابتة ومحدودة، بل هو قدرة يمكن تنميتها وزيادتها من خلال العمل الذهني"، وفي المجموعة الضابطة سمع الطلاب رسالة أكثر معيارية عن تأثير المخدرات في التحصيل الدراسي.

وفي نهاية العام، قام "أرونسون" وزملاؤه بمقارنة درجات كلتا المجموعتين في اختبار معياري لقياس مستوى التحصيل في ولاية تكساس - وهو معروف باسم اختبار تكساس للمهارات الأكاديمية - فكان أداء الطلاب الذين سمعوا رسالة تشجيعية للتحلي بعقلية النمو أفضل كثيرًا من الطلاب الذين سمعوا رسالة تحذر من تعاطي المخدرات، وكان التأثير الأكثر إثارة للإعجاب يتمثل في درجات الطالبات في مادة الرياضيات، فقد ثبت تمامًا تأثير تهديد الصورة النمطية في درجات مادة الرياضيات لدى الفتيات والسيدات ممن بدا عليهن القلق في الاختبار، حيث كن يعتقدن أنهن قد يؤكدن الصورة النمطية عن ضعف الفتيات في مادة الرياضيات. ففي تلك التجربة، كان متوسط درجات الفتيات اللائي سمعن رسالة تحذر من المخدرات يصل إلى 74 درجة في الاختبار، وهذا أقل من درجات الذكور الذين سمعوا الرسالة نفسها بثمانين درجة، وكان متوسط درجات الفتيات اللائي سمعن رسالة تشجع على التحلي بعقلية النمو يصل إلى 84، ولم يكن هناك فارق بينهن وبين أقرانهن من الذكور الذين سمعوا الرسالة نفسها.

16. التقارير المدرسية

وفكرة "دويك" عن أن أداء الطلاب يكون أفضل عندما يعتقدون أنه من الممكن تعزيز سمة الذكاء تنطبق أيضًا على مفهوم الشخصية، وهذه الفكرة على الأقل هي التي يقوم عليها التقرير المدرسي عن الشخصية - وهذه التقارير لا تقدم مفهوم الشخصية إلى الطلاب بوصفه مجموعة من السمات الثابتة، بل سلسلة من الصفات التي تنمو بشكل مستمر ما

سيحفزهم على تحسين تلك السمات، وفي صباح أحد الأيام عندما كنت في مدرسة إنفينيتي التي تطبق برنامج المعرفة قوة كنت قد تحدثت عن هذه الفكرة مع "مايك ويتير" - مدرس اللغة الإنجليزية للصف الثامن، الذي يبلغ من العمر واحدًا وثلاثين عامًا - الذي كان يؤمن إيمانًا كبيرًا بعقلية النمو. وقال لي: "إذا كنت تريد أن تصبح معلمًا جيدًا، فعليك أن تؤمن بأن الذكاء ليس ثابتًا، وأن الشخصية كذلك أيضًا. وإذا علّمت الأطفال أن يولوا انتباهًا للشخصية، عندها ستتغير شخصياتهم".

ولعل "ويتير" كان يبذل جهدًا منسقًا أكثر من غيره من المدرسين لجعل طلابه يهتمون بالشخصية، وقد زرت فصل "ويتير" في أحد أيام هذا الشتاء لكي أراقب شيئًا كان "ديفيد ليفين" يسميه التعليم مزدوج الغرض، حيث يعتمد المدرسون التحدث بوضوح عن نقاط قوة الشخصية في كل حصة. وأراد "ليفين" من مدرسي مادة الرياضيات أن يستخدموا نقاط قوة الشخصية في المسائل اللفظية، وبَيَّن أن مدرسي التاريخ يمكنهم استخدامها في الحصص التي تتحدث عن "هاريت توبمان"، وشبكة السكك الحديدية التي كانت تُبنى تحت الأرض، وعندما وصلت إلى فصل "ويتير" كان يقود نقاشًا عن رواية بعنوان *Apart Fall Things* لـ "تشرينوا أتشيبى"، وكانت نقاط قوة الشخصية السبع معلقة في مقدمة الفصل فوق المكان الذي يقف فيه "ويتير"، بداية بالتفاؤل ونهاية بالذكاء الاجتماعي، وكانت حروف الكلمات ملونة باللون الأبيض، وطولها عشرة سنتيمترات، ومرسومة على خلفية زرقاء. وطلب "ويتير" من طلابه أن يصنفوا "أوكونكو" - بطل الرواية - بحسب نقاط قوة الشخصية الموجودة لديه. وكان هناك نقاش طويل، لكن في النهاية اتفق الطلاب على أن "أوكونكو" كان أكثر إصرارًا وأقل انضباطًا ذاتيًا، وهنا رفع طالب، يدعى "يانزي"، يده وطرح سؤالًا: "هل يمكن أن يكون لسمة من السمات الشخصية أثر عكسي في الفرد؟".

فقال "ويتير": "بالتأكيد، يمكن لإحدى السمات أن تكون ذات أثر عكسي، فالإصرار المبالغ فيه - كما فعل 'أوكونكو' - يجعلك غير قادر على التعاطف مع الآخرين، فإذا كان إصرارك من الشدة إلى الدرجة التي تجعلك تجهل سبب شكوى الآخرين من صعوبة بعض الأمور لمجرد أنك لا تجد فيها صعوبة، عندها سيكون من الصعب عليك أن تتعاطف مع من حولك،

بل إن الحب كذلك قد ينطبق عليه الأمر نفسه - فالحب الشديد قد يجعلك شخصًا سهل التلاعب به". وهنا انطلق الطلاب في موجات من الضحك، وواصل "ويتير" حديثه، فقال: "الجواب عن سؤالك هو نعم، الشخصية أمر عليك أن تتعامل معه بحرص، إذ يمكن لنقاط قوة الشخصية أن تتحول إلى نقاط ضعف".

وحين تحدثت إلى "ويتير" بعد الحصة، أخبرني بأن بعض المدرسين في مدرسة إنفينيتي التي تطبق برنامج المعرفة قوة لا يزالون غير مقتنعين بالفرضية الأساسية التي يقوم عليها التقرير المدرسي: وهو أن الشخصية يمكن تغييرها، وقال: "إن ارتياح المدرسين إلى الفكرة جزء من هذه العملية، فلكي تقتنع بفكرة التقرير المدرسي عن الشخصية لا بد من أن تؤمن أولاً بأن الشخصية شيء طبع، وأنا لا أرى حتى الآن أن جميع المدرسين يؤمنون بهذا. أعني؛ كم مرة وجدت أحد البالغين يقول 'هذا أنا! هذه هي صفاتي، حاول أن تعتاد الأمر!؟'. وإذا كنت لا تؤمن بأن طواعية الشخصية تنطبق عليك، فكيف يمكن لك أن تؤمن بأنها تنطبق على الأطفال؟".

لقد رأيت "ويتير" مرة أخرى في ليلة توزيع التقارير المدرسية في مدرسة إنفينيتي التي تطبق برنامج المعرفة قوة - وكان ذلك يوم الثلاثاء في بداية شهر فبراير، وكان الجو شديد البرودة. ودائمًا ما تكون الليلة التي يتم فيها توزيع تلك التقارير شديدة الأهمية في المدارس التي تطبق برنامج المعرفة قوة - حيث يتم التشديد على أولياء الأمور للحضور، وكان جميعهم تقريبًا يلتزمون بالحضور - ولكن في تلك الليلة تحديدًا كان هناك قدر إضافي من القلق بالنسبة إلى المديرين وأولياء الأمور؛ لأن الطلاب كانوا سيتلقون أول تقرير مدرسي عن الشخصية، ولم يكن أحد يعرف كيف سيكون مضمونه.

على الصعيد المنطقي، كان التقرير المدرسي عن الشخصية يمثل تحديًا بالنسبة إلى "برونزيل" وزملائه. وكان يجب على المعلمين في ثلاث مدارس إعدادية من أصل أربع في مدينة نيويورك تطبيق برنامج المعرفة قوة أن يقيموا كل طالب في كل مؤشر من مؤشرات الشخصية البالغ عددها أربعة وعشرين، وكان كثير منهم يرى هذه العملية متعبة. والآن وقد

حلّت ليلة توزيع التقارير، كان أمامهم تحدٍّ أكثر صعوبة، فكان يتعين عليهم أن يشرحوا لأولياء الأمور كيف أن هذه الدرجات - مقربة إلى أقرب رقم عشري - تلخص شخصية كل طفل من أطفالهم، وجلست مع "ويتتر" على مقعد في الصالة المجاورة لغرفة الموسيقى، وكنت أستمع في أثناء حديثه عن التقرير المدرسي عن الشخصية مع "فيث فليميستر" - وهي سيدة أمريكية من أصول أفريقية كانت تضع أحمر شفاه لونه أحمر داكن، وكانت ترتدي قبعة مصنوعة من القماش، ولها ابن طويل وبدين يرتدي معطفًا رماديًا، ويدعى "واكين بينيه"، وكان يدرس في الصف الثامن.

وقال لها "ويتتر": "كنا نعمل خلال السنوات القليلة الماضية على مشروع يقدم إلى أولياء الأمور صورة أكثر وضوحًا عن شخصية أطفالهم، وقد انتهينا إلى مجموعة من الفئات التي تمثل سمات قد تمت دراستها بدورها، والتأكد من أنها تعد مؤشرات على النجاح. وهذه السمات تشير إلى زيادة احتمالية الالتحاق بالكلية، وإيجاد فرصة عمل، بل هناك أمور مفاجئة، مثل إمكانية التنبؤ باحتماليات الزواج، أو تكوين أسرة، ولهذا فنحن نرى أن هذه السمات شديدة الأهمية".

فأومأت "فليميستر" برأسها تعبيرًا عن موافقتها على ما قاله، وبدأ "ويتتر" يتحدث عن الدرجات الموجودة في تقرير الشخصية لابنها "واكين"، وبدأ بالجوانب الإيجابية، فقال: لقد أعطاه جميع المدرسين خمس درجات في الجانب الخاص بـ "التعامل مع الكبار والأقران بسلوك مهذب"، وكذلك في "التحكم في انفعاله"، وهذان مؤشران على تحكمه بنفسه عند تعامله مع الآخرين.

واستدار "ويتتر" نحو "واكين" وقال له: "يمكنني أن أقول إن هذه نقطة قوة حقيقية بالنسبة إليك، فقد تمكنت من التحلي بهذا النوع من الانضباط الذاتي بشكل جيد. ما يجعلني أعتقد أننا بحاجة إلى أن ننظر إلى.. ما الجانب التالي.. أول شيء علينا أن نتنقل إليه هو"، وهنا أخذ "ويتتر" قلم التأشير، ووضع دائرة على أحد المؤشرات الموجودة في تقرير "واكين"، وقال: "منتبه ويقاوم المشتتات"، قرأها "ويتتر" بصوت مرتفع؛ كان هذا

مؤشراً على الانضباط الذاتي في الجانب الأكاديمي. ثم استطرد: "ولكن درجتك في هذا المؤشر كانت أقل من غيره من المؤشرات، فما السبب في ذلك برأيك؟".

فأجاب "واكين" بخجل وهو ينظر إلى حذائه الأسود في الأسفل: "إنني أتحدث كثيراً في الفصل، وأحياناً ما أهدق إلى الفراغ ولا أكون منتبهاً".

وظل الثلاثة يتحدثون عن بعض الأساليب التي يمكن أن تساعد "واكين" على أن يركز في الفصل بصورة أكبر، ومع نهاية الحوار الذي استمر ربع ساعة بدا أن "فليميستر" قد اقتنعت بهذا النهج الجديد، وعندما نهض "ويتر" ليتحدث مع أسرة أخرى، قالت له: "ولكن النقاط الإيجابية ليست أمراً مفاجئاً، فهذه هي طبيعة 'واكين'، لكن الأمر الجيد هو أنك حددت ما يمكنه أن يفعله لكي يجعل الأمور أكثر سهولة عليه، ولربما يحصل على درجات أعلى في المرة التالية".

17. تسلق الجبل

إذا كان التقرير الأول عن شخصية كل طالب يمثل بداية للحوار بين الطالب والمعلمين والمديرين في برنامج المعرفة قوة عن شخصية الطالب، وعن كيفية تنميتها، فإن الجانب الآخر من هذه العملية من مسؤولية سيدة تدعى "جين مارتينز داولينج"، وهي تدير مكتب برنامج المعرفة قوة حتى مرحلة الكلية في نيويورك - وهو برنامج لدعم الخريجين يتبع برنامج المعرفة قوة - وهي تشرف على عشرين مستشاراً يعملون في مكتب مشترك في الطابق الثامن لإحدى البنايات الطويلة، التي يفصلها عن شارع وول ستريت مبنى واحد. وبرنامج المعرفة قوة حتى مرحلة الكلية هذا مسئول عن نحو سبعمائة خريج من خريجي برنامج المعرفة قوة - نصفهم لا يزال في المرحلة الثانوية، والنصف الآخر قد دخلوا الكليات مع تفاوت في مستوى نجاحهم.

والهدف الرسمي لبرنامج المعرفة قوة هو وصول نسبة 75% من طلاب المرحلة الإعدادية إلى الكلية، وحصولهم على شهادة التخرج من إحدى الكليات التي تمتد الدراسة فيها أربعة

أعوام خلال ست سنوات من تخرجهم في المدرسة الثانوية، وستكون لديك فكرة عن التحدي الذي تواجهه "داولينج" لو تذكرت أن معدل التخرج في الجامعة خلال ستة أعوام في فصل "تيريل فانس" لم يتجاوز 21 %، وعندما زرت مكتبها في أحد الأيام الباردة من شهر نوفمبر عام 2011، سلمتني جدولاً مفصلاً يوضح معلومات عن التحصيل الجامعي لكل دفعة من طلاب برنامج المعرفة قوة، وكانت الأرقام تتحرك في الاتجاه الصحيح بلا شك: حيث ارتفع معدل التخرج لفصل عام 2005 - وهو فصل "تيريل فانس" بعد ستة أعوام من إنهاء المرحلة الثانوية من 21 % من فصل عام 2003 - إلى 46 %، وفي ذلك اليوم كانت "داولينج" تركز على فصل عام 2007 - الذي كان على وشك أن يتم أربعة أعوام بعد المرحلة الثانوية، وهي المدة التي يمكن أن يكون الطلاب الأوائل قادرين فيها على الحصول على الشهادة الجامعية. ولكن لم يكن هناك سوى 26 % فقط من الطلاب كانوا على وشك التخرج في غضون هذه السنوات الأربع، وذلك وفقًا لجدول البيانات، ولكن كان هناك 18 % آخرون لا يزالون مقيدين في الكلية؛ ما يعني أنهم كانوا قادرين على التخرج في غضون خمسة أعوام أو ستة.

وقد أخبرتني "داولينج" بأن دفعة عام 2007 كانت لديها مواهب أكاديمية أكثر من الدفعات التي سبقتها، فقد توجه كثير منهم إلى المدارس الداخلية في المرحلة الثانوية، ومن بين الكليات التي ارتادوها كلية فاندربيلت وكلية كولومبيا، كما قالت: "لقد اكتشفنا أن الجانب المتعلق بالشخصية هو السبب في تدني مستوى بعض الطلاب، فهناك طلاب لديهم طاقات ذهنية عالية، ولكنهم لا يوجهونها بالضرورة في الاتجاه الصحيح. وهناك كثير من الأطفال يعانون مشكلات متعلقة بالتسويق مع أنهم قادرون على إنجاز واجباتهم. وهناك أيضًا طلاب يتعاملون مع مشكلات عاطفية واجتماعية كبيرة". وقد أخبرتني بأن سبعة من بين سبعة وخمسين طالبًا من الدفعة التي ستخرج في الجامعة كانوا يعانون خلال سنوات الجامعة اكتئابًا حادًا، وقالت: "إن هذا الأمر ملحوظ بصفة خاصة لدى طلاب هذا الفصل، فهم إما يواجهون مشكلات أسرية، وإما لديهم مشكلات في التعامل مع أقرانهم؛ ما أدى إلى تدني مستوياتهم". وقد شددت "داولينج" على أن معظم الأطفال الذين كانت

تحدث عنهم كانوا لا يزالون على مسارهم نحو التخرج، وتقول "داولينج": "لقد كانوا أطفالاً صالحين، ولكن تأثير الفقر يمتد إلى الأطفال الذين يتحلون بالمرونة كذلك".

وقد أعطتني كتاب قواعد يحتوي على بيانات متابعة الطلاب في الجامعة، مكوناً من ست وسبعين صفحة وعنوانه *Playbook Advisory College* حيث كان المشرفون يستخدمونه لمتابعة مستوى التقدم الذي يحرزه الطلاب، وهذه البيانات مفصلة للغاية، وتعكس ولع برنامج المعرفة قوة بالمعلومات الرسمية، ووفقاً للكتاب فإن كل مشرف من طلاب الجامعة يفترض به أن يتواصل مع كل طالب من الطلاب الموجودين على قائمته مرة واحدة على الأقل كل شهر. وهناك أربع نواحٍ تحدد تقييم التذبذب المستمر في مثابة كل طالب في الكلية، وهذه الجوانب هي: الاستعداد الأكاديمي، والاستقرار المالي، والحالة العاطفية الاجتماعية، والاستعداد غير المعرفي. وبعد كل مرة يتواصل فيها المشرف مع الطالب، فإنه يقيمه في كل جانب من هذه الجوانب بأحد الألوان الثلاثة التالية: الأحمر أو الأخضر أو الأصفر، وعلى سبيل المثال: إذا كان الطالب سيقوم بمهمة تتطلب عملاً يزيد على عشرين ساعة في الأسبوع، فنستخدم اللون الأصفر هنا للإشارة إلى الاستعداد الأكاديمي. وإذا كان لديه ملف حالة في مكتب الاستشارات التابع للكلية، عندها يوضع اللون الأحمر للدلالة على الحالة الانفعالية الاجتماعية. وإذا كانت "لديه صعوبة في تحمل المسؤولية وإتمام المهمات ذات الأهمية" فيوضع اللون الأحمر في فئة الاستعداد غير المعرفي، ويمكن لـ "داولينج" وهي في مكتبها أن تصل في أي وقت إلى قاعدة بيانات تظهر فيها نقطة باللون الأحمر المتوهج في كل جانب من جوانب المشكلات المحتملة التي يتعامل معها المشرفون مع جميع الطلاب.

إن قراءتي الكتاب الذي يحتوي البيانات وأنا أستقل مترو الأنفاق عائداً إلى المدينة قد ذكرتني بمدى تعقيد معايير النجاح وقواعده، فالكتاب مليء بالحقائق والأفكار - كالمواعيد النهائية لنماذج المساعدات المالية، وملحوظات عن اختيار التخصصات، ونصائح عن تحسين عادات المذاكرة، واقتراحات بشأن إقامة علاقات جيدة مع الزملاء والأساتذة - وهي معلومات كثيراً ما سمعها خريجو مدرسة ريفرديل من آبائهم، وأمهاتهم، وأصدقائهم،

وأشقاؤهم الأكبر سنًا منهم على مدار سنوات بالفعل، فكثيرًا ما كانوا منغمسين في هذه المفاهيم طوال حياتهم، ومع هذا فإن الأمر يبدو لخريجي أكاديمية برنامج المعرفة قوة غريبًا في أغلب الأحيان.

وإليك إحدى الطرق التي يمكن النظر إلى مفهوم الشخصية من خلالها: إنها قد تكون بديلاً لشبكة الأمان الاجتماعي التي يتمتع بها طلاب مدرسة ريفرديل - وهي تتمثل في الدعم الذي يتلقاه الطلاب من أسرهم، ومن المدرسة، والثقافة التي تحميهم من عواقب الانحرافات والأخطاء والقرارات السيئة التي تحدث من حين إلى آخر. ومن ثم فإذا كنت لا تمتلك هذا النوع من شبكة الأمان - ومعظم الأطفال الذين ينتمون إلى أسر متدنية الدخل كذلك - فأنت بحاجة إلى أن تعوض هذا الأمر بطريقة أخرى، ولكي تنجح فإنك بحاجة إلى مزيد من الإصرار والذكاء الاجتماعي والانضباط الذاتي مقارنة بالأطفال الأكثر ثراءً. وهذه نقطة قوة ستحتاج إلى بذل جهد كبير حتى تنميها، ولكن بالنسبة إلى طلاب أكاديمية برنامج المعرفة قوة الذين يتمكنون من اكتساب هذه المهارات، ويتمكنون من خوض الصعوبات وصولاً إلى التخرج في الجامعة، لا شك في أنهم عندما يصبحون أشخاصًا بالغين، سيكونون أفضل من نظرائهم في مدرسة ريفرديل، والأفضلية التي أتحدث عنها هنا لا تتمثل في الجوانب المالية، بل في جوانب الشخصية. وعندما يتخرج أحد طلاب برنامج المعرفة قوة في الكلية لن يكون قد حصل على شهادة جامعية فحسب، بل سيكون لديه ما هو أعظم قيمة من ذلك: وهو علمه بأنه قد تسلق جبلاً لكي يحصل على تلك الشهادة.

3. كيف تفكر؟

1. خطأ سيباستيان

كان "سيباستيان جارسيا" عاجزًا عن فهم الخطأ الذي ارتكبه، فقد كان متقدمًا في البداية على خصمه ببندق وفيل في لعبة الشطرنج؛ ما يعني أنه كان في موقف جيد، وكان يشعر بالقوة، ويتطلع إلى أن يحرز نصرًا في بداية بطولات الشطرنج الوطنية للمدارس الإعدادية، ولكنه في لحظة أخذ يواجه صعوبات شديدة، وأصبح في موقف ضعيف، وأخذ الملك لديه يتحرك على رقعة الشطرنج كأنه فأر قد سيطر عليه الذعر، ويحاول الهروب من مكيدة الخصم، وبعد حركات قليلة انهزم "سيباستيان" تمامًا، وصافح الصبي الذي هزمه في برود، وكان ذلك الصبي ذو الشعر الأصفر من إحدى ضواحي وسط أوهايو، وشق "سيباستيان" طريقه في غرفة مركز المؤتمرات الكبيرة التي يجلس فيها ألف لاعب، كل منهم منكفئ على رقعة الشطرنج، ثم انسل "سيباستيان" عائداً إلى الوحدة ب، وهي غرفة مؤتمرات ليست لها نوافذ في آخر القاعة التي كانت تعد منزلاً مؤقتًا لفريق لاعبي الشطرنج الذي ينتمي إليه. كان "سيباستيان" - ذو الجسم البدين، والملامح اللاتينية، والقامة القصيرة، والخدين المستديرين، والشعر الأسود الكثيف - في الصف السادس في مدرسة إنترميديات سكول 318 الإعدادية الكائنة في بروكلين. وقبل يومين كان قد سافر - بصحبة ستين زميلًا في الفريق نفسه، وعدد من المعلمين، وأولياء الأمور - إلى مدينة كولومبوس في ولاية أوهايو مدة إحدى عشرة ساعة بحافلة مستأجرة، من أجل مسابقة الشطرنج التي ستعقد عدة أيام، لكن العطلة الأسبوعية لم تبدأ بداية جيدة.

كانت عادة طلاب المدرسة إنترميديات 318 هي أنهم عقب كل مباراة - سواء أفاوزوا بها أم لم يفوزوا - أن يعودوا إلى حجرة الفريق للمراجعة والتدقيق مع "إليزابيث شبيجل" مدرّسة الشطرنج في المدرسة، ودخل "سيباستيان" غرفة الفريق متراخيًا حتى اقترب من

الطاولة الصغيرة التي كانت تجلس عندها "شبيجل" - ذات الجسم الطويل والنحيف - وأمامها رقعة شطرنج.

قال - مصرحًا: "لقد خسرت".

فقالت له: "حدثني إذن كيف كانت المباراة". كانت "شبيجل" في منتصف الثلاثينيات، وملابسها كانت سوداء، وهي ذات بشرة شاحبة، وقد ازدادت شحوبًا بفعل التفاوت بين صبغة الشعر شديدة اللمعان التي وضعتها، وبين لون بشرتها، وكانت تغير درجة لون صبغة شعرها من موسم إلى آخر، وفي هذه الجولة كانت قد اختارت الصبغة ذات اللون الأحمر الناصع المأخوذ من كعكة الريد فلفت المخملية. ارتمى "سيباستيان" على الكرسي المواجه لها، وسلمها دفتر ملاحظاته الخاص بالشطرنج، حيث كان قد رسم جميع الحركات التي قام بها هو ومنافسه البالغ عددها خمسًا وستين حركة.

شرح لها "سيباستيان" أن اللاعب الآخر كان أفضل منه ببساطة.

وقال لها بنبرة فيها شيء من الحزن: "كان يتمتع بمهارات جيدة؛ وإستراتيجياته كذلك".

ردت "شبيجل"، "دعنا نرَ كيف سار الأمر"، وأخذت القطع البيضاء، وبدأت تعيد ترتيب القطع على الرقعة، واختارت القطع البيضاء التي كان يلعب بها الخصم، بينما اختار "سيباستيان" القطع السوداء ولعب كل منهما بالطريقة نفسها التي دارت بها المباراة، وكان "سيباستيان" وخصمه قد بدأ اللعب بإخراج بيدقين، وسرعان ما حرك الأبيض حصانيه، وهي حركة تقليدية تعرف بدفاع كارو - كان، وهي حيلة درسها "سيباستيان" مرات عديدة في حصة الشطرنج في المدرسة في بروكلين. وبعدها حرك الخصم أحد الحصانين إلى الخلف وأعادته إلى أحد المربعات التي لم يكن من المتوقع أن يعيده إليها، وبذلك أصبح حصانه، كلاهما، يهاجمان بيدقًا أسود واحدًا. وهنا أصيب "سيباستيان" بالتوتر، فحرك بيدقًا آخر إلى الأمام في حركة دفاعية، بيد أنه سقط في الفخ، وهنا سرعان ما حرك

الخصم حصانه ليأكل البيدق الذي قام بالحركة الدفاعية، وبهذا كان "سيباستيان" قد خسر إحدى قطعه بعد أربع حركات فقط.

وهنا حدّقت "شبيجل" إلى "سيباستيان"، وطرحت عليه هذا السؤال: "ما المدة التي مكثتها قبل أن تُقدم على هذه الحركة؟"

قال: "ثانيتان".

وهنا بدا على وجهها الانزعاج والضييق، وقالت له بنبرة حادة: "نحن لم نحضرك إلى هنا كي تفكر ثانيتين فقط في حركاتك"، فأطرق "سيباستيان" بنظره إلى الأرض"، فنادتته قائلة: "سيباستيان!"، فرفع رأسه إليها، فقالت له: "هذا أمر مثير للشفقة. إذا واصلت اللعب بهذه الطريقة، فسوف أجعلك تنسحب من المسابقة، وعندها يمكنك أن تكتفي بالجلوس هنا، والنظر إلى الأرض لما تبقى من عطلة نهاية الأسبوع. كان يلزمك أن تأخذ وقتًا أكثر من هذا في التفكير"، وبعد أن خففت من حدة لهجتها معه، استطردت، "لا بأس بأن ترتكب الأخطاء، لكن المشكلة أن تُقدم على حركة دون تفكير، إنني غاية في الغضب بسبب إهمالك واستهانتك بالمباراة".

وسرعان ما انصرفت عنها عاصفة الغضب كما حلّت، وعادت "شبيجل" إلى تحريك القطع وتحليل طريقة لعب "سيباستيان"، وعندما تمكن من تجنب محاصرة أحد البيادق قالت له: "جيد"، ولما تمكن من إسقاط حصان الخصم، قالت له: "حركة ذكية للغاية"، واستمرا في اللعب على هذا المنوال، ومع كل خطوة كانت "شبيجل" تثني على "سيباستيان"، وأفكاره الرائعة، وكانت تطلب منه أن يبحث عن أفكار بديلة للأفكار التي لم تكن جيدة بما يكفي، وكانت تذكره مرة بعد أخرى بضرورة التمهّل وعدم الاستعجال، قائلة له: "لقد كان أداؤك ممتازًا في البداية، ولكن بمجرد أن أخذت تتعجل قمتَ بخطوة سخيفة للغاية. وإذا تمكنت من تجنب هذا الاستعجال فسوف يكون أداؤك رائعًا".

قابلت "شبيجل" للمرة الأولى في شتاء عام 2009 بعد أن قرأت في ديسمبر من العام نفسه مقالاً في جريدة نيويورك تايمز عن أداء فريقها في بطولة الشطرنج الوطنية لطلاب المدارس من مرحلة الحضانة، وحتى الصف الثالث الثانوي 1، وقد أشار المقال الذي كتبه "ديلان ماكليين" - وهو كاتب عمود الشطرنج في الجريدة - إلى أن مدرسة إنترميديات 318 كانت ضمن برنامج المستوى الأول لتلقي المساعدات المالية التي تقدمها وزارة التربية والتعليم الفيدرالية؛ ما يعني أن ما يزيد على 60% من طلاب المدرسة كانوا ينتمون إلى أسر منخفضة الدخل، ومع هذا فقد تمكن طلاب "شبيجل" من هزيمة الطلاب الذين ينتمون إلى أسر ثرية، ويدرسون في المدارس الخاصة، والمدارس الجاذبة. لقد أثار الأمر اهتمامي، لكن لكي أكون صريحاً، فإنني لا أخفي أنني كنت متشككاً بعض الشيء، فمنتجو أفلام هوليوود ومحررو المجلات يعشقون قصص الأطفال الذين يسكنون قلب المدن، ويهزمون طلاب المدارس الخاصة في مسابقات الشطرنج. ولكن في كثير من الأحيان عندما تنظر عن قرب إلى تلك الانتصارات، تجد أنها ليست مهمة كما كانت تبدو في بداية الأمر، ففي بعض الأحيان يتبين أن المباراة التي فاز فيها الفريق الذي ينتمي إلى أحد الأحياء الفقيرة ليست سوى مباراة صغيرة، أو أن الجولة التي كان الطلاب يقومون بها كانت مخصصة لذوي القدرات المنخفضة، أو ربما يتضح أن الأطفال الذين ينتمون إلى أسر منخفضة الدخل لا يصلحون مقياساً يقاس به غيرهم - فربما كانوا يرتادون مدارس انتقائية عبر امتحان قبول معين، أو ربما كانوا ممن هاجروا حديثاً من آسيا أو أوروبا الشرقية وليسوا من الأسر ذات الأصول الإفريقية أو الإسبانية التي لها تاريخ طويل في حياة الفقر والعوز، ومثال ذلك أجرت مجلة نيويورك عام 2005 دراسة عن فريق شطرنج من مدرسة موت هول، ويعرف باسم فرسان هارلم السود، "وهم مجموعة من الأطفال الطامحين من أحياء واشنطن هايتس، وإنوود، وهارلم، وتتراوح أعمارهم بين العاشرة والثانية عشرة"2. وكانوا يتنافسون في المسابقة الوطنية في مدينة ناشفيل، وقد احتلوا المركز الثاني في مجموعة الصف السادس، وكان هذا إنجازاً كبيراً - ولكنهم كانوا ينافسون في الفئة التي تقع تحت 1000 من حيث التقييم، ما يعني أنهم لم يلعبوا مع أحد ممن حصلوا على تقييم يزيد على 1000، وهذا تقييم منخفض إلى حد كبير، وهؤلاء الطلاب

جميعًا كانوا قد اجتازوا اختبارًا للقبول في مدرسة موت هال، ومن ثم كان مستواهم فوق المتوسط، وعلى الرغم من أن الفريق كان من حي هارلم، فإنه لم يكن به سوى لاعب واحد فقط ذي بشرة سوداء؛ فقد كان معظم اللاعبين الآخرين مهاجرين، ولدوا في كوسوفو، أو بولندا، أو المكسيك، أو الإكوادور، أو الصين.

وهكذا عندما ذهبت إلى مدرسة إنترميديات 318 في أحد صباحات شهر يناير، توقعت أن أرى بعض الإحصاءات التي يمكن قياسها، ولكن لم يتسنَّ لي أن أجد أيًا منها. لقد كان الفريق متنوعًا - فهناك عدد قليل من اللاعبين البيض والآسيويين - ولكن معظم اللاعبين كانوا من أصول أفريقية أو إسبانية، وكان أفضل اللاعبين هم الأمريكيين ذوي الأصول الإفريقية، وهناك - بحسب علمي - عدد قليل من الطلاب في الفريق الذين واجهوا عددًا كبيرًا من العقبات والصعوبات التي يواجهها الطالب المتوسط في مدرسة فينجر الثانوية في روزلاند، ولكن باستحقاق 87% من طلاب مدرسة إنترميديات 318 للمساعدات الفيدرالية، فإن المدرسة كانت بالفعل تستحق الدعم المالي، وكانت مدرسة إنترميديات في حي ساوث ويليامزبورج على مقربة من حدود حي بدفورد - ستوفييسانت - وكان أشهر خريجها مغني الراب "جاي زي" الذي تربى في أحد مشاريع مارسي للإسكان - وكان الفريق مشكلًا من الطلاب، وكانت معظم أسر هؤلاء الطلاب تنتمي إلى الطبقة العاملة الكادحة، ومعظم أولياء الأمور كانوا موظفين، ولكنهم لم يكونوا من حملة المؤهلات الجامعية.

وكنت على مدار العامين التاليين كثيرًا ما أعود إلى مدرسة إنترميديات سكول 318 - كنت أجلس في الفصول، وأرافق الفريق إلى المسابقات وأندية الشطرنج في أرجاء مدينة نيويورك، وأتابع ما يحرزه أفرادهم من تقدم عبر مدونة "شبيجل" - وطوال ذلك الوقت كنت أحاول أن أكتشف كيف وصلوا إلى النتيجة التي حققوها، والحقيقة الواضحة هي أن أطفال الأسر الغنية يفوزون في مباريات الشطرنج - أو - إذا أردنا أن نكون أكثر دقة - الطلاب الذين ينتمون إلى أسر غنية، ويمتلكون المهارات المعرفية، ويرتادون المدارس رفيعة المستوى عبر اختبارات القبول التنافسية. ولنلقِ نظرة على الفرق التي فازت 3 -

مرتبّة حسب الصفوف الدراسية - في المسابقة المدرسية في مدينة أورلاندو عام 2010 التي عقدت قبل أشهر قليلة من مسابقة كولومبوس التي شارك فيها "سيباستيان":

وبعبارة أخرى، قد كان الفريق الفائز في كل صف من هذه الصفوف - باستثناء القادمين من مدرسة سان بينيتو - من طلاب المدارس الخاصة، أو المدارس التي لا يتم الالتحاق بها إلا بناء على درجات اختبارات القبول، أو المدارس الدينية، أو المدارس الحكومية التي يرتادها أبناء المهندسين العاملين في شركة آبل.

وتستثنى من ذلك صفوف المدارس الإعدادية، حيث بدت قائمة الفائزين على هذا النحو:

ونجد أن الطلاب الفائزين من مدرسة إنترميديات سكول ليسوا من صف واحد فحسب، بل كان هناك فائزون من جميع الصفوف التي سُمح لها بدخول المسابقة، وقائمة المدارس التي خسرت أمامها في المسابقة هي قائمة بمدارس الأحلام للأسر الثرية والمكونة من أفضل المدارس الخاصة في البلاد: ومنها مدرسة ترينيتي، وكوليجيت، وسبنس، ودالتون، وهوراس مان في مدينة نيويورك، والمدارس الخاصة المتميزة في مدن بوسطن وميامي وجرينيتش وكونكتكت. ولم تكن مسابقة عام 2010 هي المسابقة الوحيدة التي تفوز فيها هذه المدارس بجميع الصفوف الدراسية، فقد فازت المدرسة بجميع صفوفها الدراسية عام 2008 أيضًا. (وقد فازت عام 2009 مجموعة الصف السادس والصف السابع، لكن مجموعة الصف الثامن خسرت الكأس بفارق نصف نقطة).

في النهاية ليس هناك سوى الحقيقة بشكلها البسيط، وهي غير مقيدة بشرط: فمن الواضح تمامًا أن برنامج تعليم الشطرنج المتبع في مدرسة إنترميديات سكول 318 هو الأفضل بين البرامج المتبعة في المدارس الإعدادية في الولايات المتحدة. بل يكاد يكون هو أفضل برنامج مدرسي لتعليم الشطرنج على مستوى البلاد ولجميع الصفوف الدراسية، وقد تنامت سمعة الفريق في السنوات الأخيرة، وبدأ يجذب لاعبين جيدين من المدارس الابتدائية في مختلف أنحاء المدينة، ما زاد من تميز الفريق. لكن أعضائه فازوا في تلك المسابقات بسبب ما كانت تقوم به "إليزابيث شبيجل" في الوحدة ب في شهر أبريل: حيث

أخذت أطفالاً تبلغ أعمارهم أحد عشر عامًا مثل "سيباستيان جارسيا" - لا يعرفون الكثير عن الشطرنج - وحولتهم إلى أبطال من خلال المثابرة.

حين وصل "سيباستيان" إلى الحركة رقم خمس وثلاثين، عندما كان يكرر اللعب مع "شبيجل" كان قد تعافى تمامًا من أخطائه الأولى، وتولى زمام المبادرة، فدفع بالوزير إلى أراضي العدو، وهدد الملك الأبيض للخصم. فقدم خصمه أحد البيادق ليواجه هجوم الوزير. وهنا قام "سيباستيان" بتقديم وزيره خطوتين إلى الأمام: وهدد ملك الخصم مرة أخرى. فتراجع الملك الأبيض خطوة نحو الخلف متفاديًا طريق الوزير.

وبدلاً من أن يواصل "سيباستيان" ضغطه على الملك الأبيض، أخذ يبحث عن الفوز السريع: فأكل أحد البيادق البيضاء باستخدام وزيره، ومرة أخرى يغفل عن خطر كبير: فقد استخدم الخصم الرخ على الجانب الآخر للقضاء على الفيل التابع لـ "سيباستيان" الذي بدأ تفوقه هكذا يتلاشى.

فسألته "شبيجل": "هل أخذت البيدق؟" "هيا، ما الخطوة الأفضل؟"

فلم يقل سيباستيان شيئاً.

فقالت له: "ماذا عن تهديد الملك؟"

وبدأ "سيباستيان" ينظر إلى رقعة الشطرنج.

قالت له "شبيجل": "فكر في الأمر، وتذكر أنه ينبغي لك ألا تجيب عن كل سؤال أوجهه إليك على الفور، لكن يجب أن تكون إجابتك عنه صحيحة".

وفجأة ارتسمت ابتسامة على وجه "سيباستيان"، وقال: "يمكنني أن أقضي على الوزير".

فقالت له "شبيجل": "أرني إذن"، وبدأ "سيباستيان" يقوم ببعض الحركات، وبدأ يظهر لها كيف أن القيام بالمزيد من وضعيات تهديد الملك لم يحافظ فقط على الفيل الأسود الخاص

به، بل جعل خصمه مضطرباً، ما سيجبر الخصم في المسابقة على الاختيار بين أمرين، إما فقدان الوزير، وإما خسارة المباراة.

وقالت له وهي تعيد القطع إلى مكانها عندما قرر "سيباستيان" أن يحقق النصر السريع: "هذه هي الفكرة، فُكِّر مرة أخرى، فُكِّر في تلك الخطوة التي أقدمت عليها" - حيث قامت بأكل البيدق الأبيض، كما فعل "سيباستيان" - "لو أنك قمت بهذه الحركة،" - وقامت بوضع الملك الأبيض في وضعية التهديد - "لفزت بالمباراة"، وأمالت ظهرها إلى الكرسي، وصوبت عينيهما إلى "سيباستيان"، قائلة له: "لا بأس إن كانت الخسارة تؤلمك بعض الشيء، فيفترض بك أن تشعر بشعور سيئ، إنك لاعب موهوب، لكن عليك أن تهدي من وتيرة خطواتك، وأن تكثر من التفكير؛ لأن أمامك" - ونظرت في ساعتها - "أربع ساعات قبل أن يحين موعد المباراة التالية، ما يعني أن لديك أربع ساعات من التفكير في أن هذا الطفل قد هزمك"، وأغلقت "شبيجل" رقعة الشطرنج فيما كانت تقول، "وذلك كله لأنك تعجلت في الوقت الذي كان عليك أن تتروى فيه".

2. الشطرنج ومعدل الذكاء

في الحادي عشر من مايو عام 1997، وفي مركز إكويتابل بوسط مانهاتن، هُزم "جاري كاسباروف" - الذي كان بطل العالم في الشطرنج منذ عام 1985 - على يد برنامج حاسوبي يدعى ديب بلو من تصميم مهندسي شركة آي. بي. إم، وذلك بعد تسع عشرة حركة في آخر جولة له في المباراة المكونة من ست جولات، كانت هذه هي الهزيمة الثانية له في المباراة - حيث فاز بجولة واحدة، وانتهت ثلاث جولات بالتعادل - ما يعني أنه خسر المباراة، والأهم من ذلك أنه خسر اللقب غير الرسمي باعتباره "أفضل لاعب شطرنج في العالم" 4، وهو ما جاء على لسان مراسل جريدة نيويورك تايمز في أثناء الحدث، كان هناك تركيز شديد في عالم الشطرنج وخارجه على هذه الهزيمة التي تلقاها "كاسباروف"، وانطلق نقاش محتدم عما يعنيه ذلك لبقية اللاعبين. (وكانت مجلة نيوزويك قد سردت قصة عن المباراة قبل انعقادها بأيام قليلة، وكان عنوان غلاف المجلة The Brain's Last 5

(Stand). وقد قال "كاسباروف" في أحد المؤتمرات الصحفية التي انعقدت بعد المباراة إنه كان يشعر بالخجل بسبب خسارته، وإنه قد انخدع بفعل القدرة الكبيرة لبرنامج ديب بلو، وقال نادمًا: "أنا مجرد بشر، ويصيبني الخوف عندما أرى شيئًا لا أستوعبه"6.

ولم يكن فوز برنامج ديب بلو يمثل في رأي الكثيرين تحديًا لتفوق الإنسان في الشطرنج فحسب، بل كان تهديدًا وجوديًا للذكاء البشري المتفرد، كان الأمر يبدو كأن مجموعة من الدلافين تمكنت من تأليف سيمفونية رائعة، لقد كانت القدرة على الفوز في لعبة الشطرنج تعتبر أبسط دليل على الذكاء: فكلما كنت أكثر ذكاءً كان بإمكانك أن تصبح أكثر تفوقًا في هذه اللعبة، والعكس صحيح. ويقترح "جوناثان ليفيت" المعلم البريطاني الكبير في كتابه *Genius in Chess* الصادر عام 1997، وجود علاقة رياضية بين نسبة الذكاء والبراعة في الشطرنج، وهذه العلاقة يطلق عليها معادلة "ليفيت"7:

$$\text{إلو} \sim (10 \times \text{نسبة الذكاء}) + 1000$$

ويوضح "ليفيت" هذه المعادلة، فيقول إن إلو تشير إلى أعلى ترتيب يمكن للاعب أن يحققه "وذلك بعد سنوات كثيرة من اللعب في المسابقات أو في الدراسة" (أما الخط المتعرج الذي يأتي بعد ترتيب اللاعب في المباراة، فيعني "يساوي تقريبًا"). ومن ثم إذا كان مستوى ذكائك العادي يساوي 100 فإن أعلى ترتيب يمكن أن تطمح إليه حسب معادلة "ليفيت" هو 2000، وإذا كان مستوى ذكائك 120، يمكن أن تصل إلى الترتيب 2200. إلخ، والأشخاص البارعون في لعبة الشطرنج عادة ما يكون ترتيبهم 2500، أو أعلى، ووفقًا لمعادلة "ليفيت" فإن هذا يعني أن كلاً منهم يمتلك نسبة ذكاء لا تقل عن 150، ومن ثم يمكن اعتبارهم في مستوى العباقرة.

بيد أنه لا يوجد إجماع على افتراض أن مهارة الشطرنج لها ارتباط وثيق ومباشر بمستوى الذكاء. ويطلق "جوناثان روسون" على معادلة "ليفيت" المعادلة "الخاطئة تمامًا"8 - و"جوناثان" شاب اسكتلندي من أساتذة لعبة الشطرنج الكبار، وقد ألف عنها عددًا من الكتب المثيرة، وهو يبرهن على أن أهم المواهب في الشطرنج لا علاقة لها بالجوانب

الفكرية على الإطلاق، بل هي مواهب نفسية وانفعالية، ويقول "روسون" في كتابه *The Seven Deadly Chess Sins*، "إن معظم الدراسات الأكاديمية الرئيسية عن الشطرنج تغفل الكثير من الأمور الجوهرية فيما يتعلق بتفكير لاعب الشطرنج وشعوره⁹، فهم يعتقدون خطأً أن الشطرنج يعتمد فقط على ممارسة المهارات المعرفية، حيث يتم فهم الحركات والأوضاع التي يتم اختيارها في اللعبة بناءً على أنماط واستنتاجات ذهنية"، ويقول إنك في الواقع إذا أردت أن تصبح لاعبًا عظيمًا في لعبة الشطرنج، أو إذا أردت أن تصبح لاعبًا جيدًا كذلك "فإن قدرتك على التعرف على انفعالاتك والاستفادة منها في كل حركة تقوم بها لا تقل أهمية عن طريقة تفكيرك"¹⁰.

كانت "شبيجل" كثيرًا ما تبث في طلابها نوعًا محددًا من أنواع المعرفة بلعبة الشطرنج في حصص الشطرنج في المدرسة، وفي جلسات استخلاص المعلومات مع الطلاب في مسابقات مثل البطولة الوطنية لطلاب المرحلة الإعدادية، وتتضمن هذه المعرفة: التركيز على الفرق بين الدفاع باستخدام أسلوب الافتتاح السلافي والافتتاح شبه السلافي؛ والموازنة بين القيمة النسبية للفيلين على المربعات ذات اللون الداكن والمربعات ذات اللون الفاتح، ولكن كان ما تقوم به حقيقة في معظم الوقت - وهو أمر كان يدهشني عندما أشاهدها وهي تقوم به في العمل - شيئًا أبسط كثيرًا، وفي الوقت نفسه كان معقدًا بصورة كبيرة: لقد كانت تعلم طلابها التفكير بطريقة جديدة، كانت طريقتها في التعليم وثيقة الارتباط بإستراتيجيات الإدراك الفائق التي درسها "سيلجمان"، وقامت "أنجيلا داكورث" بتدريسها، وأنا أرى على أية حال أن نظامها يبدو مرتبطًا بصورة وثيقة بالأبحاث التي أجراها علماء الأعصاب على الوظائف التنفيذية - وهي تلك القدرات الذهنية رفيعة المستوى التي يقارنها بعض العلماء بمركز مراقبة الملاحاة الجوية بالنسبة إلى المخ.

وهناك وظيفتان من أهم الوظائف التنفيذية، وهما المرونة المعرفية والانضباط الذاتي المعرفي، ويقصد بالمرونة المعرفية القدرة على رؤية الحلول البديلة للمشكلات والإتيان بأفكار غير تقليدية، والتغلب على المواقف غير المألوفة، أما الانضباط الذاتي المعرفي فهو القدرة على كبح إحدى الاستجابات الغريزية أو المعتادة، والقيام بدلًا منها باستجابة أقل

حدة وأكثر فاعلية. وتقع كلتا المهارتين في بؤرة التدريبات التي تقدمها "شبيجل" إلى طلابها. وتقول: إن التفوق في لعبة الشطرنج يتطلب منك قدرة كبيرة على رؤية الأفكار الجديدة والمختلفة: وأن تدرك الخطوة المبتكرة التي كان من الممكن أن تحقق لك الفوز لو لم تغفلها، وكذلك الأخطاء القاتلة التي يقع فيها خصمك دون أن تدركها وتستغلها، كما أنها تعلمهم مقاومة الإغراءات التي تدفعهم نحو الإقدام على خطوة ما؛ لأن مثل هذه الخطوات المغرية (بحسب ما اكتشفه "سيباستيان جارسيا") كثيرًا ما تقود إلى التعرض للخسارة، وقد قالت لي "شبيجل" عندما زرتها في فصلها في الصباح: "إن تعليم الشطرنج يتمثل في تعليم العادات التي تتوافق مع التفكير، مثل كيفية فهم الأخطاء وزيادة الوعي بعملية التفكير".

وكانت "شبيجل" تدرّس اللغة الإنجليزية للمتميزين في الصف الثامن قبل أن تتفرغ لتدريس لعبة الشطرنج في مدرسة إنترميديات سكول 318، وتصف تدريسها اللغة الإنجليزية بأنه كان كارثيًا نوعًا ما. فكانت تدرس الإنشاء بالطريقة التي حللت بها مباراة الشطرنج التي خسرها "سيباستيان": فعندما كانت تعطي واجبًا مدرسيًا في الكتابة، كانت تجلس بعد ذلك مع كل طالب، وتراجع معه كل جملة، وتسأله: هل أنت متأكد من أن الطريقة التي كتبت بها الجملة هي أفضل طريقة يمكنك أن تصوغ بها ما تريد قوله؟ وقالت لي: "عندما كنت أطرح على الطلاب هذا التساؤل، كانوا ينظرون إليّ كأنني مجنونة؛ لقد كنت أكتب لهم تلك الخطابات المطولة عن المواضيع التي كتبوا عنها، وكان من الممكن أن أقضي المساء كله في كتابة ستة خطابات منها أو سبعة فقط".

ومع أن الأسلوب الذي اتبعته "شبيجل" في تدريس اللغة الإنجليزية قد لا يكون مناسبًا لحصة اللغة الإنجليزية، لكن تجربتها في تدريس اللغة الإنجليزية قد ساعدتها على تحسين فهمها لما أرادت أن تقوم به في حصة الشطرنج؛ لذا فبدلاً من اتباع منهج للشطرنج على مدار العام، قررت أن تؤسس منهجًا خاصًا بها أينما ذهبت، فهي تحضر الدروس بناءً على ما يعرفه طلابها وما لا يعرفونه وهو الأهم. فهي على سبيل المثال كانت تأخذ طلابها في عطلة الأسبوع إلى مسابقات الشطرنج، وكانت تلاحظ أن الكثير منهم يتركون قطعهم دون

دفاع ما يجعلها أهدافاً سهلة للخصم، وفي اليوم التالي للعطلة كانت تجمع فصلها كله، وتعلمهم كيف يدافعون عن القطع الخاصة بهم، وكانت تعيد تمثيل المباريات التي هُزم فيها طلابها على لوحات التدريب الخضراء المعلقة في مقدمة الفصل، وكانت من حين إلى آخر تراجع المباريات التي خاضها طلابها مع بقية الفصل أو على انفراد، فتحلل الأخطاء التي وقع فيها اللاعب، والخطوات التي كان ينبغي القيام بها بطريقة مختلفة، وما كان يمكن أن يحدث لو قام اللاعب بحركة أفضل، ثم يتم تكرار هذه التصورات الافتراضية قبل العودة إلى لحظة وقوع الخطأ.

ومع أن هذه الطريقة قد تبدو معقولة، فإنها ليست طريقة عادية لتعليم الشطرنج أو لتعلمه. وقد قالت "شبيجل" لي: إن مثل هذا التركيز الشديد على شيء لا تجيده يعد أمراً مزعجاً، فالطريقة التي يستخدمها الناس عادة لدراسة الشطرنج تكون بقراءة كتاب عن الشطرنج، الأمر الذي قد يكون ممتعاً ومسلية للعقل في كثير من الأحيان، لكنه لا يتحول في الواقع إلى مهارة، فإذا كنت تريد فعلياً أن تحسّن مهارتك في لعبة الشطرنج فيلزمك أن تحلل المباريات التي تخوضها، وأن تكتشف أسباب وقوعك في الأخطاء".

وتقول "شبيجل": إن الأمر يشبه قليلاً ما يخرج به البعض من العلاج النفسي، فأنت تراجع أخطاءك - أو الأخطاء التي ما زلت تقوم بها - وتحاول أن تستوعب سبب ارتكابك إياها، وتحاول "شبيجل" - كما يفعل أفضل المعالجين - أن تقود طلابها في مسار صعب ووعر: كي تجعلهم يتولون مسؤولية أخطائهم، ويتعلمون منها دون أن تنتابهم الهواجس حيالها، أو يؤنبوا أنفسهم بسببها، وقد قالت لي: "إن مرور الأطفال بتجارب حياتية يتعرضون فيها للخسارة بعد أن كانوا متحكمين في ناصية الأمر يعد أمراً غاية في الندرة، ولكنهم عندما يخسرون في لعبة الشطرنج يعلمون أنه ليس هناك أحد يمكنهم أن يوجهوا إليه اللوم سوى أنفسهم، فقد كان لديهم كل ما يحتاجون إليه للنجاح، ومع هذا فقط خسروا. وإذا حدث لك هذا الأمر مرة، يمكنك أن تبحث عن عذر أو ألا تفكر في الأمر مرة أخرى، ولكن عندما تكون هذه الخسارة جزءاً من حياتك، وعندما تحدث لك في كل عطلة أسبوعية، عندها يجب

عليك أن تفصل نفسك عن أخطائك أو خسارتك، إنني أحاول أن أعلم طلابي أن الخسارة شيء تفعله، وليست صفة ملازمة لك".

3. هستيريا الشطرنج

من السهل بطبيعة الحال أن تخبر الأطفال بأن عليهم أن يتذكروا خسارتهم، وأن يحافظوا على ثقتهم بأنفسهم مهما كانت إخفاقاتهم، لكن الأمر يكون أكثر صعوبة عندما تكون في موقف الشخص الذي يتعرض للخسارة، وتعتبر "شبيجل" ذات مستوى متقدم في لعبة الشطرنج على الرغم من أن ترتيبها قد انخفض قليلاً خلال السنوات القليلة الماضية بعد أن أخذت تركز جزءاً أكبر من وقتها للتدريس، وإن كانت لا تزال ضمن قائمة لاعبات الشطرنج الأعلى ترتيباً على مستوى الدولة، التي يبلغ عدد أعضائها 30، لكنها تخسر كثيراً - كما هي الحال بالنسبة إلى كبار لاعبي الشطرنج - وعندما تخسر تدخل إلى مدونتها - وهي مصدر غير تقليدي للأخبار والآراء في عالم الشطرنج - وتنتقد نفسها أمام الجميع، فقد كتبت عام 2007 بعد خسارتها أمام إحدى اللاعبات المحترفات من روسيا: "إنني غبية ومتخلفة وعديمة التفكير، هل أنا عاجزة عن التعامل مع الحصار البسيط إلى هذه الدرجة؟ إنني أكره نفسي" 11.

وقد علمها أبوها الحركات الأساسية في الشطرنج عندما كانت في الرابعة من العمر، ولكنها لم تبدأ الدخول في المنافسات إلا بعد أن أصبحت في الصف السادس، وقامت بالتسجيل في برنامج للشطرنج بعد المدرسة في مدرستها الإعدادية في مدينة رالي عاصمة ولاية كارولينا الشمالية، وقد أحببت الأمر - فهي لم تحب الشطرنج فقط - الذي تفوقت فيه - بل أحببت أيضاً الشعور غير المألوف بالانتماء الذي وفرته لها اللعبة، لقد كانت حياتها الاجتماعية غير مستقرة، لكنها وجدت ذلك الاستقرار فجأة، وقد قالت لي: "إنني أتذكر شعوري بالارتياح والسعادة الشديدين، حيث كان الأطفال يعاملونني معاملة طيبة؛ لأنني كنت فتاة ماهرة، وكذلك كان البالغون يعاملونني كأنني صاحبة آراء حقيقية، فقد شعرت للمرة الأولى بأن حياتي كانت تتحول إلى الأفضل"، وسرعان ما تجاوز ترتيبها ترتيب

معلمها الذي كان يتولى أمر البرنامج التعليمي، وهنا أدركت - في حالة من الاندهاش - أنها ليست بحاجة إلى مساعدته كي تستمر في التحسن، وأنها يمكنها أن تعتمد على نفسها في تعلم الشطرنج، ورأت أنه إذا كان بمقدورها أن تعتمد على نفسها في تعلم الشطرنج، يمكنها أيضاً أن تتعلم الرياضيات، وأي شيء آخر. لقد قادتها قدرتها على إتقان المواد الجديدة بالاعتماد على نفسها - وهي مهارة تعلمتها بشكل كامل من لعبة الشطرنج - في السنوات التي تصفها بـ "المرحلة الثانوية المربعة في أمريكا" وكذلك في الكلية - في جامعة ديوك أولاً، ثم بعد ذلك في جامعة كولومبيا - حيث بدأت بالتخصص في الرياضيات، لكنها تحولت إلى تخصص الأدب الإنجليزي بعد عامين.

وبعد أن تخرجت "شبيجل"، أقامت في نيويورك، وعملت مدرسة للعبة الشطرنج في مؤسسة غير ربحية تدعى Chess-in-the-Schools، وقد ظلت هذه المؤسسة تنظم حصصاً لخبراء الشطرنج من أمثال "شبيجل" بحيث يقضون ساعات قليلة كل أسبوع في تدريس لعبة الشطرنج في المدارس الحكومية الموجودة في المدينة، ويرتادها أبناء الأسر منخفضة الدخل، وعلى مدار عدة سنوات تنقلت "شبيجل" بين أربع مدارس، حيث كانت تقضي يوماً هنا وآخر هناك، ولكنها كانت أكثر حباً لمدرسة إنترميديات سكول 318، وفي عام 2006، عينها مدير المدرسة مدرسة للعبة الشطرنج بدوام كامل، ومدربة لفريق الشطرنج بالمدرسة، وهو الفريق الذي يسافر للمشاركة في المسابقات.

وفي صيف عام 2005، وبعد عدة سنوات من لعب الشطرنج دون تحمس دخلت - وكانت تلك نزوة من نزواتها - مسابقة مفتوحة للمحترفين في مدينة فينيكس في ولاية أريزونا. وفوجئت بأدائها الرائع، حيث احتلت المرتبة الأولى على جميع الإناث في المسابقة، ما يعني أنها مؤهلة تلقائياً لدخول البطولة الوطنية للولايات المتحدة في فصل الربيع التالي، لقد كانت تعلم أنها في موقف يفوق طاقتها، كان هناك أربعة وستون رجلاً وامرأة مؤهلون للمسابقة، وهم أفضل لاعبي الشطرنج، أما هي فقد كانت من ذوي الترتيب الأدنى؛ لذا انكبّت على ممارسة اللعبة، وأخذت تدرسها مدة خمسة أيام في كل أسبوع، ومدة ثلاث ساعات أو أكثر في كل يوم، وكانت تسهر طوال الليل تلعب ساعات على موقع نادي

الشطرنج على الإنترنت، فتحسن مستواها إلى الحد الذي جعلها تبلي بلاءً حسناً في المسابقة - وإن لم تكن ضمن العشرة الأعلى ترتيباً، ولكن يحسب لها هذا الشرف. وبعدها ظلت تلعب بالحماسة نفسها، لقد استحوذت لعبة الشطرنج على حياتها كما كانت عليه الحال عندما كانت في المرحلة الإعدادية، وكانت تدرّس الشطرنج طوال اليوم، وتمارسه كل ليلة، وانقطعت علاقتها بأصدقائها الذين لا يمارسون لعبة الشطرنج، وبدأت تتخلى عن الروابط والالتزامات الأخرى، وقد كتبت في مدونتها تقول: "إن ممارسة لعبة الشطرنج تجعلني لا ألقى بالاً إلى أي شيء آخر، وأكاد أكون في حالة من التخدير في بقية الأوقات، وذلك مع بعض الاستثناءات"12.

وهكذا ازداد انعزالها عن كل ما ليس له صلة بعالم الشطرنج، فقد أصبح لديها ميل إلى الكآبة، وأصبح سلوكها غير طبيعي، وقد أدى تزايد عزلتها الاجتماعية إلى السماح لهذه السمات بالتنامي، وفي أحد الأيام أعلنت على مدونتها بشيء من الخجل أنها كانت في موعد عاطفي مع خطيبها يوم الجمعة المنصرم. وقالت: "وضع ذراعه حولي13، وعندها رحت أقول لنفسي: لقد مر وقت طويل منذ أن لمست أحداً من الناس، ومع هذا فأنا فخورة بنفسي؛ لأنني لم أعبر عن هذا المعنى في كلامي مع خطيبي على الرغم من أنني فكرت فيه وقتاً طويلاً. فقد أدركت على الفور أن قول ذلك ليس بالأمر المناسب في موعد عاطفي".

وفي إجازة رأس السنة عام 2009، أخذت خطوة مندفعة، حيث خرجت في رحلة إلى الكاريبي نظمتها مدرسة إنترميديات سكول 318 وكان معهم "جوناثان" مدرس الرسم في المدرسة، وهو رجل طويل، وذو هيئة جيدة، وملامحه تشبه سكان دول حوض البحر المتوسط، وكان شعره أسود طويلاً، وكانت "شبيجل" قد أعجبت به من بعيد في غرفة المدرسين، لكنها كانت ترى أنه غير مناسب لها، ولكن عندما عادا من رحلتها التي استمرت أسبوعاً في جزر الباهاما، كانا قد أعلنّا خطبتهما. وبعد أربعة أشهر انتقلا للعيش معاً، في خريف عام 2010 بعد إعلان زواجهما.

ولم يكن "جوناثان" يلعب الشطرنج مطلقاً، ومع تزايد الوقت الذي تقضيه معه "شبيجل" وجدت أن تحمسها للشطرنج بدأ يتبدد. وهي لم تتخلّ عن الشطرنج تمامًا - فقد ظلت تدرّسه في المدرسة طوال اليوم، وكانت تدرّب طلابها في أيام السبت في المسابقات المدرسية - لكنها أصبحت تقضي وقت فراغها الآن في أمور مثل ركوب الدراجات، وتناول الأطعمة الجيدة، واستكشاف الأحياء الجديدة، والتحدث عن المستقبل، وعدم ممارسة لعبة الشطرنج عبر الإنترنت. وأنا أرى - باعتباري لست من لاعبي الشطرنج - أن هذا بدا تطوراً إيجابياً، لقد كان من الواضح أن ممارسة "شبيجل" لعبة الشطرنج طوال الوقت لم تجعلها سعيدة، في حين أن الخروج مع "جوناثان" قد حقق لها تلك السعادة، ومع هذا ففي رأيها لم يكن تحليل المكسب والخسارة بسيطاً، وقد كان ترتيبها الرسمي في الشطرنج يصل إلى 2170، ولكن بعد أن أخذت تلتقي بـ "جوناثان" تهاوى ترتيبها حتى أصبح دون ذلك. لقد كانت تتحدث كثيراً عن رغبتها في أن تعود مرة أخرى إلى التعامل مع الشطرنج بجدية، وأن تكثر من لعب الشطرنج لكي تستعيد ترتيبها مرة أخرى، ولقد أخبرتني بأنها كانت تعرف أنها أكثر سعادة مما كانت عليه من قبل عندما كانت تلعب الشطرنج طوال الوقت، لكنها لا تزال تفتقد تلك الأيام السيئة التي استحوذت عليها فيها لعبة الشطرنج.

4. الفظاظة المحسوبة

كانت هناك عملية توازن معقدة في صميم عمل "شبيجل"، فقد أرادت أن تبني الثقة لدى طلابها، وأن تجعلهم يؤمنون بقدرتهم على التغلب على المنافسين الأقوى منهم، وإتقان لعبة معقدة للغاية. لكن مقتضيات وظيفتها - وسماتها الشخصية - كانت تعني قضاء معظم وقتها في إخبار الطلاب بالأخطاء التي وقعوا فيها، فهي تكرر القصة نفسها عند تحليل كل مباراة بعد انتهائها: كنت تعتقد أن هذه الفكرة جيدة ولكنك كنت مخطئاً.

وقد قالت لي في أحد الأيام عندما زرت فصلها: "إنني أعاني هذا الأمر طوال الوقت، وفي كل يوم، وهو من الأشياء التي تحتل المرتبة الأولى في قائمة الأشياء التي تقلقني بوصفي معلمة، إنني أشعر بأنني أعامل الأطفال بوضاعة وفظاظة شديدة، إنني أشعر بعذاب شديد

عندما أعود إلى المنزل، وأتذكر كل ما قلته لكل طفل، وأتساءل: 'ما الذي أقوم به؟ إنني أدمر هؤلاء الأطفال'.

وقد كتبت "شبيجل" على مدونتها عقب مسابقة عام 2010 الوطنية للفتيات (التي فازت فيها مدرسة إنترميديات سكول 318):

كان الأمر سيئًا للغاية في اليوم الأول، وفي نصف اليوم الثاني 14. لقد ثارت ثائرتي تمامًا، حيث كنت أراجع كل مباراة، وكنت غاية في الفظاظ، وقلت عبارات من قبيل: "هذا غير مقبول تمامًا!!!!". كنت أوجه هذه العبارات إلى طفلات في الحادية عشرة من العمر بسبب تعريض القطع للخطر، أو الإتيان بحركة غير مبررة. لقد قلت كلامًا فظًا لهن، ومن ذلك: "يمكنك أن تعدي إلى اثنين، أليس كذلك؟ إذن لا بد من أنك رأيت هذا!!" و"إن لم تولي الأمر مزيدًا من الانتباه، فعليك أن تعتزلي لعبة الشطرنج؛ لأنك تهدرين وقتنا جميعًا".

ومع نهاية الجولة الثالثة، بدأت أشعر بأني شخصية متعسفة، وكنت على وشك أن أستسلم للأمر، وأن أظهر لطفًا مصطنعًا. ولكن في الجولة الرابعة بدأن جميعًا يستغرقن وقتًا يزيد على ساعة، ويلعبن بشكل جيد. وأعتقد أن هذا هو سبب فوزنا بالبطولة الوطنية للفتيات بسهولة كل عام: فغالبيتهم المدرسين لن ينعنوا فتيات في سن المراهقة (بالألفاظ الصريحة) بالكسل، ويخبروهن بأن عملهن غير مقبول، ولكن في بعض الأحيان يحتاج الأطفال إلى ذلك، وإلا فلن يكون هناك سبب للتحسن.

وكثيرًا ما تحدث "شبيجل" الصورة النمطية لدي عن المعلم الجيد؛ بخاصة عن الطريقة التي يتعامل بها المعلم الذي تكون أصوله من الأسر منخفضة الدخل مع طلابه من المدن، إنني أعترف بأن نظرتي إلى معلم الشطرنج المثالي، الذي تكون أصوله من الأسر منخفضة الدخل قبل مقابلتي "شبيجل"، كانت أقرب ما تكون إلى الشخصية التي كان يؤديها "تيد دانسون" في فيلم *Knights of the South Bronx*، وهو فيلم ملهم عُرض عام 2005، وأنتجته شركة A&E حيث يقود "دانسون" مجموعة من الأطفال ذوي الخلفيات المتنوعة من المناطق الشعبية إلى الفوز على مجموعة من طلاب المدارس الخاصة، وخلال

مسيرتهم نحو الفوز كان يعانقهم، ويلقي عليهم الخطب التحفيزية، ويحدثهم عن الدروس الحياتية. ولكن "شبيجل" لم تكن مثل شخصية "دانسون". فهي لا تعانق طلابها، لا شك في أنها تركز نفسها لطلابها، وتهتم بهم اهتمامًا شديدًا، لكن عندما يغضب الطالب بعد تعرضه للخسارة نجدها لا تحاول تهدئته، وقد قالت "شبيجل": "إن 'جون جالفين' - نائب مدير مدرسة إنترميديات سكول 318 - الذي كان كثيرًا ما يحضر المسابقات بوصفه مدربًا مساعدًا لـ 'شبيجل' - كان أفضل في التعامل مع هذا الأمر، فقد كان لديه قدر أكبر من 'الذكاء العاطفي'".

وقد قالت لي "شبيجل" في إحدى المسابقات: "لا شك في أن هناك علاقة ودية للغاية تربطني بالأطفال، ولكنني أعتقد أن مهمتي، كوني معلمة، أن أكون أشبه بالمرأة، أي أن أتحدث عن الطريقة التي لعبوا بها على رقعة الشطرنج، ومساعدتهم على التفكير في ذلك. وهذا أمر مهم للأطفال، فهو يبذل الكثير من الجهد في شيء ما، وتقوم أنت بمراجعة ذلك الشيء دون أن تتعالى عليه، وهذا شيء يفتقده الأطفال في كثير من الأحيان، وأنا أرى بحكم خبرتي أنهم بحاجة إليه، ولكن الأمر هنا لا يتعلق بتدليلهم، فأنا لست الشخص الذي يقوم بذلك".

وقد أثبت الباحثون - بمن فيهم "مايكل ميني" و"كلانسي بلير" - أن الأطفال يحتاجون إلى مستوى عالٍ من الدفء والرعاية من قبل القائمين على تربيتهم؛ لكي يتحلوا بصفات مثل المثابرة والتركيز، ويشير نجاح "شبيجل" إلى أن أكثر ما يحفز الأطفال بشكل أكثر فاعلية عندما يقتربون من بدايات مرحلة البلوغ، هو نوع من الاهتمام مختلف تمامًا عن أسلوب الرعاية والتدليل، إن ما يدفع طلاب المرحلة الإعدادية نحو التركيز والتدريب الجنوني، مثل لاعبي الشطرنج الذين كانت "شبيجل" تعلمهم، هو تلك التجربة غير المتوقعة التي تتمثل في وجود شخص يأخذهم على محمل الجد، ويؤمن بقدراتهم، ويشجعهم على تحسين ذواتهم.

وخلال الشهور التي كنت أكثر نشاطًا فيها في كتابة التقارير عن مدرسة إنترميديات سكول 318، كنت أشاهد الفريق وهو يستعد لمسابقة مدينة كولومبوس، كما كنت أقضي كثيرًا من الوقت في مدرسة إنفينيتي التي تطبق برنامج المعرفة قوة، حيث كنت أتابع التقدم المحرز فيما يتعلق بالتقارير المدرسية عن الشخصية، وبينما كنت أتنقل عبر المترو ذهابًا وإيابًا بين ويست هارلم وساوث ويليامزبورج، كان لديّ الكثير من الوقت للمقارنة بين طرق "شبيجل" في تدريب طلابها على لعبة الشطرنج والطريقة التي يتحدث بها المعلمون والمديرون مع طلابهم، وذلك فيما يتعلق بالآزمات الانفعالية اليومية أو السلوكيات الخاطئة، ولعلك تتذكر أن "توم برونزيل"، عميد أكاديمية برنامج المعرفة قوة، قد قال إنه يعتبر منهجه نوعًا من العلاج المعرفي السلوكي، فعندما كان طلابه يواجهون مشكلة ما، أو يتخبطون وهم يمرون بلحظات التوتر والاضطراب الانفعالي، كان يشجعهم على التفكير في الصورة الكبيرة - أي الإدراك الفائق، كما يسميه كثير من علماء النفس - وهذا النوع من التفكير يحدث في القشرة أمام الجبهية: وفيه يتوقف الفرد مع نفسه، ويحلل دوافعه، ويفكر في حلول أكثر فائدة لمشكلاته بدلًا من الصياح في وجه معلمه، أو طرح أحد زملائه على أرضية فناء المدرسة، ولكن عندما ننظر إلى تحليل "شبيجل" مباريات الشطرنج، نجد أنها قد طورت ببساطة طريقة أخرى للقيام بذلك، لكن بأسلوب أكثر رسمية وجدية. فقد طُلب من طلاب مدرسة إنترميديات سكول 318 أن ينظروا بعمق إلى أخطائهم - كما حدث مع طلاب أكاديمية برنامج المعرفة قوة - وأن يبحثوا في سبب قيامهم بها، وأن يفكروا في الخطوات التي كان من الممكن أن يقوموا بها بطريقة مختلفة، وسواءً أطلقت على هذا المنهج العلاج المعرفي أم اكتفيت بأن تسميه تعليمًا جيدًا فحسب، فإنه قد بدا فعالًا على نحو ملحوظ في إحداث تغيير لدى طلاب المرحلة الإعدادية.

ومع هذا فإن ذلك الأسلوب يعد نادرًا تمامًا في المدارس الأمريكية المعاصرة، فإذا كنت تعتقد أن رسالة المدرسة التي تعمل بها، أو وظيفتك بوصفك معلمًا، تنحصر في نقل المعلومات، فربما لا تكون هناك ضرورة لإخضاع طلابك لهذا النوع من التحليل النفسي

الدقيق، أما إن كنت تحاول أن تغير شخصيتهم، عندها لا يمكن الاقتصار على نقل المعرفة، وفي حين أن "شبيجل" لم تستخدم كلمة الشخصية لوصف ما كانت تدرسه لطلابها، لكن كان هناك تداخل ملحوظ بين نقاط القوة التي أكدها كل من "ديفيد ليفين" و"دومينيك راندولف" والمهارات التي حاولت "شبيجل" أن تنميها في طلابها، وفي كل يوم كنت أرى "شبيجل" وهي تحاول في الفصول وفي المسابقات أن تعلم طلابها الإصرار والفضول والانضباط الذاتي والتفائل.

وقد رأيتها في عدد من المناسبات وهي تستخدم أساليبها التحليلية في تدريس الذكاء الاجتماعي. وفي أحد أيام شهر سبتمبر، ذهبت مع "شبيجل" وفريق مدرسة إنترميديات سكول 318 إلى مسابقة شطرنج كبيرة، أجريت خارج المدرسة في حديقة تدعى سنترال بارك، تديرها مؤسسة الشطرنج التي تحمل اسم Chess-in-the-Schools. كان اليوم حارًا، وبينما كنت أجلس مع "شبيجل" على الدرج الحجري المؤدي إلى نافورة بيبثيسدا، جاء أحد الطلاب - وكان يبدو عليه الغضب - وأراد أن يتحدث مع "شبيجل"، كان يدعى "أيه. جيه." وهو طالب في الصف السابع، ذو بشرة داكنة وشعر قصير، ونظارة سمكية وكبيرة من ماركة إلفيس كاستيلو، وكنت أعلم أنه يواجه صعوبات في المواقف الاجتماعية، وأنه كثيرًا ما يضل طريقه بين الأحداث التي تحدث له في المدرسة الإعدادية، فكان كثيرًا ما يسيء فهم الأمور التي تجري من حوله، وكانت قصته في ذلك اليوم مشوّشة: فقد كان هناك طالب آخر في مدرسة إنترميديات سكول 318 يدعى "رون"، وهو في السنة الأخيرة له في المدرسة، يهدد "أيه. جيه." بأنه سيصفعه على وجهه. وأراد "أيه. جيه." من "شبيجل" أن تصنع شيئًا حيال هذا.

فسألتها: "ولماذا يريد أن يصفعك؟"

بيّن لها - متعسرًا في كلامه - أنه أحضر كُرتَه إلى الحديقة، وأنه كان يلعب بها هو وبعض الصبية الآخرين بين المباريات، وشعر بشدة الحر، فذهب ليحضر مشروبًا، وقال إنه يريد

أن يأخذ الكرة معه، وعندما أخذ الكرة وتوجه إلى مكان شرب الماء خُيل إليه أنه سمع أحد الصبيان ينعته بصفة ذميمة، فاتهم "رون" بأنه من فعل ذلك، ولكن "رون" أنكر.

وقال "أيه. جيه." - وهو يشعر بالاضطهاد - "لقد قال لي، 'لا تتحدث إليّ بهذه الطريقة'." وقال لي: 'سأصفك على وجهك'، فقلت له: 'لِمَ لا تحاول ذلك؟' وعندها حاول أن يتقدم نحوي، وأن يصفعني على وجهي، ولكن دفعه عني زملائي". بعبارة أخرى، كان ذلك شجارًا تقليديًا بين هذين الصبيين بسبب حدة الطبع الناتجة عن بدايات مرحلة البلوغ: التي تتمثل في الاندفاع وتدافع الهرمونات والمثالية الشديدة والحمق، وبدلاً من أن تأخذ "شبيجل" جانب أحد الطرفين، أو أن تحاول تهدئته، بدأت تحلل الموقف كما تفعل في لعبة الشطرنج.

فحجبت الشمس عن عينيها بيدها، ونظرت إلى "أيه. جيه."، وقالت له "دعني أتأكد أنني أفهم الموقف بشكل جيد. 'هل حاول أن يضربك بعد أن أخبرته بأن يحاول أن يفعل ذلك؟'"

فقال: "نعم"، وكانت نبرته في الكلام مترددة.

"حسنًا، لو لم يكن 'رون' قد نعتك بتلك الصفة الذميمة، وبدأت تقول له مثل هذا الكلام، فإنه سيفض، ألا يدل هذا الأمر على شيء؟"

وهنا صمت "أيه. جيه."، وكان يبدو مثل "سيباستيان جارسيا" الذي كان يعاقب لخسارته الفيل في لعبة الشطرنج.

وواصلت "شبيجل" حديثها، فقالت: "سأسألك عن كرتك، يجب أن تفهم أن أخذك الكرة من زملائك وهم يلعبون بها لن يروقه، فهل كان هناك ضرر في أن تتركهم يلعبون بها؟"

فقال لها: "لا".

فقالت: "إن، عليك أن تفهم أن عدم ثقتك بهم ستجعلك تخسرهم".

وهنا بدا الإحباط على وجه "أيه. جيه."، وقال لها: "لا بأس"، ثم انصرف.

لقد رأيت حوارًا مشابهًا قبل ذلك بعدة شهور بين "أيه. جيه." و"شبيجل"، وكنت أجلس مع "شبيجل" في فصلها، وأتحدث معها عن الشطرنج. وجاء "أيه. جيه." يشكو: فقد سب والده أحد زملائه، فنعتته زميله بصفة ذميمة.

في البداية ظننت أن "أيه. جيه." كان يريد أن يستجير بها، أو أن يأخذ حقه من زميله؛ ومن ثم كان عليها أن تؤدب زميله. ولكن بعد أن رأيت الحوار الذي دار في الحديقة، عرفت أنه كان يأتي إليها للسبب نفسه الذي يجعله يأتي طلبًا للمساعدة بعد انتهاء اللعب عندما يخسر في الشطرنج، حيث يكون قد ضيع التقدم الذي أحرزه، أو أبقى قطعة الوزير غير محمية. لقد كان يريد أن يعرف كيف يمكنه أن يُقلع عن ارتكاب الأخطاء الغبية، فقد كان يريد النصيحة التي تجعله يتقن لعبة أخرى كانت تبدو له معقدة للغاية؛ وهي النجاح في المرحلة الإعدادية، واكتساب محبة زملائه إياه.

5. جاستوس وجيمس

عندما رأيت "شبيجل" في مدينة كولومبوس للمرة الأولى - في ظهيرة اليوم السابق ليوم افتتاح المسابقة - بدت عليها علامات السعادة والارتياح، وكانت ترتدي قميصًا رسميًا بلون أبيض، وبنطالًا مخططًا، وكانت تأكل اليوسفي، وتحتسي شاي الكرك، وتراجع مع طلابها المراجعة الأخيرة على ورقات عمل مخصصة للشطرنج مع بضع عشرات من طلابها الذين يملأون غرفتها في الفندق، الواقعة فوق مركز المؤتمرات. لكن بمجرد أن بدأت المسابقة بدأ هدوؤها يقل، وبدأت تسريحة شعرها تتغير إلى الأسوأ مع مرور أيام المسابقة، وأخذت عيناها تفقدان بريقهما، فقد كانت مسابقة المرحلة الإعدادية أهم مسابقة بالنسبة إليها في تلك السنة، وقد قالت لي حينها: "أشعر بأنها بمنزلة حكم على عملي، إن كل ما أقوم به على مدار العام يعتمد على مدى جودة أدائنا هنا"؛ ومن ثم فقد جلست في غرفة الوحدة ب طوال اليوم، حيث كانت تشرب القهوة، وتتناول الطعام الجاهز، وتستسلم للشعور بالقلق.

كانت فرق مدرسة إنترميديات سكول 318 تنافس في خمس مجموعات، وكانت "شبيجل" تأخذ اثنتين منها بشكل أكثر جدية من غيرهما، وهما مجموعة الصف الثامن المفتوحة، ومجموعة الصف التاسع المفتوحة. (والمجموعة المفتوحة هي التي لا يوجد بها حد أقصى لتصنيف اللاعبين) وتشمل مجموعة الصف التاسع الطلاب الذين لا يتجاوزون الصف التاسع، ولكن الكثير من المدربين كانوا يعتبرونها أقل تنافسية من مجموعة الصف الثامن المفتوحة (التي كانت تسمح بمشاركة الطلاب حتى الصف الثامن فقط) حيث لم يكن هناك سوى عدد أقل من الفرق التي تنافس في مجموعة الصف التاسع، وكانت "شبيجل" تعتقد أن هناك فرصة جيدة للفوز في المجموعتين، على الرغم من أن ذلك سيعيد سابقة من نوعها، إذ لم تحقق أية مدرسة من قبل الفوز على مستوى مجموعة الصف الثامن ومجموعة الصف التاسع في السنة نفسها - وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك صف تاسع في مدرسة إنترميديات سكول 318.

ومن الأسباب التي جعلت فرق "شبيجل" تقدم أداءً جيداً في المسابقات امتلاكها ما يسميه مدربي كرة السلة عدداً كبيراً من اللاعبين الموهوبين، فيمكنك أن تجد في المدارس الخاصة والمدارس التي تعتمد على الاختبارات الانتقائية عدداً قليلاً من لاعبي الشطرنج الجيدين، أولئك الموهوبين الذين ينتمون إلى أسر ثرية، ويتلقون التدريب الشخصي منذ نعومة أظافرهم، ولم تكن مدرسة إنترميديات سكول 318 تجذب هذه النوعية من الأطفال المميزين، ولكن "شبيجل" تمكنت من جذب العشرات من الطلاب الجدد كل سنة إلى نادي الشطرنج؛ لأنه كان جزءاً أصيلاً من اليوم الدراسي ومن ثقافة المدرسة، ولم يكن لهؤلاء الأطفال دراية بالشطرنج، ولكن كان لديهم توفيق إلى تعلم المزيد، وقد اعتمدت في تصميم برنامجها على استغلال هذه الفرصة، وبعد قرابة عشرة أعوام كانت قد تمكنت من بناء نظام تعليمي قادر على تحويل المبتدئين الذين يفدون إلى نادي الشطرنج خلال أول أسبوع من الصف السادس إلى لاعبين محترفين يحتل بعضهم التصنيف 1500 و1600، وتحتل قلة منهم التصنيف 1800 و1900، مع نهاية دراستهم في الصف الثامن.

وكان من النادر أن يصل أي طالب من مدرسة إنترميديات سكول 318 إلى التصنيف 2000؛ ما يعني أن المدرسة لم تفز بالكثير من البطولات الفردية، لكن أسلوب "شبيجل" كان الإستراتيجية المثالية لبطولات الفرق، التي يكون الفوز فيها من نصيب المدرسة التي ينتمي إليها أعلى أربعة لاعبين يفوزون في معظم المباريات، وكانت "شبيجل" تعلم أن ما يحقق الفارق في مسابقات الفرق هو المهارة والمقدرة اللتان يتمتع بهما اللاعب الأفضل الذي يحتل الترتيب الرابع، لا اللاعب الأفضل عمومًا. وكان هناك دائمًا في مدرسة إنترميديات سكول 318 عشرة طلاب أو أكثر يمكن أن يحتل كل واحد منهم الترتيب الرابع.

ولكن في خريف عام 2009 وصل إلى مدرسة إنترميديات سكول 318 "جاستوس ويليامز"، وبدأ التغيير يطرأ على تكوين الفريق. كان "جاستوس" - الذي كان يعيش في حي برونكس - طفلًا هادئًا، تبدو عليه ملامح الصرامة، وكان طويلًا وذا بشرة داكنة، وقوي البنية. كان يتحدث بهدوء، وكانت تبدو عليه أمارات الخجل في حضور الغرباء، بيد أنه كان يمشي بثقة في أروقة المدرسة - وهي واحدة من المدارس الإعدادية القليلة التي يُكسبك فيها التفوق في الشطرنج احترامًا أكثر من أي شيء آخر، بدأ "جاستوس" ممارسة لعبة الشطرنج في الصف الثالث في مدرسة بابليك سكول 70 70 Public School وهي مدرسة حكومية في جنوب حي برونكس من خلال مؤسسة Chess-in-the-Schools وقد أدرك معلموه منذ وقت مبكر أنه ذو مستقبل واعد، وأنه تواق إلى التعلم، ولديه قدرة غير عادية على التركيز. وكانت المؤسسة تدفع الأجور إلى المعلمين حيث يقدمون إليه دروسًا خاصة، وقد بذلت أمه - التي كانت تؤمن بأنه ينتظره مستقبل عظيم - قصارى جهدها لمساعدته على أن يصبح لاعبًا أفضل، وكان تصنيف "جاستوس" يزيد على 2000 عندما دخل إلى الصف السادس في مدرسة إنترميديات سكول 318، وكان ترتيبه يفوق بمئات النقاط أي طالب آخر علمته "شبيجل"، بل كان ترتيبه قريبًا للغاية من ترتيب "شبيجل" نفسها، وفي حين أن "جاستوس" كان هو أفضل لاعب في الصف السادس، كان هناك لاعبان آخران وصلا معه إلى مدرسة إنترميديات سكول 318، وكانت لديهما خبرة كبيرة

في اللعبة: وهما "آيزاك بارايف" - الذي كان أبواه من المهاجرين الروس، وكان يسكن مدينة كوينز، وكان تصنيفه 1500 عند دخوله إلى الصف السادس - و"جيمس بلاك الابن" - وهو فتى من أصول أفريقية من حي بروكلين، وتحديدًا من بيدفورد ستويفيسانت، وكان تصنيفه 1700 عند تخرجه في المدرسة الحكومية المحلية التي كان يرتادها.

وكانت لدى "شبيجل" علاقة وثيقة بـ"جيمس بلاك"، وقد التقت به عندما كان لا يزال في المدرسة الابتدائية، وعلى الرغم من أن قدراته في اللعبة الآن أصبحت تضارع قدراتها، فإنه يقر لها بمساعدتها إياه على تحسين تصنيفه خلال المدة التي أمضاها في المدرسة، حيث تحول تصنيفه من 1700 إلى ما يزيد على 2100، وهذه تعد قفزة ضخمة، وكان "جيمس" نحيلًا ووسيمًا ذا شعر قصير، وعيناه كانتا متقدتين واسعتين، وكانت إحدى أسنانه الأمامية مكسورة، وكان اجتماعيًا للغاية، ويحب أن يمازح زملاءه في الفصل، وعندما كنت أزور فصل "شبيجل" كثيرًا ما كنت أجده جالسًا في آخر الغرفة، يلعب مباراة للشطرنج، وينصح اللاعبين الذين يلعبون إلى جواره بالخطوات التي يفترض بهم اتخاذها، بل عادة ما يمد يده على الرقعة، ويقوم بتلك الخطوات بنفسه.

وقد تعلم "جيمس" - كما حدث مع "جاستوس" - لعبة الشطرنج وهو في الصف الثالث، عندما زار مدرسته أحد المعلمين التابعين لمؤسسة الشطرنج للمدارس، وفي المنزل كان يتدرب مع والده - الذي اشترى له لعبة شطرنج من محلات كيه مارت، بمجرد أن أبدى "جيمس" أولى إشارات اهتمامه باللعبة. لقد كرّس "جيمس بلاك الأب" حياته من أجل ابنه، فقد أخبرني ذات مرة بأنه كان قد عزم - قبل أن يولد "جيمس" - على أن يسمي طفله الأول - سواء أكان ولدًا أم بنتًا - "جيمس بلاك الابن".

وقد نشأ "جيمس الأب" في حي برونكس، وكان تحصيله جيدًا في المدرسة الثانوية، لكنه ترك التعليم الجامعي بعد سنتين. فكثيرًا ما كان يحلم بالانضمام إلى سلاح البحرية غير أنه عندما ترك الكلية عثر على وظيفة مجزية في سلسلة متاجر دي أجوستينو في مدينة نيويورك، ولم يدخل التجنيد مطلقًا، وظل "بلاك" يعمل في بيع الأطعمة مدة خمسة

وعشرين عامًا. وعندما كان في منتصف الثلاثينيات من العمر أحب "تونيا كولز" - التي كان لديها ثلاثة أطفال - فتزوجها وأنجبا معًا "جيمس"، وكونا أسرة مختلطة، وقد أخبرني "جيمس الأب" بأنه كان يأمل أن يكون أطفال "تونيا" الثلاثة قدوة حسنة لـ "جيمس الابن"، ولكن ذلك لم يحدث. فأحد هؤلاء الثلاثة كان قد أدين بتهمة بيع المخدرات 15، وقضى ثلاثة أعوام في السجن عندما كان "جيمس" صغيرًا، أما الآخر فلا يزال في السجن بسبب ارتكابه جريمة قتل، حيث حكم عليه بالسجن عشرين عامًا 8. وهذه المشكلات التي حدثت لإخوة "جيمس الابن" من أمه لم تزدد والده سوى اهتمام به، وتصميم على جعله شخصًا ناجحًا، وقد قال لي في بداية العام الدراسي: "لقد قلت لـ 'جيمس' يمكنني أن أقول الكثير لإخوتك، لكن يمكنني أن أقول لك ما هو أكثر، فمهمتي هي أن أوجهك نحو المستقبل".

وكانت أحوال "جيمس" في مدرسة إنترميديات سكول 318 مضطربة، فقد كانت درجاته جيدة في الغالب، ولكن في الاختبارات التحصيلية للصف السادس على مستوى الولاية حصل على درجتين من أصل أربع درجات في مادتي القراءة والرياضيات؛ ما يعني أن مستواه كان أقل من المستوى المطلوب، وأنه كان ضمن ثلث الطلاب الأقل من حيث الدرجات على مستوى المدينة، وفي المدرسة كان مشهورًا بأنه مثير للمشكلات، وعندما كان في الصف السادس كان كثيرًا ما يتم إرساله إلى مكتب مدير المدرسة بسبب تصرفاته غير اللائقة في الحصة، أو بسبب توجيهه الألفاظ غير اللائقة إلى زميلاته في الفصل، ولكن على الرغم من مشكلاته المعتادة في المدرسة كان طالبًا استثنائيًا في لعبة الشطرنج، كان يدرس اللعبة، ويتدرب عليها ست ساعات في اليوم، قد كان هناك الكثير من الكتب الكبيرة التي تتحدث عن إستراتيجيات اللعب، ولكثرتها كانت تغطي أحد جدران غرفة نومه.

6. نادي مارشال

لقد قضيت يومًا مع "جيمس" و"شبيجل" وستة من طلاب مدرسة إنترميديات سكول 318 في نادي مارشال للشطرنج، وذلك قبل مسابقة كولومبوس بستة أشهر. ويشغل النادي

طابقين في منزل قديم وجميل يقع على طريق مصفوف بالأشجار في قرية جرينتش، ويعتبر الكثير من لاعبي الشطرنج هذا النادي أفخم أندية الشطرنج في الولايات المتحدة، فقد تم تأسيسه عام 1915 على يد بطل الشطرنج حينها "فرانك مارشال"، ويضم النادي عددًا من أفضل لاعبي الشطرنج الأمريكيين. إنه مكان مهيب خاصة بالنسبة إلى الشباب الطامحين في هذا المجال: فأسقفه عالية ومدافئه تتسم بالفخامة، والطاولات الخشبية مصقولة ولها بريق، والجدران مزينة بالصور ذات اللونين الأبيض والأسود للاعبين الأسطوريين، وكل منهم منكفئ على رقعة شطرنج، بالإضافة إلى صور معالجة بلون أحمر مائل إلى البني لمرتادي النادي بزي رسمي في أثناء العشاء في فترة الثلاثينيات من القرن الماضي.

وعندما وصلت "شبيجل" إلى نيويورك وهي في أواخر فترة المراهقة - بعد الانتقال من جامعة ديوك إلى جامعة كولومبيا - كانت تقضي وقتها في نادي مارشال، فتلعب الشطرنج في مسابقات العطلة الأسبوعية وتندمج في أجواء النادي، والآن أصبح النادي يمنح عددًا قليلًا من طلاب مدرسة إنترميديات سكول 318 عضوية مجانية في كل عام، وتُحضر "شبيجل" مجموعة صغيرة من الطلاب للعب في النادي مرة كل شهر. فهذا النادي يقدم إليهم تجربة مختلفة عما اعتادوه في السابق. فقد كانت المسابقات المدرسية المنتظمة التي تنعقد في عطلة كل أسبوع في مدينة نيويورك تعج بالفوضى، حيث كان المئات من اللاعبين وأولياء الأمور يحتشدون في إحدى المدارس الحكومية، وتقدم الأمهات معجنات زيتي المخبوزة للغداء. وكانت المباريات تنعقد مدة ساعة واحدة، وكان لاعبو مدرسة إنترميديات سكول 318 يفوزون في العادة، أو يلعبون بشكل جيد على الأقل، ولكن عندما يذهب الطلاب إلى نادي مارشال، فإنهم يخوضون مباريات تستمر أربع ساعات ضد خصوم يفوقونهم كثيرًا من حيث التصنيف، وعندها يكون الموقف مرعبًا بالنسبة إلى الطلاب، لكن "شبيجل" تذكرهم بأن أفضل طريقة لتحسين مستواهم في لعبة الشطرنج هي أن يلعبوا ضد أفضل الخصوم حتى لو انهزموا أمامهم.

وفي اليوم الخريفي الذي شاهدت فيه "جيمس" وهو يلعب في نادي مارشال، كان يواجه "يوري لابشن" وهو أحد الأساتذة الدوليين في اللعبة، وقد ولد في أوكرانيا، وهو لا يزال واحدًا من بين أفضل ثلاثين أو أربعين لاعبًا على مستوى الولايات المتحدة، وكان "لابشن" بطل نادي مارشال عامي 2000 و2001، واسمه مكتوب على اللوح الخشبي الكبير المعلق على جدار النادي منذ عام 1917، وهذا اللوح يضم أسماء أبطال النادي جميعًا، حيث دُون اسمه على لوحين نحاسيين متتاليين. ومن المؤلف في لعبة الشطرنج - وبخاصة في نادي مارشال - أن ترى شخصين مختلفين تمامًا يلعبان معًا، فتجد فتاة مراهقة تتبع الثقافة القوطية تلعب ضد فتاة مهووسة بمادة الرياضيات وترتدي نظارة، وتجد عجوزًا طاعنًا في السن يلعب ضد فتى صغير من أصول صينية - ولكن كان الأمر الأكثر غرابة أن يلعب "بلاك" ضد "لابشن"، ولم يكن عمر "لابشن" - الذي كان في أواخر الثلاثينيات - أكبر من عمر "جيمس" بثلاثة أضعاف فحسب، بل كان يزيد عليه في الوزن بخمسة وأربعين كيلوجرامًا على الأقل، وفي المباراة التي استمرت أربع ساعات كان "لابشن" في معظم الوقت ينظر إلى الرقعة متجهماً، ويسند ظهره إلى كرسيه، ويداعب شاربه السميك ذا اللحم السوفيتية العتيقة، وكان يطوي ذراعيه الكبيرتين على بطنه الضخم، أما "جيمس" فكان يجلس مائلاً إلى الأمام، واضعاً ذقنه على قبضة يده، وكان يرتدي قميصاً كبيراً، وبنطالاً من الجينز أكبر من مقاسه، يكاد يتوه فيهما، وكان بين الفينة والأخرى يتلفت في الحجرة، ثم ينظر إلى الرقعة بطرف بصره. كان "جيمس" لا يحب الجلوس طويلاً أمام رقعة الشطرنج، وكان خلال المباريات ينهض ويتجول هنا وهناك، ويتفقد غيره من اللاعبين؛ ما كان يسبب القلق لدى معلميه ومدربيه، وخلال المباراة التي خاضها مع "لابشن" نهض وتجول حتى صعد إلى الطابق الثاني في المكان الذي كنت أتحدث فيه أنا و"شبيجل"، وهنا صرخت فيه "شبيجل" وأمرته بالعودة إلى غرفة المسابقة، وقالت له إنها ستستدعي والده إذا ترك مكانه مرة أخرى خلال المباراة.

كان تصنيف "لابشن" في ذلك اليوم 2546، بينما كان تصنيف "جيمس" 2068؛ أي أن "لابشن" كان يتفوق على "جيمس" في كل شيء إلا في رقعة الشطرنج، وذلك بطريقة ما.

وفي وقت مبكر من المباراة عند الخطوة السادسة، فاجأ "جيمس" "لابشن" بعدد من التكتيكات الذكية، ومع الخطوة رقم ثلاثين كان من الواضح للخبراء والمحترفين الذين يراقبون المباراة أن "جيمس" كان مسيطرًا على الموقف، فقد تمكن من إنشاء صف دفاعي لا يمكن اختراقه في وسط الرقعة وكان يتقدم نحو "لابشن" خطوة بعد أخرى، وقد أوقعه في فخ شديد، حيث إنه في كل خطوة سيقوم بها سيكون معرضًا إما لخسارة إحدى القطع، وإما لإضعاف موقفه، وعند الخطوة رقم تسعة وخمسين استسلم "لابشن".

وبعد انتهاء المباراة صعد "جيمس" إلى الطابق العلوي، وراجع المباراة مع "شبيجل"، وكان "لابشن" لطيفًا بما يكفي بحيث راجع المباراة معهما، وأضاف عددًا من الملاحظات الاستعلامية التي زادت وطأتها بفعل لهجته الأوكرانية الثقيلة في الكلام، حيث قال: "حركتي هنا كانت تتم عن فقدان الأمل"، وهو يشير إلى رقعة اللعب، ثم بعد عدة خطوات يقول: "لقد انتهى أمري هنا"، وكان "جيمس" يوضح خطوة فخطوة كيف أنه سد الطريق على "لابشن"، فلم يستطع أن يتحرر من الفخاخ التي نصبت له، فأعجبت "شبيجل" بصنيعه، وقالت له: إنك لم تهزم محترفًا دوليًا فحسب، بل تفوقت عليه في اللعب منذ البداية إلى النهاية، لقد كانت تلك "مباراة استثنائية".

وبالفوز الذي حققه "جيمس" على "لابشن"، بالإضافة إلى فوزه بعدد من المباريات القوية تجاوز تصنيفه 2150، وكان هدفه على المدى القصير هو الوصول إلى تصنيف 2200 الذي يعد مؤشرًا مهمًا للاعب الشطرنج، فعندما تحصل على هذا الترتيب تصبح معتمدًا بوصفك خبيرًا في الشطرنج من قبل الاتحاد الأمريكي للشطرنج، وقد أصبح "جاستوس" معتمدًا بوصفه خبيرًا في شهر سبتمبر، أي قبل قيام "جيمس" بهزيمة "لابشن" بشهر واحد. وكان "جاستوس" في الواقع هو أصغر أمريكي من أصول أفريقية يحوز هذا اللقب، وبدا أن "جيمس" - الذي كان أصغر من "جاستوس" بخمسة أشهر - يستطيع بسهولة أن يكسر الرقم القياسي لـ "جاستوس" كأصغر أستاذ أسود للشطرنج. لكن "جيمس" كان قد وصل حينها إلى طريق مسدود، فقد تردى تصنيفه في يناير إلى 2100 ثم ظل شهرين في هذا

المستوى، وفي شهر أبريل عندما استقل "جيمس" الأوتوبيس في رحلته إلى مسابقة كولومبوس خسر فرصته في اللحاق بترتيب "جاستوس" وثبت تصنيفه عند 2156.

7. السيد

وفي مسابقة كولومبوس لم يراجع "جيمس" مبارياته مع "شبيجل"، بل كان يقوم بتحليلها مع "ماتان بريليلتنسكي" - وهو لاعب منافس من ميامي، يبلغ عمره ثلاثة وعشرين عامًا، وكان يعمل في تلك السنة مساعد مدرب بدوام جزئي لصالح مدرسة إنترميديايت سكول 318، بينما كان يحضر الماجستير في التربية الخاصة. ويرجع اهتمام "بريليلتنسكي" بالتربية الخاصة إلى تشخيصه بالإصابة باضطراب نقص الانتباه مع فرط النشاط عندما كان طفلًا، وقد واجه المتاعب في المدرستين الابتدائية والإعدادية بسبب عدم قدرته على التركيز في الحصة، أو التركيز على واجبه المنزلي سوى دقائق قليلة. إلى أن اكتشف الشطرنج. وقال لي إن تلك كانت هي المرة الأولى التي يشعر فيها بأنه قادر على التركيز في أي شيء، لقد كان من الواضح أن الشطرنج - الذي يتطلب ساعات من الدراسة المتأنية - ليس مناسبًا لشخص يعاني اضطرابًا في الانتباه، ولكن "بريليلتنسكي" قال إن الأمر لم يكن بالتعقيد الذي كان يبدو عليه، وقال: "إن كثيرًا ممن يعانون مشكلات الانتباه يتوقون إلى تجارب قوية وتحفيز جاد، ويرغبون في الانخراط في أحد المساعي الشاملة". وكان الشطرنج بالنسبة إلى "بريليلتنسكي" دواءً مثاليًا لاضطراب نقص الانتباه مع فرط النشاط، فقد كانت الأعراض تتلاشى عندما يجلس أمام رقعة الشطرنج.

وفي المدرسة الثانوية أصبح "بريليلتنسكي" لاعبًا مهمًا، فقد وصل تصنيفه إلى 2000 عقب ذكرى يوم ميلاده الثامنة عشرة مباشرة. وعندما التحق بالكلية استمر في اللعب، وقد فاز في مسابقة أو اثنتين، لكن مستواه لم يتحسن تحسنًا كبيرًا، وعند تخرجه في الجامعة عام 2009، كان تصنيفه لا يزال 2100. وكان يريد أن يحسن من مستواه، لكن لم يبدُ ذلك ممكنًا. وفي يناير عام 2010، خاض مسابقة في بالاتكا في ولاية فلوريدا، وكاد يفوز لولا إخفاقه في مباراة حاسمة، وقد جعلته الهزيمة يشعر بأنه محطم، لكنه عندما أخذ يحل

المباراة بعد ذلك مع خصمه - وهو طالب في المرحلة الثانوية - أدرك أنه لم يُهزم بسبب خصمه، بل هو من تسبب لنفسه في الهزيمة، حتى إنه قال لي في وقت لاحق إن هذا الأمر أصابه بشعور فظيع، فهو لم يكن يريد أن يكون مجرد لاعب عادي.

وفي طريق عودته إلى ميامي، أخذ "بريليلتنسكي" يطالع مجموعة من المقابلات التي أجريت مع كبار خبراء الشطرنج، وكانت من بينها محادثة عبر البريد الإلكتروني مع "جوناثان راوسون" - الأستاذ الكبير الإسكتلندي الذي كتب عن أهمية الانفعالات وعلم النفس في النجاح في الشطرنج، وكان من الواضح أن تعليقات "راوسون" تمس النكبة التي يمر بها "بريليلتنسكي" - وكانت تلك المحادثة تتناول أيضًا نظرية "أنجيلا داكورث" عن الاختلاف الحاسم بين التحفيز والإرادة، وجاء فيما كتبه "راوسون": "عندما يتعلق الأمر بالطموح يتحتم التمييز بين 'الرغبة' في شيء ما و'اختياره' 16 ويقول "راوسون": "إنك ستفشل لا محالة في أن تبذل الجهد اللازم لكي تصبح بطل العالم إذا كان قرارك هو أنك ترغب فقط في أن تصبح بطل العالم، فأنت حينها لن تفشل في أن تصبح بطل العالم فحسب، بل ستمر بتجربة مريرة من العجز عن تحقيق الهدف المنشود، مع ما يصاحبها من شعور بالندم وخيبة الأمل. أما إذا اخترت أن تصبح بطل العالم (كما فعل "كسباروف" وهو في سن صغيرة)، عندها "ستحقق اختيارك من خلال سلوكك وإصرارك، فكل خطوة تقوم بها 'تعبر عن حقيقتك'".

وقد حفزته هذه الكلمات 17، فعزم في أواخر شهر يناير عام 2010 على أن تكون أمنيته في هذه السنة الجديدة هي أن يصل إلى الـ 2200 في تصنيفه، لقد كرس عامًا كاملاً لدراسة الشطرنج بعد أن تخلص من كل شيء آخر في حياته (باستثناء خطيبته التي كانت تتفهم ظروفه): فتوقف عن الحفلات، وابتعد عن فيسبوك، وشبكة قنوات إي. إس. بي. إن، وتجنب الاختلاط بالآخرين لغير حاجة. لقد كان يقضي ساعات طويلة وهو يلعب الشطرنج فقط، وقد آتت جهوده أكلها، ففي العاشر من أكتوبر عام 2010، وصل ترتيبه إلى 2200 للمرة الأولى، وأصبح أستاذًا معترفًا به.

وقد التقيت به عقب تحقيقه هذا الهدف بوقت قصير، وفوجئت عندما سمعته يتحدث عن تلك الشهور التي عكف خلالها على ممارسة اللعبة، وكيف أنه لم يفخر بالنتائج فحسب، بل كانت لديه ذكريات سارة عن هذه الفترة. وسألته: ما الذي وجدته ممتعاً في السنة التي انغمست خلالها في لعبة الشطرنج بشكل كامل؟ فقال: "إنه الإحساس بالإنتاج على المستوى الفكري؛ لقد كنت في السابق كثيرًا ما أشعر بأنني لا أتحدى نفسي، أو أدفعها إلى الأمام، بل أضيع طاقتي الذهنية، ولكنني لم أكن أشعر بهذا قط عندما كنت أدرس لعبة الشطرنج أو أمارسها".

لقد صدمتني الكلمة التي استخدمها "بريليلتنسكي": الإنتاج. لقد اختارت "شبيجل" الكلمة نفسها عندما وصفت لي في حزن ما خسرت عندما تركت هوسها بالشطرنج طوال الليل، وأخذت تقضي الوقت مع "جوناثان": "إنني أفقد الإنتاجية التي اعتدتها".

لقد كانت تلك الكلمة بمنزلة أحجية، فأنا يمكنني أن أقدر فكرة إتقان الشطرنج، وما تمثله من إغراء، تمامًا كما هي الحال بالنسبة إلى أية مهارة أخرى لا أجيدها - مثل رسم اللوحات الزيتية، وعزف موسيقى الجاز باستخدام البوق، أو القفز بالزانة - ولكن في حين أنه يمكن أن تقنعني بسهولة بما تنطوي عليه لعبة الشطرنج من أهمية وتحدٍ للعقل، فإن كلمة الإنتاج هي آخر كلمة يمكنني أن أستخدمها للإشارة إلى فوائدها، فقد كان من الواضح بالنسبة إليّ أن لاعبي الشطرنج لا ينتجون شيئًا على الإطلاق، وكما رأيت فقد كان هذا السؤال الذي ظهر في مقابلة "راوسون" هو ما حفّز "بريليلتنسكي" في مسعاه نحو التصنيف 2200، وفي المقابلة سأل المحاور "راوسون" عما إن كان يخجل من توجيهه تلك الطاقة العقلية العظيمة لكي يكون أستاذًا كبيرًا في الشطرنج "بدلاً من شيء آخر مهم كأن يصبح جراحاً للمخ". وأقر "راوسون" بأن "هذا السؤال عن عدم وجود فائدة حقيقية للعبة الشطرنج كثيرًا ما كان يتبادر إليّ.. فإنني أحيانًا ما أفكر في أن آلاف الساعات التي قضيتها في لعبة الشطرنج كان من الممكن لي أن أستغلها بشكل أفضل - على الرغم من أنها أفادتني في تنمية شخصيتي".

ولكن "راوسون" واصل الكلام مدافعًا عن نفسه وعن زملائه من لاعبي الشطرنج، وقد فعل ذلك استنادًا إلى أسس تقدير الفنون، فكتب يقول: "إن الشطرنج لعبة تشتمل على الإبداع والجمال 18، فهو يتيح لنا أن نعيش عددًا كبيرًا وفريدًا من صفات الشخصية الإنسانية، إن اللعبة احتفال بالحرية الوجودية، بمعنى أننا ننعم بفرصة خلق أنفسنا من خلال تصرفاتنا، ونحن نحتفل بتلك الحرية من خلال اختيارنا أن نمارس لعبة الشطرنج"، وقد كان "راوسون" يرى أن لاعبي الشطرنج الجالسين أمام رقعة الشطرنج يؤديان فنًا فريدًا وتعاونيًا، وكلما كانا يلعبان بشكل أفضل، كانت النتيجة أكثر جمالاً.

ويستعرض "مالكولم جلادويل" في كتابه *Outliers* الصادر عام 2008 نظرية عالم النفس السويدي "كيه. أنديرس إيريكسون" التي يقول فيها إن الإتقان الحقيقي لأية مهارة يتطلب عشرة آلاف ساعة من التدريب المتأني عليها، سواء أكانت تلك المهارة هي العزف على الكمان، أو برمجة الكمبيوتر 19. وقد بنى "إيريكسون" جزءًا من نظريته على إتقان لعبة الشطرنج، فأبطال الشطرنج لا يولدون أبطالاً، فوفقًا لكلامه لا يمكنك أن تصبح أستاذًا في الشطرنج دون أن تكرر آلاف الساعات من الدراسة والممارسة، وقد اكتشف "إيريكسون" أن أفضل لاعبي الشطرنج بدأوا ممارسة اللعبة وهم أطفال، فعلى مدار تاريخ لعبة الشطرنج تبين أن الوقت الذي يتعين على الأبطال الواعدين فيه أن يبدأوا اللعبة حتى يصلوا إلى أعلى مستوياتها ينخفض بشكل مطرد، ففي القرن التاسع عشر كان من الممكن أن تبدأ ممارسة لعبة الشطرنج وأنت في السابعة عشرة وكان بإمكانك بعدها أن تصل إلى درجة أستاذ، أما اللاعبون الذين ولدوا في القرن العشرين، فإن من بدأوا بعد سن الرابعة عشرة لم يتم اعتمادهم كأستاذ كبير في اللعبة. وقد اكتشف "إيريكسون" أنه مع نهاية القرن العشرين كان اللاعبون الذين حصلوا على لقب أستاذ في اللعبة هم من بدأوا فيها، وهم في سن العاشرة والنصف في المتوسط، أما من تم اعتمادهم أساتذة كبارًا فيها، فهم من بدأوا بممارستها في سن السابعة 20.

كانت أشهر وأقوى دراسة تبرهن على أثر التدريب المبكر في النجاح في الشطرنج قد أجراها عالم النفس المجري "لازلو بولجار" الذي نشر كتابًا في الستينيات تحت عنوان

Genius! Up Bring برهن فيه على أن والدي أي طفل يمكن أن يحولاه إلى شخص عبقرى إذا بذلا الجهد الكافي، ولم تكن لدى "بولجار" أسرة أو أولاد عندما ألف كتابه؛ ومن ثم لم يكن من الممكن له أن يختبر نظريته بنفسه 21، ولكنه بدأ يغير هذا الوضع، فأحب "كلارا" مدرسة اللغة الأجنبية التي كانت تتحدث اللغة المجرية، وكانت "كلارا" تعيش في أوكرانيا لكنه أقنعها من خلال خطابات له - التي شرح لها من خلالها أن بإمكانهما أن يربيا أسرة من العباقرة - بالانتقال إلى بودابست.

وبعدها قاما بذلك بالفعل. فقد أنجبا ثلاث بنات هن "سوزان" و"صوفيا" و"جوديت"، وعلمهن "لازلو" في المنزل معتمداً على برنامج أكاديمي يركز بشكل حصري على الشطرنج (مع أن هؤلاء الفتيات قد تعلمن أيضاً عدداً من اللغات الأجنبية من بينها لغة الإسبرانتو). وبدأن دراسة الشطرنج قبل أن تتم كل منهن عامها الخامس، وسرعان ما أصبحن يلعبن الشطرنج ما بين ثماني ساعات وعشر كل يوم 22، وقد فازت "سوزان" - الابنة الكبرى - بالمسابقة الأولى لها وهي في الرابعة من عمرها، وعندما كانت في الخامسة عشرة أصبحت لاعبة الشطرنج الأعلى تصنيفاً على مستوى العالم، وفي عام 1991 عندما كان عمرها 21 عاماً أصبحت أول فتاة تعتمد أستاذاً كبيراً في الشطرنج، لقد كان نجاحها تأكيداً لما ذهب إليه والدها من قول إن العباقرة يمكن إعدادهم، وأن العبقرية ليست أمراً فطرياً - ومع ذلك لم تكن "سوزان" هي أفضل لاعبة شطرنج في الأسرة، بل كانت كذلك أختها "جوديت" التي اعتمدت أستاذاً كبيراً في الشطرنج، وهي في الخامسة عشرة من عمرها، وبذلك كسرت الرقم القياسي لأصغر شخص يحصل على هذا اللقب الذي كان يحمله "بوبي فيشر"، وفي عام 2005 وصلت "جوديت" إلى ذروة تصنيفها حين حصلت على ترتيب ثامن أعلى لاعب شطرنج مصنف في العالم، وكان تصنيفها 2735، وهي تعتبر الآن أفضل لاعبة شطرنج على وجه الأرض (وكانت "صوفيا" لاعبة جيدة هي الأخرى، فقد وصل تصنيفها إلى 2505، حيث احتلت المركز السادس عالمياً كأفضل لاعبة شطرنج، وهو إنجاز مدهش بالنسبة إلى أي شخص باستثناء عائلة "بولجار").

إذا كانت قصة أسرة "بولجار" تبدو غريبة، فإن قصة "جاتا كامسكي" مخيفة تمامًا. ولد "كامسكي" في الاتحاد السوفيتي عام 1974، وبدأ دراسة الشطرنج تحت إشراف والده وهو في الثامنة من العمر، وكان والده يدعى "روستام"، وهو ملاكم سابق عصبي المزاج (وقد تركت والدته الأسرة عندما كان صبيًا). وحين أتم الثانية عشرة كان ينافس الأساتذة الكبار في اللعبة، ويهزمهم، وفي عام 1989 رحل مع والده إلى الولايات المتحدة، وأقام في شقة في حي برايتون بيتش 23، وقدم إليه رئيس شركة بير ستيرنز بدل معيشة سنويًا يقدر بـ 35000 دولار، حيث كان رئيس الشركة يعتقد أن "كامسكي" سيكون حتمًا بطل العالم. وحين أتم السادسة عشرة من عمره تم اعتماده أستاذًا كبيرًا في الشطرنج، وفي السابعة عشرة من عمره فاز ببطولة الولايات المتحدة للشطرنج. وقد حصل "كامسكي" على درجة من التقدير بفعل الظروف التي مر بها، والتي يعتبرها الكثيرون وحشية وقاسية، وهذه الدرجة مساوية، إن لم تكن أكبر، للتقدير الذي حظي به بفعل إنجازاته التي أتمها في سن صغيرة، ففي شقة برايتون بيتش كان "كامسكي" يدرس الشطرنج ويتدرب عليه أربع عشرة ساعة في اليوم تحت رعاية والده، فهو لم يذهب إلى المدرسة على الإطلاق، ولم يشاهد التلفاز قط، ولم يمارس أيًا من الرياضات، ولم يكن لديه أصدقاء. وأصبح والده يُعرف في عالم الشطرنج بأنه شخص عنيف بطبعه، فكان كثيرًا ما يصرخ في وجه "جاتا" عند تعرضه للخسارة، أو عند ارتكابه الأخطاء، وكان يلقي بالأثاث على الأرض، وفي إحدى المباريات هدد خصم ولده بالضرب.

وعندما أتم "كامسكي" الثانية والعشرين من عمره عام 1996 اعتزل الشطرنج تمامًا، حيث تزوج وتخرج في كلية بروكلين، وارتاد كلية الطب مدة عام، ثم حصل على شهادة جامعية من كلية لونج آيلاند للقانون، لكنه لم يتمكن من اجتياز امتحان نقابة المحامين 24. وتبدو حكاية "كامسكي" قصة تحذيرية، حيث تحذر من النتائج العكسية للتدريب على اللعبة في سن مبكرة، والتربية التي يسودها العنف والتسلط. ولكن "كامسكي" عاد بعد ذلك إلى مباريات الشطرنج عام 2004، وكانت البداية في مسابقة صغيرة بنادي مارشال، وخلال سنوات قليلة تجاوز الإنجازات التي حققها في مرحلة المراهقة، حيث فاز ببطولة

الولايات المتحدة عام 2010، بعد تسعة عشر عامًا من فوزه بهذا اللقب للمرة الأولى، ثم فاز به مرة أخرى عام 2011، وهو الآن اللاعب الأعلى ترتيبًا في الولايات المتحدة، ويحتل المركز العاشر لأفضل لاعب على مستوى العالم، لقد كان تأثير عشرة آلاف ساعة من التدريب - على الرغم من أن العدد الحقيقي في حالة "كامسكي" قد يصل إلى أربعة وعشرين ألف ساعة أو أكثر، فقد كان يتدرب أربع عشرة ساعة في اليوم عندما كان طفلًا - باقياً وراسخاً لدرجة أن السنوات الثماني التي ابتعد فيها عن الشطرنج لم تؤثر في مستوى براعته.

8. التدفق

عندما نتحدث "شبيجل" وغيرها من لاعبي الشطرنج عن طفولة اللاعبين من أمثال "كامسكي" وبنات "بولجار" الثلاث، كثيرًا ما يمتزج الحديث بالانفعالات. فهم يقرون من جهة بأن الطفولة التي يكون فيها التركيز على شيء واحد، تتسم بعدم الاتزان، هذا إن لم تكن مشوّشة ومختلة، ومن جهة أخرى لا يسعهم سوى الشعور ببعض الغيرة، فتري الواحد منهم يقول: لو أن والدي جعلني أقضي عشر ساعات في اللعب، فلك أن تتخيل كم كنت سأصبح الآن لاعبًا أفضل! وفي الزيارة الأولى لي إلى فصل "شبيجل" كانت قد عادت من فورها من معسكر للشطرنج لتدريب الشباب ذوي المستوى الرفيع، وقد استمر مدة أسبوع، حيث ظلت طيلة خمسة أيام تحلل مشكلات لعب الشطرنج مع أفضل مجموعة على مستوى البلاد، وكان أفراد المجموعة تتراوح أعمارهم بين تسعة أعوام وأربعة عشر عامًا. وقد أخبرتني بأنها اكتشفت أن الأمر لم يكن ممتعًا بدرجة كبيرة، وقالت: "شعرت بأنني غاية في الغباء؛ لقد تألمت بسبب وجودي هناك، فقد كان الجميع أسرع مني، بل اضطرت إلى أن أطلب من طفل يبلغ تسعة أعوام أن يشرح لي إحدى الحركات". وقالت لي إنها في وقت ما ذهبت إلى الحمام، وأخذت تبكي.

وبينما كنت أسطر صفحات هذا الفصل، كنت أحتفظ في مكتبي برقعة شطرنج زهيدة الثمن على طاولة القهوة باعتبارها مرجعًا لي، وكان ابني "إلينجتون" - الذي كان حينها في

الثانية من عمره - يأتي من حين إلى آخر ويعبث بقطع الشطرنج. وعندها كنت آخذ استراحة قصيرة، فعلمته أسماء القطع المختلفة، واكتشفت أنه يحب أن يسقطها بيده ثم يرتبها على الرقعة بشكل جذاب، وكنت أعلم أن اهتمامه برقعة الشطرنج لا يختلف عن اهتمامه بالقصاصات الورقية الموجودة في درج مكتبي، وكنت أحياناً ما أقول لنفسي: إنه لا يزال في الثانية من عمره، ومع هذا فهو يعرف الفرق بين الرخ والحصان، ربما يصنع هذا الطفل أعجوبة! وإذا ما بدأت أعلمه الآن كيفية تحريك هذه القطع، وبدأت بساعة من التدريب كل يوم، فإنه عندما يتم الثالثة سوف...

ولكنني قاومت هذا التفكير - الذي يشبه إلى حد كبير تفكير "بولجار - على الرغم مما فيه من إغراء، لقد أدركت أنني لا أريد له أن يصبح معجزة في الشطرنج، ولكنني عندما حاولت أن أكتشف السبب الذي جعلني أشعر بهذا الشعور تحديداً تبين لي أن الأمر لا يسهل شرحه أو تبريره. لقد شعرت بأنني لو جعلته يدرس الشطرنج طيلة أربع ساعات في اليوم (ناهيك عن أربع عشرة ساعة) فإن هذا سوف يكون على حساب شيء آخر، ولكنني لم أكن متأكداً من صحة هذا الرأي، فهل من الأفضل أن تقضي طفولتك أو حياتك في الاهتمام بأشياء كثيرة (وهذا ما أميل إليه) أم أن تهتم كثيراً بشيء واحد فقط؟ وكثيراً ما كنت أناقش "شبيجل" في هذا السؤال، وعليّ أن أعترف بأن كلامها كان مقنعاً بالنسبة إلى فوائد تركيز الذهن على شيء واحد، وقد ذكّرني كلامها المقنع بتعريف "أنجيلا داكورث" للإصرار: ضبط النفس مع التفاني في تحقيق هدف واحد.

وقالت لي "شبيجل" في إحدى المسابقات: "إنني أعتقد أن فهم الأطفال معنى الشغف تجاه شيء ما، من شأنه أن يحررهم بدرجة كبيرة، فهم يمرون بتجارب مهمة لن ينسوها أبداً. أعتقد أن أسوأ شيء هو أن تنظر إلى طفولتك، فتجد أنها لا تعدو الجلوس في الفصل والشعور بالملل والعودة إلى المنزل ومشاهدة التلفاز، أما الأطفال الذين يلعبون في فريق الشطرنج، فيتذكرون البطولات التي حققوها، أو إحدى المباريات الرائعة التي خاضوها، أو يتذكرون تلك اللحظة التي كانوا مفعمين فيها بالنشاط ويبذلون قصارى جهدهم لتحقيق الفوز".

وقد يكون من الصعب على أي شخص من خارج عالم الشطرنج أن يفهم الانجذاب إلى تسيّد هذه اللعبة، عندما كانت "شبيجل" تحاول أن تشرح لي الأمر كانت كثيرًا ما تشير إلى أبحاث "ميها لي كسيستميها لي" - وهو عالم نفس تعاون مع "مارتن سيليجمان" في بداية نشأة علم النفس الإيجابي، وكان "كسيستميها لي" قد درس ما أسماه الخبرات المثلى 25، وهي اللحظات النادرة في حياة الإنسان التي يشعر فيها بالتححرر من المشتتات العادية، ويتحكم في مصيره، ويكون منخرطًا تمامًا في اللحظة الراهنة. وقد وضع "كسيستميها لي" مصطلحًا لهذه الحالة من التركيز الشديد وهو: التدفق. وجاء في كتاباته أن لحظات التدفق كثيرًا ما تتكرر "عندما يكون أي من الجسد أو الذهن منهمكًا تمامًا في عمل اختياري من أجل إنجاز شيء صعب أو مهم" 26. وقد عقد عددًا من المقابلات مع خبراء الشطرنج في أبحاثه الأولى، وكذلك مع عدد من الفنانين الاستعراضيين ومتسلقي الجبال، واكتشف أن هذه الفئات الثلاث قد تشابهت بعضها مع بعض في طريقة وصف لحظات التدفق، حيث وصفوها بأنها شعور بالسيطرة والسعادة الشديدين. وأخبره أحد لاعبي الشطرنج بأنه في أثناء تلك الحالات الخاصة، "يكون التركيز شيئًا لا تفكر فيه على الإطلاق؛ لأنه مثل التنفس 27. فقد يسقط السقف ولا تشعر به - هذا إن لم يسقط عليك"، (وقد اكتشفت إحدى الدراسات أن التغيرات الفسيولوجية التي تحدث للاعبين الشطرنج في المسابقات تحاكي تلك التغيرات التي تحدث للرياضيين في المسابقات الرياضية 28: فتنبض العضلات ويزيد ضغط الدم ويزيد معدل التنفس على المعدل الطبيعي ثلاث مرات).

فأنت لن تشعر ببساطة بحالة التدفق ما دمت لا تجيد الشيء الذي تقوم به - ومن ثم فأنا مثلاً لن أشعر بحالة التدفق وأنا أمام رقعة الشطرنج، أما "جاستوس" و"جيمس" فإنهما يشعران بتلك الحالة دائماً. كنت أتحدث مع "شبيجل" ذات مرة وفي أثناء حديثي معها سألتها عما إن كانت قد شعرت من قبل بأن أحد طلابها كان يضحى بالكثير من الأشياء من أجل النجاح في لعبة الشطرنج، فنظرت إليّ كأنني أبدو لها شخصًا مجنونًا، وقالت: "إن فكرتك هذه تتجاهل حقيقة أن لعب الشطرنج شيء رائع، إنها تضيف عليك السرور، فتشعر

بأنك غاية في السعادة، وبأنك في أفضل حالاتك، ومن السهل أن تنظر إلى الشطرنج من منظور التكلفة البديلة، ولكن أعتقد أن "جاستوس" و"جيمس" كانا يريان أنه لا يوجد هناك شيء آخر يفضلان القيام به غير ذلك".

9. التفاؤل والتشاؤم

يشتهر علماء النفس خلال فترة طويلة في أن الوصول إلى البراعة والإتقان في الشطرنج يتطلب من الشخص ما هو أكثر من الذكاء، لكن على مدار قرن من الزمان ظل الباحثون يكدّون من أجل اكتشاف المهارات المهمة بالتحديد، فما الذي يميز أبطال الشطرنج عن اللاعبين الآخرين إن لم يكن معدل الذكاء؟ كان "ألفريد بينيه" هو أول من أخضع هذا السؤال للدراسة الجادة، و"بينيه" هو عالم النفس الفرنسي الذي ساعد على وضع إحدى الصيغ المبكرة لاختبارات الذكاء، ولما كان الناس في تسعينيات القرن التاسع عشر في عالم الشطرنج وخارجه تسيطر عليهم ظاهرة غريبة تعرف بالشطرنج الأعمى، حيث كان محترفو الشطرنج يلعبون وهم معصوبو الأعين ضد أكثر من خصم في الوقت نفسه، حاول "بينيه" أن يفهم طبيعة المقدرة المعرفية التي تقف وراء هذه المهارة غير العادية، وكانت فرضيته تقوم على أساس أن محترفي هذا النوع من الشطرنج يمتلكون ذاكرة تصويرية، فكان يعتقد أنه لا بد من أنهم قادرون على الاحتفاظ بصورة بصرية دقيقة لشكل كل رقعة من رقع الشطرنج في ذاكرتهم، وهنا بدأ يجري مقابلات مع هؤلاء المحترفين، وسرعان ما اكتشف أن نظريته كانت خاطئة تمامًا، فلم تكن ذاكرة اللاعبين تصويرية على الإطلاق، بل كانوا يتذكرون أشكالاً نمطية 29 واتجاهات وانطباعات معينة - وهو ما وصفه "بينيه" بـ"عالم مثير للأحاسيس والصور والحركات والشغف، ومنظر من الحالات الشعورية دائم التغير" 30.

وبعد ذلك بخمسين عامًا أي في عام 1946، اطلع عالم النفس "أدريان دي جروت" على أبحاث "بينيه"، وبدأ دراسة القدرات الذهنية لمجموعة من محترفي الشطرنج، وأدت النتائج التي توصل إليها إلى تغيير معتقد قديم آخر عن الشطرنج. فكثيرًا ما كان يفترض

أن سرعة الحساب هي أحد العناصر الجوهرية لإتقان الشطرنج، فاللاعبون المتمرسون أكثر قدرة على التفكير في النتائج المحتملة في كل خطوة يقدمون عليها أكثر من المبتدئين، وقد اكتشف "دي جروت" 31 أن لاعب الشطرنج العادي الحاصل على تصنيف يصل إلى 2500 لا يختلف عن اللاعب العادي ذي التصنيف 2000 من حيث عدد الخطوات التي يفكر فيها، لكن ما منح أصحاب الترتيب العالي أفضلية على غيرهم، هو أن الخطوات التي فكروا فيها كانت هي الخطوات الصحيحة بطريقة ما، فقد أمدتهم الخبرات التي عايشوها بالقدرة الغريزية على معرفة الخطوات المحتملة التي عليهم أن يأخذوها بجدية، فلم يفكروا قط في الخيارات الضعيفة.

ولكن إن لم تكن الذاكرة البصرية لدى لاعبي الشطرنج المحترفين أفضل من غيرهم، ولم يكونوا قادرين على تحليل النتائج المحتملة بشكل أسرع، فما الذي يميزهم عن المبتدئين؟ قد تكمن الإجابة في وجود قدرة أكبر لديهم على أداء مهمة ذهنية واحدة تعتمد على نقاط القوة النفسية والقدرة المعرفية بالقدر نفسه: وهذه المهمة تعرف بالدحض.

في مطلع القرن العشرين، قال الفيلسوف النمساوي "كارل بوبر" إن طبيعة التفكير العلمي تقتضي بأنه لا يمكن التأكد من صحة النظريات العلمية، والطريقة الوحيدة لاختبار صحة أية نظرية إنما تكون بمحاولة إثبات خطئها، ويعرف هذا الإجراء بمحاولة الدحض. وقد شقت هذه الفكرة طريقها إلى العلوم المعرفية، مع ملاحظة أن معظم الناس لا يجيدون مفهوم محاولة دحض النظريات على الإطلاق - وهذا الأمر لا يقتصر على العلم فقط، بل يشمل الحياة اليومية. فعند اختبار نظرية ما - سواء أكانت كبيرة أم صغيرة - لا يبحث الشخص الذي يختبر النظرية تلقائيًا عن أدلة تنقضها، بل يبحث عن بيانات تبرهن على صحتها، ويعرف هذا الميل بانحياز التأكيد، وقد تبين أن القدرة على التغلب على هذا النوع من الانحياز تعد عنصرًا حاسمًا في النجاح في لعبة الشطرنج.

وفي عام 1960 خرج عالم النفس الإنجليزي "بيتر كاثارت واسون" (وهو أحد المتحمسين للعبة الشطرنج) بتجربة مبتكرة لإثبات ميلنا الطبيعي إلى تأكيد أفكارنا بدلًا من

دحضها، وقيل للمشاركين في التجربة إنهم ستقدم إليهم سلسلة مكونة من ثلاثة أرقام تتبع قاعدة معينة لا يعرفها سوى القائم على التجربة، وكان عليهم اكتشاف هذه القاعدة، ويمكنهم اكتشافها بعرض سلاسل أخرى تتكون من ثلاثة أرقام على القائم بالتجربة وسؤاله عما إن كانت القاعدة تنطبق على تلك السلاسل.

وكانت سلسلة الأرقام التي تعرض على المشاركين شديدة البساطة، فهي تشبه هذه السلسلة:

2 - 4 - 6.

فلتجرب الأمر بنفسك: ما أول تخمين لك عن القاعدة التي تحكم هذه الأرقام؟ وما السلسلة الأخرى التي يمكن أن تختبرها مع القائم على التجربة لكي تعرف ما إن كان تخمينك سليماً؟

وإذا كنت شخصاً عادياً مثل معظم الناس، فإن أول تخمين لك عن هذه القاعدة هو "أنها أعداد زوجية تصاعدية" أو "أعداد يزيد كل منها عن الآخر باثنين"؛ ومن ثم يمكنك أن تخمن شيئاً من قبيل هذه السلسلة:

8 - 10 - 12.

وهنا يقول لك القائم على التجربة، "نعم!". هذه السلسلة تنطبق عليها القاعدة، ما يزيد من ثقتك بتخمينك، ولكي تؤكد نبوغك وذكاءك تقوم باختبار آخر من باب الاجتهاد - مثل:

20 - 22 - 24.

ويرد عليك القائم على التجربة، ويقول "نعم!". ما يزيدك حماساً، فتصرح بتخمينك بفخر وتقول: "إن القاعدة هي الأعداد الزوجية التي تزيد بإضافة اثنين في كل مرة".

فيقول لك القائم على التجربة: "لا!".

ويتضح لنا أن القاعدة هي "أي رقم تصاعدي". ومن ثم فإن السلسلة 8-10-12 تنطبق عليها القاعدة، وهذا صحيح لكن الأمر نفسه ينطبق على السلسلة 3-2-1 أو 512-23-4. إن أفضل طريقة للفوز في اللعبة هي أن تخمن السلاسل العددية التي تبرهن على خطأ نظريتك المفضلة - وهذا أمر نحن مدفوعون إلى تجنبه.

وقد تقول لنفسك إنك لن تقع في هذا الشرك أبدًا، وإنك ستكون أكثر حذرًا، وقد يكون رأيك هذا حقيقيًا، لكن أغلب الناس ليسوا كذلك. ففي دراسة "واسون" لم يتمكن من تخمين القاعدة الصحيحة سوى واحد من كل خمسة أفراد من المشاركين³². والسبب في أننا لا نجيد مثل هذه الألعاب هو أننا نميل بطبيعتنا إلى الانحياز التأكيدي: فنحن نشعر بشعور أفضل كثيرًا عندما نجد دليلًا يؤكد صحة ما نؤمن به بخلاف ما تكون عليه الحال عندما نجد دليلًا يدحض صحة شيء نؤمن به، فلماذا سنبحث عن شيء قد يصيبنا بخيبة الأمل؟

ويتبين لنا أن الانحياز التأكيدي يمثل مشكلة كبيرة للاعبين الشطرنج، واستنادًا إلى النتائج التي توصل إليها "واسون"، قامت كل من "ميشيل كاولي" و"روث بايرن" - وهما باحثتان في جامعة دبلن - بإجراء مقابلات مع مجموعتين من لاعبي الشطرنج، ينتمي جميع أعضائهما إلى الاتحاد الأيرلندي للشطرنج: وكانت إحدى المجموعتين مكونة من لاعبين مبتدئين يصل تصنيفهم إلى 1500، أما المجموعة الأخرى فقد كانت مكونة من اللاعبين الخبراء الذين كان تصنيفهم يتراوح بين 2000 و 2500، وقد عُرضت على أفراد المجموعة أوضاع معينة لرقعة الشطرنج في وسط المباراة، وطلب منهم أن يختاروا أفضل خطوة تتلو الوضع الحالي - وفي أثناء قيامهم بذلك يسجلون ما يدور في أذهانهم على شريط: فيذكرون الحركات التي كانوا يفكرون فيها، وتوقعهم رد الخصم على كل خطوة يقومون بها، واستجاباتهم لردود الخصم - وهذه على وجه التحديد هي الخطوات التي ينتهجها لاعب الشطرنج الجيد، وهو جالس أمام رقعة الشطرنج. ثم استخدمت كل من "كاولي" و"بايرن" 33 برنامجًا يدعى فريتز لتحليل الشطرنج بغرض الوقوف على مدى دقة التحليل الذي يقوم به كل لاعب.

ولم تكن النتيجة مفاجئة، فقد كان قيام اللاعبين الخبراء بتحليل مواقفهم أكثر دقة من المبتدئين. أما الأمر الذي كان مفاجئاً، فهو السبب الذي جعل تحليلهم أفضل. ويمكننا أن نعبر عن هذا السبب بأنهم كانوا أكثر تشاؤماً. فالمبتدئون عندما يجدون أمامهم خطوة مغرية لهم، كانوا يسقطون فريسة انحياز التأكيد³⁴، فقد كانوا لا يرون سوى الطرق المؤدية إلى النجاح، ويتجاهلون الفخاخ التي من الممكن أن يقعوا فيها، أما الخبراء فكانوا على العكس من ذلك، إذ كانوا يرون النتائج المرعبة التي تكمن في كل زاوية على رقعة الشطرنج. لقد كان اللاعبون الخبراء قادرين على دحض فرضياتهم؛ ما جنّبهم الفخاخ المميتة.

عندما سألت "شبيجل" عن دراسة جامعة دبلن، قالت إنها تتفق معها، فلاعب الشطرنج يحتاج إلى بعض التشاؤم بشأن نتيجة كل خطوة يقوم بها، ولكنها كانت ترى أن لاعب الشطرنج من الأفضل له أن يكون متفائلاً عندما يتعلق الأمر بقدرته الشاملة بوصفه لاعب شطرنج. وقالت: إن الأمر يشبه التحدث أمام جمع من الناس: إذ إنك ستكون في ورطة إذا لم تكن شديد الثقة بنفسك عندما تتكلم عبر مكبر الصوت، فالشطرنج لعبة معقدة بطبيعتها. وقالت لي: "أنت لن تتوقف عن الوقوع في أخطاء ساذجة مهما كنت بارعاً، وهذه الأخطاء ربما تدفعك إلى الرغبة في تعذيب نفسك بسبب وقوعك فيها". ومن العناصر الأساسية لإتقان لعبة الشطرنج الثقة بأن القدرة على تحقيق الفوز كامنة في داخلك.

ولقد عاينت هذه الظاهرة على الطبيعة في اليوم الذي زرت فيه نادي مارشال للشطرنج مع "شبيجل" وطلابها، حيث لعب "يوري لابشن" صباح ذلك اليوم - قبل أن يخسر أمام "جيمس بلاك" - مع طالب آخر من مدرسة إنترميديات سكول 318 يدعى "شون سويندل"، وهو فتى أمريكي من أصول أفريقية ضئيل الجسد، وكان "شون" في الصف الثامن، ويرتدي خاتماً من الألماس، وتصنيفه في ذلك الوقت كان في حدود 1950. وعندما وجد "شون" نفسه يلعب أمام لاعب يزيد عليه بخمسائة نقطة من حيث التصنيف شعر بأنه سيهزم لا محالة، وكان "شون" يلعب بالقطع ذات اللون الأبيض؛ ما أعطاه ميزة اتخاذ الخطوة الأولى، وقد قال لي بعد ذلك إن الفكرة الأولى التي خطرت له هي استياؤه من

اللعب بالقطع ذات اللون الأبيض، أما "جيمس بلاك" فكان على النقيض من ذلك، فقد خاض المباراة مع "لابشن" وهو مقتنع تمامًا بأنه قادر على أن يهزم محترفًا عالميًا - واقتناعه بذلك قد يبدو فكرة حمقاء ومتهورة، لكن اتضح أنها كانت فكرة صحيحة تمامًا.

10. يوم الأحد

خاض كل لاعب في مسابقة كولومبوس سبع مباريات - اثنتين يوم الجمعة، وثلاثًا يوم السبت، وكانت المباراتان النهائيتان يوم الأحد. وفي صباح يوم الأحد؛ لم يكن أحد من فريق مدرسة إنترميديايت سكول 318 قد خرج من مركز المؤتمرات، وذلك منذ بدء المسابقة، فكانوا يتجولون في داخل المبنى، فتارة يذهبون إلى قاعة الطعام وقاعة اللعب، والغرف المخصصة لهم في الفندق، وغرفة الفريق في الوحدة ب، ولم يفكر أحد في الخروج في الهواء الطلق، وفي لوحة تسجيل النتائج كانت مدرسة إنترميديايت سكول 318 متقدمة تقدمًا كبيرًا في مجموعة الصف الثامن، وإن لم يكن لها التقدم نفسه في مجموعة الصف التاسع، وقد فاز "جيمس بلاك" في مبارياته الخمس الأولى، ثم تعادل في المباراة السادسة صباح يوم الأحد، وكان فريق الصف الثامن متأكدًا من الفوز بالكأس في الجولة الأخيرة، وكان "جيمس" من بين أفضل خمسة لاعبين. وإذا فاز في المباراة الأخيرة فيمكنه أن يفوز بالكأس الفردي، وهو شيء لم يبلغه أحد من لاعبي مدرسة إنترميديايت سكول 318 في مسابقات طلاب المرحلة الإعدادية.

وكان أداء فريق مجموعة الصف التاسع سيئًا في الجولة التي خاضها صباح يوم الأحد، حيث كانت خسارة "جاستوس" صادمة إلى حد بعيد، ومن بين اللاعبين الأربعة الآخرين الذين كانوا أمام فرصة أن يكونوا هم الأعلى من حيث النتائج على مستوى الفريق، خسر اثنان منهم، وتعادل واحد، ولم يفز سوى واحد فقط. لقد ظلوا في الصدارة، وسيخوضون الجولة النهائية لكن فرصهم تتضاءل. أما "شبيجل" فقد أعاد إليها هذا الموقف ذكريات سيئة عن العام الماضي، عندما كان لدى فريق الصف التاسع نصف نقطة تؤهله لخوض الجولة السابعة والنهائية، ثم ضاعت تلك الفرصة: فقد خسر كل لاعب من اللاعبين الستة

الأفضل في الفريق في مبارياته الأخيرة، وتراجعت مدرسة إنترميدياات سكول 318 من المستوى الأول إلى المستوى الثالث. (وكتبت "شبيجل" في مدونتها تقول: "كان مستوى الفشل أمرًا لا يمكن تصوره").

وفي هذه السنة كان قد تم تحديد موعد بدء الجولة النهائية في الساعة الثانية ظهرًا، وفي الساعة 1:40 ظهرًا كان "جيمس" جالسًا إلى الطاولة المقابلة لـ "بريليلتنسكي" يتحدث عن الإستراتيجيات، كان "جيمس" يلعب على الرقعة رقم واحد، أي أنه كان جالسًا على عتبات السلم الموجودة في مقدمة صالة اللعب، أي أنه كان معزولًا عن آلاف اللاعبين الآخرين، وكان مرتفعًا عنهم. وكان سيلعب باللون الأسود أمام "بريان لي" - وهو طالب في الصف الثامن من إحدى ضواحي واشنطن العاصمة، وكان يشعر بأن "لي" سيهجم هجومًا كبيرًا. وكان حديثه مع "بريليلتنسكي" يتعلق بالنواحي الفنية بما يتخطى قدرتي على الاستيعاب - ما الحركة التي سيقدم عليها "جيمس" في الحركة الثالثة له، هل هي d5 أم e5؟ وما القطعة التي يُفترض أن تهاجم القطعة الموجودة في المربع 6d؟ - ولكن سرعان ما اتضح لي أن ما كان يريده "جيمس" من "بريليلتنسكي" هو رفع ثقته بنفسه: كان "جيمس" يحتاج إلى أن يتأكد مرة أخرى من خطواته الأولى وغيرها من الخطوات؛ لقد كان يعرف ما يقوم به بشكل عام.

وبدأ يسيران نحو صالة اللعب قبل أن تدق الثانية ببضع دقائق، كان "جيمس" يرتدي سترة سوداء ذات قلنسوة، وبنطالًا داكنًا، وبدا عليه التوتر. ووضع أقدامهما معًا على السلم المتحرك.

قال بريليلتنسكي محدثًا جيمس: "تذكر؛ الهدوء والتركيز والثقة، حسنا؟".

وضع جيمس القلنسوة فوق رأسه، ونظر إلى السقف، وقال بصوت هادئ: "إنني متوتر".

فقال له "بريليلتنسكي": "هل أنت متوتر؟". فانحنى إلى الأسفل إلى جانب "جيمس" وكأنه مدرب يجهز ملاكمه للقتال، وقال له: "هل تعرف من الشخص المتوتر الآن في

الحقيقة يا جيمس؟ إنه بريان لي. هل تعرف السبب؟ لأنه منذ نحو عشرين دقيقة ربما يكون قد ذهب لينظر إلى اللوحة التي توضح أيًا من اللاعبين سيلعب أمام الآخر، وقد اكتشف أنه سيلعب أمام جيمس بلاك، في الجولة الأخيرة، ويمكنني أن أخبرك بأنه ليس هناك من يخشاه منذ بداية المسابقة، أو في حياته كلها كذلك كما يخشاك".

فابتسم "جيمس".

وهنا استدار "إيزاك باراييف" - أحد زملاء "جيمس" في الفريق، وكان يسبقه بدرجتين على السلم المتحرك - نحو "جيمس" و ناداه قائلاً: "جيمس، إذا فزت في هذه المباراة فسوف تحصل على...".

وقاطعه "بريليتنسكي" قائلاً: "إيزاك، آيزاك، آيزاك!". هو لم يكن يريد أن يفكر "جيمس" في الفوز، أو الجوائز، أو النتائج بل كان يريد أن يركز على المباراة فقط، واستدار نحو "جيمس" وقال له: "قم بما عليك فحسب يا جيمس كن متروياً وخذ وقتك وتحلّ بالثقة، هل تفهم ذلك؟"

وتبين أن "جيمس" كان يفهم ذلك فعلاً. فقد ظل يلعب مع "بريان لي" مدة ثلاث ساعات وعشر دقائق. وبينما كانا يلعبان كان "جيمس" يرى أنه سيتعادل لكن في الخطوة السابعة والعشرين قام "بريان" بعملية مبادلة غريبة، فقد ضحى بالوزير من أجل رخ وفيل، ومنذ تلك اللحظة شعر "جيمس" بأنه يسيطر على الوضع. وفي النهاية - في الخطوة الثامنة والأربعين - أسر بحصانه أحد البيادق المهمة، وعندها استسلم "بريان" بعد أن أدرك أنه مهزوم لا محالة، فأسرع "جيمس" عائداً إلى غرفة الاتحاد حيث تم استقباله بالأحضان وإشارات التشجيع. فقد فاز بالبطولة الفردية، وكان فوزه يعني أن مجموعة الصف الثامن قد ضمنت الفوز بالبطولة للفريق (كما ضمنت مجموعة الفصل التاسع الفوز أيضاً). فأخرج "جيمس" هاتفه الخليوي ليتصل بوالده.

كانت "شبيجل" متحمسة لفوز "جيمس"، لكن أكثر لحظاتها انفعالا في المسابقة كانت اللحظة التي دخل فيها "داني فينج" - وهو أحد طلاب الصف الثامن، وكان طويلاً وذا شعر طويل، وقليل الكلام - الغرفة وأعلن أنه قد فاز أيضاً، وبهذا يكون قد فاز بست جولات في المسابقة المكونة من سبع جولات، ولم تكن نتيجته هي أكثر ما أثار انفعالها، بل الطريقة التي كان يلعب بها، فمنذ كان في الصف السادس كانت "شبيجل" تدرّس له الشطرنج، حيث كان حينها لا يزال مبتدئاً ويعرف بشكل ضئيل كيف يحرك القطع المختلفة، فهي التي علمته كل ما يعرفه عن الشطرنج بالمعنى الحرفي للكلمة.

وقام "داني" بصف القطع على رقعة الشطرنج ليبريها كيف تمكن من تحقيق الفوز الذي كان صعب المنال - كان قد ارتكب خطأ كبيراً في البداية، ما أفقده بيدقاً على الفور، وهو خطأ يقع فيه المبتدئون دون المحترفين، لكنه أخذ يقاوم خصمه بترؤ، حتى أصبح موقفه أفضل من موقف خصمه مع نهاية المباراة - حيث كان يملك رخاً وبيدقاً ضد البيدق الوحيد المتبقي لدى خصمه، لقد كان من الصعب عليه أن يحقق الفوز في لعبة كانت غالباً ما تنتهي بالتعادل، ولكن "داني" أخذ يسحب البيدق خطوة تلو أخرى نحو الصف الخلفي حيث تمت ترقيته إلى وزير. وعندما كان "داني" يحلل مبارياته مع أحد معلميه أو مدربيه كان يحرك القطع بهدوء، لكنه في هذه المرة كان يضرب بها على الرقعة كما فعل كل من "شون" و"جيمس"، فقد كان فخره بنفسه واضحاً. ولم تتمالك "شبيجل" نفسها، فأخذت تبكي؛ لأنها هي من علمته كيفية إنهاء اللعبة بهذه الطريقة، وشاهدته وهو ينفذ الخطوات الأخيرة بإتقان شديد.

أما الطلاب الذين كانوا يشاهدونه فكادوا يكذبون أعينهم. وبعدها قال "وارين زانج" لـ"بريليلتنسكي" وهما في مصعد الفندق: "هل كانت المعلمة 'شبيجل' تبكي فعلاً بسبب المباراة التي خاضها 'داني'؟"

فقال "بريليلتنسكي": "بالطبع؛ لقد كانت مباراة رائعة" 35.

11. الاختبار

وفي الشهر التالي قامت مدرسة إنترميديات سكول 318 بعمل أكثر روعة - حيث قام كل من "جيمس" و"جاستوس" و"آيزاك" و"داني" بفارق نصف نقطة بتحقيق الفوز ببطولة المدارس الثانوية على الرغم من أنه لم يكن من بينهم أحد في المرحلة الثانوية، فقد تمكنوا من هزيمة فرق تنتمي إلى بعض أفضل المدارس الثانوية على مستوى البلاد - مثل مدرسة برونكس ساينس ومدرسة ستوفيسانت في نيويورك، ومدرسة ويتني يونج في شيكاغو، ومدرسة ليكسايد سكول في سياتل (وهي المدرسة الأم لـ"بيل جيتس") - وذلك قبل أن يخسروا في الجولة الأخيرة أمام فريق من مدرسة هانتر كوليدج هاي سكول.

ولم يحصل "جيمس بلاك" إلا على إحدى عشرة نقطة إضافية لتصنيفه في مسابقة المدارس الإعدادية، على الرغم من فوزه المدوي في مسابقة كولومبوس، وبذلك يكون تصنيفه قد تحول من 2149 إلى 2160 - وهو بذلك لا يزال بحاجة إلى أربعين نقطة كي يتم اعتماده لاعبًا محترفًا، وظل ترتيبه يتقدم ويتراجع مرة بعد أخرى طوال فصل الربيع حيث اقترب من 2200 ثم أخذ يتراجع بعد ذلك. وفي النهاية هزم "جيمس" "مايكل فينيران" في نادي مارشال في السابع عشر من شهر يوليو، و"مايكل فينيران" هذا يبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا، ويعيش في ولاية كونيتيكت، فوصل تصنيفه إلى 2205. وبذلك تم اعتماد "جيمس" أستاذًا في الشطرنج على مستوى البلاد. ومع بداية شهر سبتمبر أقام "جيمس" حفلًا تحت ظل أشجار حديقة فولتون بارك في وسط حي بيدفورد - ستوفيسانت، وجلس الحاضرون على كراسي قابلة للطي، وقدمت إلى "جيمس" كعكة وضعت فوقها صورة شخصية له وهو يلعب الشطرنج، وهي صورة مصنوعة من الحلوى ذات إطار من الكريمة المخفوقة، وكان من بين الحضور "موريس آشلي" وهو الأستاذ الكبير الأول والأوحد الذي ينتمي إلى أصول أفريقية، وهو لا يزال يحمل هذا اللقب، وقد أدخل "جيمس" و"جاستوس" و"جوشوا كولاس" - وهو لاعب من مدينة وايت بليز في نيويورك، ويبلغ من العمر اثني عشر عامًا - إلى مجتمع أنشئ حديثًا يسمى نادي يانج بلاك ماسترز، وبعد سنة من اعتماد "جاستوس" بوصفه أول محترف أمريكي تحت سن

الخامسة عشرة من أصول أفريقية، حصل ثلاثة على اللقب نفسه ممن هم تحت سن الثالثة عشرة، وهذا الأمر لا يعد مدعاة إلى الفخر لأسر هؤلاء اللاعبين فحسب، بل للاعبين الشطرنج الذين ينتمون لأصول أفريقية، ولمشجعيهم في مختلف أنحاء البلاد.

وفي تلك الحفلة، ألقت "شبيجل" حديثًا، قالت فيه إنها على الرغم من فخرها بالإنجاز الذي حققه "جيمس" فإنها أشد فخرًا بما أبداه من إصرار وعزيمة. وأخذت تتكلم عن قصته مع الشطرنج خلال السنة الماضية، وكيف أنه كان يتقدم ويتراجع نحو تصنيف 2200 مرة بعد أخرى إلى أن أخذ يتراجع عن هذا الترتيب بعد ذلك، وقالت للحضور: "تخليلوا مدى الإحباط الذي قد يسببه ذلك التراجع ومشاهدة الجميع ذلك التراجع، وسؤالهم إياه عما وصل إليه، وتوقعهم تقدمه ونجاحه36".

واستطردت "شبيجل"، "لقد ظل جيمس ما يزيد على العام يدرس التكتيكات، ويقوم بحلها، ويلعب المباريات ويحللها، ويواجه أخطاءه وسوء فهمه، ومع هذا نجد أنه لم يستسلم. وقد خاض خلال السنة الماضية خمسًا وستين مسابقة و301 مباراة مصنفة، وكان يلعب في المباريات حتى الساعة الحادية عشرة مساءً، ثم يستيقظ كل صباح ليدرس التكتيكات مدة نصف ساعة قبل الذهاب إلى المدرسة، لقد بذل جهدًا كبيرًا بصبر عظيم على مدار فترة طويلة، وهذا هو أكثر ما أحترمه في شخصية 'جيمس'".

وفي فصل الربيع الذي تلا مسابقة المدرسة الإعدادية، كلفت "شبيجل" نفسها بمهمة جديدة، وفي شهر أكتوبر الذي يتلو ذلك كان هناك آلاف الطلاب في الصف الثامن في مدينة نيويورك سيخوضون اختبارًا شاقًا، يعرف بالاختبار الخاص للقبول بالمدارس الثانوية: ومن ينجح في هذا الاختبار سيدخل إلى إحدى أفخم المدارس الثانوية الانتقائية في المدينة بما فيها مدرسة ستوفييسانت، ومدرسة بروكلين تيك، ومدرسة برونكس ساينس. وهنا قررت "شبيجل" أن تتطوع لتدريب "جيمس" على هذا الاختبار، فقال لها "جون جالفين" - نائب مدير المدرسة - إنها قد كلفت نفسها بمهمة مستحيلة، ذلك أنه من المستحيل لطالب حصل على درجات أقل من المتوسط في الاختبارات القياسية على

مستوى الولاية أن ينجح في اختبارات المدارس المتخصصة، لكن لأن "شبيجل" كانت قد رأت "جيمس" وهو يتقن لعبة الشطرنج، ويتشرب فنونها بسرعة مذهلة، كانت لديها ثقة بقدرته على التعلم، وقد جاء في رسالتها التي أرسلت بها إليّ عبر البريد الإلكتروني في شهر أبريل: "أتصور أنني في غضون ستة أشهر - إذا كان مهتمًا بالأمر وعلى استعداد لبذل الجهد المطلوب - سأتمكن من تعليم طفل ذكي أي شيء، ألا توافقني الرأي؟"

ومع هذا فقد أخبرتني "شبيجل" في منتصف شهر يوليو بأنها بدأت تشعر بالإحباط. لقد كانت تبذل جهدًا كبيرًا مع "جيمس"، وكان هو أيضًا يطبق ما يتعلمه في أيام الصيف ذات الحرارة الشديدة كذلك، ولكن "شبيجل" كانت قلقة من الكم الكبير من المعلومات التي يجهلها "جيمس"، فهو لم يكن يستطيع أن يحدد موقع قارتي أفريقيا أو آسيا على الخريطة، أو أن يذكر دولة أوروبية واحدة، وعندما كانت تدربه على القراءة والفهم لم يكن يعرف كلمات مثل *infant* (التي تعني طفلًا)، و *communal* (التي تعني اشتراكياً)، وكلمة *beneficial* (التي تعني مفيدًا أو نافعًا). وبحلول شهر سبتمبر كانا يعملان معًا بعد المدرسة وفي عطلات نهاية الأسبوع عدة ساعات كل مرة، وبدأت "شبيجل" تشعر باليأس وهي تحاول أن تبقي الحالة المعنوية لـ "جيمس" مرتفعة في الوقت الذي كان يتجه فيه نحو الإخفاق. فعندما كان "جيمس" يصاب بالإحباط ويقول إنه لا يجيد التمثيل الجزئي، أو علم المثلثات، كانت "شبيجل" ترد عليه بطريقة مبهجة، وتخبره بأن الأمر أشبه بالشطرنج: فهو لم يكن يجيد شيئًا في لعبة الشطرنج منذ سنوات قليلة، ثم تلقى تدريبًا خاصًا، واجتهد في الممارسة حتى أتقنها. وقد قالت لي: "إنني أقول له: 'سندك بتدريب خاص في هذا الأمر أيضًا، وبعدها ستجيده'، وعندها يصبح سعيدًا كأنه يقول: 'حسنًا ليست هناك مشكلة'، ولكنني لم أكن أخبره بمدى صعوبة الأمر".

كان "جيمس" يمثل بالنسبة إليّ (وأظن أنه كان كذلك بالنسبة إلى "شبيجل") لغزًا صعبًا. فقد كان شابًا متقد الذكاء. (لا يمكنك أن تتفوق على كبار المحترفين الأوكرانيين إلا إذا كان لديك حظ وافر من الذكاء وذلك بغض النظر عن مفهوم الذكاء). وقد كان "جيمس" مثالًا للإصرار: فكان لديه هدف واضح، وكان متحمسًا لهدفه، واجتهد في الوصول إليه بفاعلية

ودون كلل. (وأنا لم أصادف طفلًا في مثل سنه يبذل جهدًا أكثر منه في أي شيء). ومع هذا فقد كان مستواه دون المتوسط وفقًا للمؤشرات القياسية للنجاح الدراسي، ما يعني أنه كان مقدرًا له أن يعيش كأى شخص عادي. وعندما تقارن تطلعات "جيمس" بتطلعات "ماش" أو غيره من طلاب مدرسة روزلاند، تجد أنك أمام قصة ناجحة، ولكن يمكنك أيضًا أن ترى قصة "جيمس" قصة أقل إلهامًا، فهي قصة تحكي عن إمكانيات لم يتم استغلالها، وعندما حدثتني "شبيجل" عن استعداد "جيمس" للاختبار، كانت تبدو مصدومة في بعض الأحيان بسبب جهله بالمعلومات التي لا علاقة لها بالشطرنج طوال تلك الفترة التي قضاها من حياته. وقد قالت لي: "إنني أشعر بالغضب من أجله، فهو يعرف عن الكسور الأساسية لكنه لا يعرف شيئًا عن الهندسة، وليست لديه أية فكرة عن كتابة المعادلات، فمستواه لا يتجاوز مستوى طالب الصفين الثاني أو الثالث. لقد كان عليه أن يتعلم المزيد من الأمور".

والامتحان المتخصص يصعب التحضير له بطبيعته، فهو مثل اختبار القبول يعكس ما حصله الطالب من معرفة ومهارات خلال سنوات، ومعظم هذه المهارات يتشربها الطالب بشكل غير مباشر من أسرته وثقافته في مرحلة الطفولة، ولكن كيف كان الأمر سيبدو لو أن "جيمس" بدأ التحضير للامتحان المتخصص في الصف الثالث لا السابع؟ وكيف كان الأمر سيبدو لو أنه وجه الطاقة نفسها التي وجهها إلى الشطرنج إلى التعليم، وتلقى المساعدة نفسها في تعلم الرياضيات والقراءة والمعلومات العامة؟ وماذا لو أتيح له العمل مع معلمين مبدعين وملتزمين مثل "شبيجل" و"بريليلتنسكي" في جميع المواد المقررة عليه؟ لا أشك في أنه كان سينجح في الاختبار الخاص، كما نجح في بطولات المدارس الإعدادية في لعبة الشطرنج.

وأنا أعلم بالطبع أن الحديث عن الماضي لن ينفع، فهو الآن في الثانية عشرة من عمره على أية حال، وفي النهاية لم يدخل "جيمس" إلى مدرسة ستوفيفيسانت، لكن لا تزال أمامه أربعة أعوام في المرحلة الثانوية (ولا شك في أنه خلال تلك السنوات الأربع سيهزم جميع لاعبي الشطرنج في فريق مدرسة ستوفيفيسانت). ولربما لم يكن من الممكن تحويله إلى طالب متفوق خلال ستة أشهر كما كانت "شبيجل" تتمنى، لكن ألا يمكن الوصول إلى هذا

الهدف في أربعة أعوام؟ إن كل شيء ممكن بالنسبة إلى طالب يمتلك هذه المواهب غير العادية، ما دامت هناك معلمة قادرة على جعل اهتمامه بالنجاح في المدرسة بقدر اهتمامه نفسه بالنجاح على رقعة الشطرنج.

4. كيفية تحقيق النجاح

1. لغز الكلية

كانت الولايات المتحدة تنفرد بجودة نظام التعليم العالي لديها طوال القرن العشرين تقريبًا، وكذلك بنسبة الشباب الذين يجتازون التعليم العالي بنجاح، وفي منتصف التسعينيات من القرن الماضي، صنفت معدلات التخرج في الجامعات الأمريكية لتكون الأعلى على مستوى العالم 1، فقد كانت أعلى من متوسط تصنيف الدول المتقدمة مرتين، ولكن الترتيب العالمي للتسلسل الهرمي للتعليم أصبح يتغير الآن تغيرًا سريعًا، فهناك كثير من الدول - النامية والمتقدمة - تمر بطفرة غير مسبوقة في التعليم الجامعي، وفي العقد الماضي تراجعت الولايات المتحدة من المركز الأول إلى المركز الثاني عشر² في النسبة المئوية لخريجي الكليات - وهم الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة والعشرين والرابعة والثلاثين - التي تستمر الدراسة فيها أربعة أعوام، حيث تقدمت عليها مجموعة متنوعة من المنافسين تضم المملكة المتحدة، وأستراليا، وبولندا، والنرويج، وكوريا الجنوبية.

وليس السبب في ذلك هو انخفاض نسبة المنتسبين إلى التعليم الجامعي في الولايات المتحدة - بل كانت تلك النسبة تتزايد ببطء شديد³ فيما تقدمت هذه النسبة في أمم أخرى بصورة كبيرة، ففي عام 1976 كان هناك 24 % من الأمريكيين⁴ قد حصلوا على شهادات جامعية من الكليات التي تستمر الدراسة فيها أربع سنوات، وهم في أواخر العشرينيات من عمرهم، وفي عام 2006 - أي بعد ثلاثين عامًا - لم ترتفع هذه النسبة إلا لتصل إلى 28 %، ولكن هذا الرقم الثابت نسبيًا كان يخفي تزايدًا في الانقسام الطبقي، ففي الفترة من عام 1990 إلى عام 2000، ارتفعت نسبة الحاصلين على البكالوريوس بين الطلاب الأثرياء - الذين تخرج كلا والديهم أو أحدهما على الأقل في الجامعة - من 61% إلى 68%، في حين أن - وفقًا لتحليل آخر - الطلاب الأمريكيين الذين ينتمون إلى أسر فقيرة² - وهي الأسر الأقل دخلًا، التي لم يتخرج فيها أحد الوالدين في الجامعة - قد انخفضت النسبة

فيهم من 11.1% إلى 9.5%، وفي هذه الفترة التي يتصاعد فيها التنافر، يصبح هذا الاتجاه الذي نراه لمعدل التعليم طبيعيًا: فهو مجرد مؤشر آخر يشير إلى التباعد بين الطبقات في الولايات المتحدة. لكن من الجدير بالذكر أن ننبه إلى أن الأمور كانت مختلفة تمامًا في القرن الماضي.

وقد سجل كل من "كلوديا جولدن" و"لورنس كاتز" - عالمي الاقتصاد في جامعة هارفارد - قصة التعليم العالي في أمريكا، وكيف أنه كان يمثل قصة تحقق مبدأ الديمقراطية في القرن العشرين، وقد جاء ذلك في كتابهما الصادر في عام 2008 بعنوان *The Race Between Education and Technology*، فلم يتخرج في الكلية سوى 5% من الذكور الأمريكيين المولودين عام 1900، وكان هؤلاء متميزين في كل شيء: فقد كانوا أثرياء، وتجمعهم روابط جيدة، وكانوا ينتمون إلى الأمريكيين البيض، لكن في الفترة من 1925 و61945 تضاعفت نسبة خريجي الكليات من الأمريكيين الذكور من 5% إلى 10%، ثم تضاعفت النسبة مرة أخرى في الفترة من 1945 حتى 1965، وذلك بفضل قانون إعادة تأهيل رجال الخدمة العسكرية، الذي ساعد الملايين منهم على دخول الكليات. (وبالنسبة إلى السيدات، فقد كانت الزيادة في معدل التخرج في الكليات زيادة معتدلة حتى مطلع الستينيات من القرن الماضي، وبعدها زاد المعدل لدى السيدات عنها لدى الرجال)، الأمر الذي أدى إلى كثرة التنوع الطبقي والفئوي في الكليات، ولم تعد مقتصرة على نخبة المجتمع، وهكذا وجد أبناء عمال المصانع أنفسهم يجلسون في قاعات المحاضرات ومعامل العلوم إلى جانب أبناء ملاك المصانع، وجاء في كتاب "جولدن" و"كاتز": "اتسم المجتمع الأمريكي بالتحرك في الحراك التصاعدي فيما يتعلق بالتعليم 7 فأخذ كل جيل يحقق مستوى تعليميًا يفوق كثيرًا ما حققه الجيل السابق" 8. ولكن توقف الآن هذا التقدم، أو أصبح بطيئًا للغاية على الأقل، وتوقف نظام التعليم العالي عن كونه أداة إحداث الحراك الاجتماعي والنمو، كما كان في القرن العشرين.

فإلى وقت قريب كانت السياسات التعليمية المعنية بمشكلات التعليم العالي في أمريكا تصب جل تركيزها على الدخول إلى الكليات 9، وكيفية زيادة عدد الشباب، خاصة من

ينتمون إلى أسر فقيرة الذين حصلوا على الشهادة الثانوية والتحقوا بالكليات. ولكن أصبح من الواضح على مدار السنوات القليلة الماضية أن الولايات المتحدة لا توجد لديها مشكلة في وصول شبابها للكليات، أو عدم إتاحة الفرص المتكافئة لهم في الدخول للكليات، ولكن كانت المشكلة في قلة عدد من يُتمون الدراسة في الكليات، أو عدم إتاحة الفرص المتكافئة لذلك. ولا تزال الولايات المتحدة تحتل المركز الثامن 10 بين أربع وثلاثين دولة الأعضاء في مؤسسة التعاون الاقتصادي والتنمية فيما يتعلق بمعدلات الالتحاق بكلياتها، لكنها تحتل المركز قبل الأخير - قبل إيطاليا فقط - في معدل إكمال التعليم في الكلية 11 - وهي نسبة مئوية تبين إتمام الملتحقين بالكليات تعليمهم بها، وتخرجهم فيها. وكانت الولايات المتحدة منذ وقت ليس ببعيد هي الأعلى عالميًا من حيث عدد خريجي الكليات، أما الآن فهي الأعلى من حيث عدد المتسربين من التعليم الجامعي.

وأكثر ما يحير حيال هذه الظاهرة هو أنها تحدث في الوقت نفسه الذي ارتفعت فيه قيمة التعليم في الكليات الأمريكية لتصل إلى حدود السماء، فمن المتوقع الآن أن يجني حامل شهادة البكالوريوس في أمريكا دخلًا يزيد بنسبة 83% 12 على الدخل الذي يجنيه حامل الشهادة الثانوية فقط، وهذا الدخل المتميز للغاية - حسبما يسميه الاقتصاديون - هو من بين أعلى الدخول بين دول العالم المتقدم 13، وقد زاد دخل الحاصلين على الشهادات الجامعية زيادة كبيرة 14 منذ عام 1980، حيث كان الحاصلون على الشهادات الجامعية يحصلون على دخل أعلى مما يحصل عليه حاملو الشهادة الثانوية بنسبة 40% فقط 15. وكما كتبت كل من "جولدين" و"كاتز" في كتابهما، إن الشاب الأمريكي الذي يترك التعليم الجامعي وهو قادر على إتمامه، إنما يترك مبالغ كبيرة من النقود ملقاة على الطريق 16.

نحن إذن أمام لغز: لماذا يتسرب عدد كبير من الطلاب الأمريكيين من الكليات على الرغم من القيمة الكبيرة للشهادة الجامعية، في الوقت الذي أخذت تتزايد فيه أعداد خريجي الكليات في بقية أنحاء العالم؟

2. خط النهاية

كانت أفضل إجابة عن هذا السؤال هي التي قدمها كتاب: *Crossing the Finish Line* الصادر عام 2009، وهو عبارة عن عمل مشترك قام به رئيسان سابقان من رؤساء الكليات كان كل منهما من علماء الاقتصاد، وهما "ويليام جي. باون" - رئيس جامعة برينستون في الفترة بين عامي 1972 و1988، و"مايكل إس. مكفيرسون"، الذي كان رئيسًا لكلية ماكاليستر في ولاية مينيسوتا عشرة أعوام تقريبًا، وقد تمكن كل من "باون" و"مكفيرسون" بفعل مكانتهما في المؤسسة التعليمية - بالإضافة إلى مؤلف مساعد آخر، وهو الباحث "ماثيو تشينجوس" - من إقناع ثمان وستين كلية عامة - بالإضافة إلى مجلس الكليات ومؤسسة ACT غير الربحية والمعنية باختبارات القبول في الكليات - بإمدادهما بمعلومات أكاديمية مفصلة تشمل نحو مائة ألف طالب 17. وقد اكتشفوا في تلك المعلومات بعض الحقائق المدهشة حيال الطلاب الذين أتموا الكلية بنجاح والطلاب الذين تسربوا من الكلية وأسباب ذلك.

وفي بعض الدوائر، كان يتم تفسير ظاهرة التسرب من التعليم الجامعي باعتبارها مشكلة ناجمة عن الطموح الجامح وغير الواقعي من قبل عدد كبير من الطلاب، خاصة الذين ينتمون إلى أسر فقيرة منهم. وقد قال المؤلف الذي يتبع توجه المحافظين "تشارلز موراي" هذا الأمر في كتابه *Real Education* الصادر عام 2008: إن الأزمة الحقيقية في التعليم العالي الأمريكي لا تكمن في قلة عدد من يلتحقون به، بل في زيادة عددهم على الحاجة، ويقول "موراي": وبسبب وجود ميل طبيعي لدى الأمريكيين 18 إلى "الخيال في التعليم"، فإننا ندفع بطلابنا إلى الكليات، في حين أنهم لا يمتلكون الذكاء الذي يمكنهم من النجاح فيها، فمستشارو التوجيه في المرحلة الثانوية ومسؤولو القبول في الكليات يشجعون الطلاب ذوي الذكاء المنخفض ومستوى الدخل المتدني على الالتحاق بالكليات التي تطلب منهم قدرات ذهنية عالية، وهم مدفوعون في هذا بـ "التفكير الحالم 19 والعبارات المنمقة ومفاهيم المساواة التي تنطلق بحسن نية"، وعندما يكتشف هؤلاء الطلاب أنهم لا يمتلكون الذكاء اللازم للاستمرار في الدراسة في تلك الكليات، فإنهم يتركونها، ويعتبر "موراي" - وهو المؤلف المساعد لكتاب *The Bell Curve* - أحد أشهر المتحمسين لدور المهارات

المعرفية، وما أطروحته في كتابه *Real Education* إلا تعبير صارخ عن الفرضية المعرفية، فنسبة الذكاء هي أهم شيء في تحديد النجاح، وهي ثابتة منذ وقت مبكر جدًا من حياة الفرد، فالتعليم ليس معنيًا بتزويد الأفراد بالمهارات بقدر ما هو معني بتصنيفهم وإتاحة الفرصة للأعلى ذكاءً منهم لاستغلال طاقاتهم.

ولكن عندما نظر "باون" و"مكفيرسون" و"تشينجوس" من قرب إلى المعلومات المتاحة لهم، اكتشفوا أن الطلاب ذوي الدخل المنخفض لم يتجاوزوا قدراتهم بصفة عامة عندما اختاروا كلياتهم، بل كان كثير منهم يرتاد كليات أدنى من التي يؤهلهم إليها مجموعهم التراكمي، أو اختبارات القبول القياسية، ولم تكن هذه الظاهرة - التي أسماها المؤلفون بـ"عدم التكافؤ" - تحدث كثيرًا مع الطلاب الذين ينتمون إلى أسر ثرية، وإنما كانت تمثل مشكلة تؤثر بشكل حصري تقريبًا في المراهقين الذين ينتمون إلى أسر فقيرة، وفي كارولينا الشمالية - وهي الولاية التي تمكن فيها الباحثون من جمع أكثر البيانات اكتمالاً - كان الاستمرار في ارتياد الكليات رفيعة المستوى من نصيب ثلاثة من كل أربعة طلاب من الأسر مرتفعة الدخل، الذين كان لديهم المجموع التراكمي ودرجات الاختبارات المطلوبة للقبول في إحدى الكليات العامة رفيعة المستوى في الولاية، فقد كانت منظومة التعليم الجامعي ناجحة بالنسبة إليهم، ولكن ثلث الطلاب فقط من الذين حصلوا على الشهادات العالية نفسها 20، ولم يرتد أي من والديهم الجامعة، هم من اختاروا ارتياد الكليات رفيعة المستوى، ولم يكن اختيار الكليات الأقل صعوبة يعني أن هؤلاء الطلاب المسلحين بمؤهلات عالية سوف يتخرجون فيها، بل كانت النتيجة على العكس من ذلك، إذ اكتشف المؤلفون أن عدم تكافؤ الكليات مع الإمكانيات الرفيعة للطلاب كان خطأً كبيرًا دائمًا.

ولكن على الرغم من أهمية المعلومات المتعلقة بعدم التكافؤ، فإنها لم تكن هي الأمر الأكثر أهمية أو إثارة للدهشة في كتاب *Crossing the Finish Line*، فقد اكتشف المؤلفون أيضًا أن درجات الطالب في اختبار تقييم الكفاءة أو اختبار القبول في الكليات - وهما الاختباران القياسيان للقبول في الكليات - ليست هي المؤشر الأكثر دقة 21 لتحديد ما إن كان الطالب سيتم الدراسة في الكلية بنجاح أم لا، بل قد تبين أن درجات اختبار القبول في الكليات لا

يكشف سوى القليل عما إن كان الطالب سيستمر في الكلية حتى يتخرج فيها، وذلك باستثناء الجامعات رفيعة المستوى. وكان المجموع التراكمي للطالب في الثانوية العامة مؤشراً أفضل على إتمام الطالب دراسته في الكلية.

لقد كان هذا الاكتشاف صادمًا بالنسبة إلى القائمين على اختبارات القبول في الكليات، وكان رفضًا لأحد المعتقدات الأساسية التي قامت عليها فكرة حكومة التكنوقراط الأمريكية في أواخر القرن العشرين. ويبين "نيكولاس ليمان" في كتاب *The Big Test* الذي يتحدث فيه عن الاختبارات القياسية للقبول في الكليات، أن اختبار تقييم الكفاءة الدراسية تم ابتكاره - في 22 السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية - بسبب الشكوك المتزايدة في قدرة الدرجات التي يحصل عليها الطالب في المرحلة الثانوية على التنبؤ بنجاحه في الكلية، فكيف كان من المفترض بالمسؤولين عن القبول في الكليات أن يقارنوا طالبًا حصل على درجة 23 ويرتاد مدرسة ثانوية في كاليفورنيا بطالب حصل على الدرجة نفسها، ولكنه يرتاد مدرسة ريفية في ريف بنسلفانيا، أو مدرسة حضرية في جنوب برونكس؟ لقد وضع اختبار تقييم الكفاءة الدراسية لمعالجة هذه المشكلة، ولتقديم أداة موضوعية يمكنها أن تستشف قدرة الطالب على النجاح في الكلية بشكل لا يقبل الجدل. ولكن في الكليات التي درسها كل من "باون" و"تشينجوس" و"مكفيرسون" تبين أن درجات طلاب المرحلة الثانوية كانت 35 تمثل مؤشرات ممتازة على التخرج في الجامعة بغض النظر عن المدرسة الثانوية التي ارتادها الطالب. فاحتمالية تخرج الطالب الذي يبلغ مجموعته التراكمي 3.5، وقد ارتاد مدرسة ثانوية ممتازة، في الجامعة أكبر من نظيره الذي كان يرتاد مدرسة ثانوية منخفضة الجودة، وقد حصل على معدل الدرجات التراكمي نفسه، ولكن هذا الفارق ليس كبيرًا. ويقول المؤلفون: "إن الطلاب الذين حصلوا على درجات مرتفعة للغاية 24 في المرحلة الثانوية، التي لم تكن فيها المدرسة التي ارتادوها رفيعة المستوى، قد تخرجوا بأعداد كبيرة في الجامعات والكليات التي ارتادوها بعد ذلك أيًا كانت".

وعندما حلت "أنجيلا داكورث" 25 - الخبيرة في مجال الانضباط الذاتي والإصرار في جامعة بنسلفانيا - المجموع التراكمي ودرجات الاختبارات القياسية لطلاب المرحلتين الإعدادية والثانوية، اكتشفت أن درجات الاختبارات القياسية كان يمكن التنبؤ بها من خلال درجات اختبارات الذكاء، وأن المجموع التراكمي كان يمكن التنبؤ به من خلال اختبارات التحكم في الذات. وإذا وضعت ما توصلت إليه "داكورث" إلى جانب الاكتشافات الموجودة في كتاب *Crossing the Finish Line* فستصل إلى نتيجة مفادها: أن قدرة الطالب على التخرج في أية كلية أمريكية مهما كانت مرموقة لا علاقة لها كثيرًا بالذكاء، بل هي مرتبطة بقائمة نقاط قوة الشخصية التي تؤدي إلى حصول الطالب على مجموع تراكمي مرتفع في المرحلتين الإعدادية والثانوية. ويقول كل من "باون" و"تشينجوس" و"مكفيرسون" في كتابهم: "نحن نرى أن الدرجات المرتفعة في المرحلة الثانوية تكشف عن أمور تتعدى 26 إتقان المحتوى التعليمي، فهي تكشف عن صفتي التحفيز والمثابرة - بالإضافة إلى توافر عادات المذاكرة الجيدة، ومهارات إدارة الوقت - اللتين تبيينان لنا بدرجة كبيرة احتمالات إكمال الطالب الدراسة الجامعية".

ومع وصول الطالب إلى سن المراهقة، من الممكن بالطبع أن تصبح هذه العادات والمهارات غير قابلة للتعلم، وعندها إما أنك تتمتع بهذه المهارات، وإما لا تتمتع بها، فإذا كنت تتمتع بها، فستزداد احتمالية تخرجك في الكلية، وإلا فستكون تلك الاحتمالية ضعيفة، لكن لناخذ في الاعتبار قدرة "شبيجل" على إعادة بناء مهارات التفكير لدى لاعبي الشطرنج في المرحلة الإعدادية. وكيف أن "لانيتا ريد" قد ساعدت "كيثا جونز" على تغيير نظرتها الكاملة إلى الحياة - فقد ساعدتها بشكل أساسي على إعادة تكوين شخصيتها - وكان ذلك في سن السابعة عشرة، وهي سن متقدمة، ففي جميع هذه الحالات كان هناك معلم أو مرشد اكتشف طريقة لمساعدة الطالب على تحقيق تحول سريع وغير متوقع من خلال استخدام ما أسماه "جيمس هيكرمان" المهارات غير المعرفية، وهو نفسه الشيء الذي أسماه "ديفيد ليفين" نقاط قوة الشخصية، فكيف ستكون النتائج لو تمكنا من فعل هذا الأمر مع أعداد كبيرة من المراهقين - ليس بهدف مساعدتهم على الوصول إلى الاحتراف

في عالم الشطرنج، أو إقناعهم بالتوقف عن الشجار في المدرسة، بل بهدف مساعدتهم على تنمية المهارات العقلية ونقاط قوة الشخصية التي سيحتاجون إليها من أجل التخرج في الكلية؟

3. واحد من أصل ثلاثين

عندما تقابل "جيف نيلسون" - المدير التنفيذي لبرنامج وان جول - للمرة الأولى، فإنه لا يبدو لك شخصًا ثوريًا. فوجهه ناضر مشرق، وأدبه جم، وله خصلة شعر شقراء موجودة على جبهته، تجعله يبدو شبيهًا بشخصية "تان تان" الكرتونية، فهو يرتدي قميصًا رسميًا ذا أزرار في ياقته، ويمتثل لجدول مواعيد تقليدي، فعندما أخذت أجري ترتيبات الحوار معه على الهاتف، أرسل إليّ مسبقًا بريدًا إلكترونيًا يحدد فيه النقاط التي ستتناولها المكالمة نقطة فنقطة، وكانت المكالمة تدور حول ثلاثة "أهداف"، وخصص عشر دقائق لـ "تلخيصها"، فهو يشعر بألفة كبيرة عندما يكون محاطًا بالأدوات الاعتيادية التي يستخدمها أي مصلح تعليمي معاصر - كالعروض التقديمية لبرنامج باوربوينت، والمستشارين الإداريين، والخطط الإستراتيجية، وقهوة الحليب - كما أن رؤيته لإصلاح التعليم ليست متعصبة، وإن كانت تمثل تحديًا كبيرًا للفرضية المعرفية.

وقد نشأ "نيلسون" في بلدة ويلميت - وهي بلدة تابعة يعيش فيها المسافرون تمثل جزءًا من الضاحية التي يقطنها سكان من أصول قوقازية، وتحيط بشمال ولاية شيكاغو، وهو المكان الذي صُوّر فيه المخرج "جون هيوز" فيلمي *The Breakfast Club* و *Home Alone*. وهذه البلدة يغلب عليها الميل إلى الديمقراطية، فهي مكان خصب للأفكار التقدمية، ومفاهيم العدالة الاجتماعية، وإن كانت تلك الأفكار كثيرًا ما يعبر عنها بشكل مجرد من خلال التبرع لمؤسسة العفو الدولية، ومؤسسة الإيواء من أجل البشرية، أو عرائض دعم اللاجئين من أحد الأقاليم المنكوبة. وقد انجذب "نيلسون" إلى قضية قريبة من موطنه منذ سن مبكرة: وهي التحديات التي تواجه الأطفال الذين يعيشون في المدينة الكبيرة التي تقع على بعد أربعة وعشرين كيلومترًا جنوبًا، وحين كان "نيلسون" في الصف الثامن،

قرأ كتاب "أليكس كوتلويتز" 27 وعنوانه *There Are No Children Here*: وهو يحكي قصة مؤلمة لصبيين أمريكيين ذوي أصول أفريقية يعيشان في مجمع هنري هورنر هومز (مجمع سكني في شيكاغو)، وهو منطقة سكنية خطيرة وكئيبة، تتكون من ناطحات سحاب في الجانب الغربي من شيكاغو، وقد قال لي "نيلسون": "إن الكتاب بدّل نظرتي إلى العالم؛ لقد أثار شيئًا ما في داخلي".

والتحق "نيلسون" بمدرسة نيو تراير تاونشيب هاي سكول، وهي مشهورة في منطقة شيكاغو بكونها مدرسة فاخرة بسبب كثرة الأشجار الموجودة بها، وفخامة مبانيها، وهي كلها ممولة بالضرائب العقارية المفروضة على المنازل الفاخرة في بلدة ويلميت والمدن المجاورة لها، وقد اختار الصحفي الشرس "جوناثان كوزول" في كتابه *Savage Inequalities* الصادر عام 1991 مدرسة نيو تراير باعتبارها المدرسة الثانوية المثالية والتميزة، وأخذ يصنف استوديوهاتها الاستعراضية، وغرفها ذات الحواجز، وحصص اللغة اللاتينية، ويقارن بين "الفرصة الكبيرة" 28 المتاحة لطلابها بـ "الفرص الضعيفة" لدى طلاب مدرسة دو سابل الثانوية - وهي مدرسة تقع في الناحية الجنوبية - وقد قال عنها "كوزول": "إنها كانت سيتم تجنبها أو كانت ستغلق على الأرجح 29 لو كان الطلاب الذين يرتادونها من الطبقة المتوسطة من السكان ذوي البشرة البيضاء". وحين كان "نيلسون" في السنة الأولى له في جامعة ميتشيجان، قرأ كتاب "كوزول" في صف علم الاجتماع، ولكن قراءته للكتاب جعلته أكثر إصرارًا على التغلب على الأنماط التي وصفها "كوزول"، وإتاحة قدر بسيط على الأقل من الفرص التي يتمتع بها طلاب مدرسة نيو تراير للطلاب الذين يرتادون مدرسة دو سابل.

وبعد أن تخرج "نيلسون" في الجامعة، انضم إلى مؤسسة تيتش فور أمريكا ودرّس لطلاب الصف السادس في مدرسة عامة في الناحية الجنوبية، يرتادها طلاب يعيشون في فقر شديد، ويطلق عليها اسم مدرسة أوكيف إليمينري الابتدائية، وتبعد نحو كيلومتر ونصف الكيلو عن مدرسة دو سابل، وقد كان مدرسًا موهوبًا، فقد ارتقى بمستوى طلابه في القراءة ورفع كفاءتهم في الرياضيات بمعدل الضعفين، فكانوا يحققون تقدمًا في السنة الواحدة

يعادل التقدم الذي يتم إحرازه في عامين، وفي السنة الثانية حصل على شهادة تفيد بأنه أفضل معلم ضمن مؤسسة تيتش فور أمريكا في منطقة شيكاغو. كما كان مدربًا لفريق كرة القدم في المدرسة، وساعد على إنشاء مجلس للطلبة، وكان مقربًا من عدد كبير من طلابه، فكان يزورهم في المنزل، ويتعرف على والديهم.

ومنذ أول يوم له في مدرسة أوكيف، كان يحدث طلابه باستمرار عن الكلية، وكانوا جميعًا من أصول أفريقية، ومن أسر منخفضة الدخل، أما من تخرج آباؤهم في الكليات فكانوا قلة منهم - ولكن "نيلسون" وعدهم بأن هذا الأمر لن يكون ذا أهمية؛ لأنهم سيتمكنون من الالتحاق بالكلية والتخرج فيها إذا حرصوا على الاجتهاد، وفي صباح أحد أيام شهر أبريل من عام 2006، طالع "نيلسون" جريدة شيكاغو تريبيون وقرأ القصة الموجودة في صفحتها الأولى 30 التي كانت مبنية على تقرير أعدته جمعية Consortium on Chicago Schools Research، وكانت القصة تتحدى ذلك الوعد الذي قطعه لطلاب، فوفقًا للجمعية، فإن ثمانية من بين كل مائة طالب 31 في المدرسة الثانوية العامة بشيكاغو سيحصلون على شهادة جامعية من الكليات التي تمتد الدراسة فيها إلى أربعة أعوام، أما بالنسبة إلى الطلاب الذين ينتمون إلى أصول أفريقية فقد كانت فرصهم أضعف كثيرًا: فهناك أقل من واحد من كل ثلاثين 32 طالبًا في السنة الأولى في المدرسة الثانوية في المدينة سيتخرج في الكليات التي تمتد الدراسة فيها أربعة أعوام عندما تكون سنهم أربعة وعشرين عامًا. وقد سببت تلك الأرقام انزعاجًا شديدًا لـ "نيلسون": فهل يمكنه أن يساعد طلابه على التغلب على هذه الاحتمالات المرعبة حتى لو جعل الصف السادس الذي يدرسه هو الأكثر نجاحًا في المدينة بأسرها؟

إن تجربة "نيلسون" في مدرسة أوكيف إليمنتري قد جعلته مقتنعًا بأمرين: أولهما أنه من الممكن أن يظل يعمل في مجال الإصلاح التعليمي لما تبقى من حياته، والأمر الثاني: هو أنه ليس مقدّرًا له أن يكون معلمًا، على الرغم من نجاحه في مجال التدريس، وبينما كان يتهيأ لمغادرة مدرسة أوكيف، عرض عليه المكتب الوطني لمؤسسة تيتش فور أمريكا أن يعمل مديرًا تنفيذيًا للمؤسسة في مدينة شيكاغو، وهي مسؤولية كبيرة بالنسبة إلى شاب

يبلغ من العمر أربعة وعشرين عامًا، وبدأ أن هذه هي وظيفة أحلامه، لكنه رفضها في اللحظة الأخيرة لأسباب لم يكن يفهمها، ناهيك عن وضعها في شكل كلمات، كان قراره مؤلماً، وقد قال لي "نيلسون": "لقد كان رفضي عرض المؤسسة أمراً محبطاً لي على نحو لا يصدق؛ لقد كنت على وشك العثور على الطريق الصحيح الذي سيمكنني من أن يكون لي تأثير كبير، ولكنني شعرت لسبب ما بأن هذا الدور ليس مناسباً لي".

لقد أقنعتني القصة التي قرأها في جريدة تربيون بأن مشهد الإصلاح التعليمي يفتقر إلى جزء ما، فهو يحتاج إلى برنامج، أو نظام، أو أداة تساعد الأطفال الذين يشبهون أولئك الأطفال الذين يرتادون مدرسة أوكيف على التخرج في الكلية، وليس مجرد شق طريقهم إليها، وقد قال لي "نيلسون": "لقد كانت لديّ حاجة ماسة إلى العثور على مؤسسة أو إنشاء مؤسسة تسد الهوة الموجودة بين التعليم الثانوي والكلية، فجميعنا في مؤسسة تيتش فور أمريكا كنا نعمل بجد واجتهاد، ونحقق نتائج في فصولنا، لكن إن لم يتمكن طلابنا من الاستمرار للتخرج في الكلية، فمن الذي سيؤدي اهتمامه؟"

لقد تسبب رفض "نيلسون" الوظيفة التي عرضتها عليه المؤسسة في أزمة كامنة في أعماقه، وعاش على أثرها فترة من الاضطرابات النفسية دامت ستة أشهر تقريباً. وكثيراً ما كان "نيلسون" شخصاً شديد الانشغال ومتفانياً في عمله، وفي المدرسة الثانوية كذلك؛ ليجد نفسه فجأة دون أية مسؤوليات رسمية، وليس لديه شيء سوى التفكير في حياته ومعناها وغايتها. وفي ذلك الخريف كان "نيلسون" يتلقى بين الفينة والأخرى مكالمات من أولياء أمور الطلاب الذين كان يدرّس لهم في السنة الماضية عندما كان يعمل في مدرسة أوكيف. وكانوا يقولون له إن أبناءهم أصبحوا الآن في الصف السابع، وبدأوا ينسون ما تعلموه منه في السنة الماضية، وأخذوا يسألونه عما يمكنهم أن يفعلوه لكي يعيدوا أبناءهم إلى المسار الذي وضعهم عليه، حتى إن أحدهم انهمر في البكاء في أثناء مكالمته عبر الهاتف، لكن "نيلسون" لم يكن يعرف ما يمكنه أن يقوله، ولم يكن يدري كيف يمكنه أن يقدم المساعدة.

وبدأ "نيلسون" يبتهل بالدعوات باحثًا عن إجابات لتلك الأمور المعضلة، ويطلب الراحة من الاكتئاب المتنامي في داخله، فبدأ يزور كل يوم مكانًا مختلفًا من أماكن العبادة، وجعل هذا الأمر عادة يومية، وبدأ يطلب العلاج النفسي، وكتب صفحات كثيرة من الشعر؛ لقد عاش فترة قاسية وعصيبة، حتى إنه عندما يتحدث عن تلك الفترة حاليًا، كان يبدو عليه أنه غير واثق تمامًا بما يمكنه أن يتعلمه من تلك الفترة. ولكنه يقول إن ما كان يبحث عنه هو مهمته؛ لقد كان يحاول أن يجد غايته في الحياة.

4. المكالمات الهاتفية

تلقى "نيلسون" في شهر يناير عام 2007 مكالمات من "إدي لاو"، وهو مستثمر رأسمالي يافع من شيكاغو، وكان قد أنشأ منذ عدة سنوات مؤسسة صغيرة غير ربحية مع اثنين من أصدقائه، أحدهما يدعى "مات كينج"، وكان مدرسًا في مدرسة دنبار الثانوية المهنية التي تقع في الناحية الجنوبية من شيكاغو، وكانت منظمتهم الصغيرة - التي أطلقوا عليها اسم Urban Students Empowered Foundation - تدير برنامجًا لما بعد فترة المدرسة وتدعمه، وكان "كينج" يطبقه على عدد من طلاب السنتين الأولى والأخيرة في مدرسة دنبار، وكان البرنامج أشبه بمعسكر للتحضير للكلية: فكان "كينج" يعلم الطلاب كيف يمكنهم أن يزدوا من مجموعهم التراكمي، وأن يحسنوا درجاتهم في اختبار القبول في الكليات، وساعدهم على اكتشاف الكليات التي تناسبهم للتقديم فيها، وأفهمهم إجراءات الحصول على المساعدات المالية، وكان يحدثهم عن النجاح في الكلية والتخرج فيها. وعلى الرغم من صغر البرنامج، فقد حقق نتائج مثيرة للإعجاب - فقد تمكن الطلاب الذين شكّلوا الفصل الأول لـ "كينج"، البالغ عددهم سبعة طلاب، من إتمام المرحلة الثانوية والالتحاق بالكلية، وكان هناك فصل آخر مكون من سبعة طلاب في السنة الأخيرة في مدرسة دنبار، وقد تمكن هؤلاء الطلاب من الحصول على درجات أعلى في اختبار القبول في الكليات، حيث زاد متوسط الدرجات من 15 إلى نحو 18 خلال السنة الأولى لهم، ما

رفع نسبتهم المئوية من خمسة عشر إلى خمسة وثلاثين. كما زاد أيضًا مجموعهم التراكمي، وتمكّن جميع الطلاب الذين التحقوا بالبرنامج من دخول الكلية.

وأراد "لاو" - وهو رجل أعمال متعدد المشاريع، إذ انخرط في العديد من الشركات التكنولوجية الناشئة - أن يوسع من نطاق البرنامج ليتخطى مرحلة صف واحد لما بعد فترة المدرسة، لكن "كينج" كان في ذلك الوقت قد حصل على وظيفة نائب مدير في إحدى المدارس المحلية المستقلة، ورأى أنه لا يمكنه أن يستمر في هذا البرنامج؛ لذا أخذ كل من "لاو" و"كينج" وشريكتهما الثالثة - وهي طالبة تقوم بتحضير رسالة الدكتوراه في جامعة نورث ويسترن، وتدعى "دون بانكونين" - يبحثون عن مدير تنفيذي جديد لا يقتصر دوره فقط على الاستمرار في برنامج "كينج"، بل تحويله إلى شيء أكثر طموحًا، وقد أجروا مقابلات مع ما يزيد على عشرين متقدمًا، ولكن لم يكن من بينهم من هو مناسب لهذه المهمة، لقد كانوا على وشك إيقاف عمل المؤسسة تمامًا إلى أن تعرفوا على "جيف نيلسون" من خلال أحد معارفهم في مؤسسة تيتش فور أمريكا.

وفي ذلك الشتاء كان "نيلسون" يشعر بأنه قد بدأ يخرج من العزلة التي كان يعيش فيها، وعندما اتصل به "لاو" كان ذلك توقيتًا مناسبًا، وعرض عليه مجلس الإدارة - المؤسسون الثلاثة، بالإضافة إلى اثنين من الممولين - أن يعمل مديرًا تنفيذيًا، وسرعان ما قبل، وقال لي: "دون أن أولي الأمر العناية اللازمة"، وربما كان سيعلم في اليوم السابق لليوم الذي تسلم فيه العمل أن المؤسسة ليس لديها موظفون ولا توجد بها مكاتب، وليست هناك خطة للعمل، بل لم يكن هناك سوى ستة آلاف دولار في البنك، وهو مبلغ يكفي فقط لتغطية مصاريف التشغيل مدة عشرة أيام، ومع نهاية اليوم الأول اتضح لـ "نيلسون" أنه قد ترك وظيفة لدى أكبر مؤسسة لإصلاح التعليم في البلاد، والأكثر استقرارًا، لكي يعمل في إحدى أصغر المنظمات وأقلها استقرارًا، ويبدو على نحو غريب أن هذا كان قرارًا صائبًا.

وأخبر "نيلسون" مجلس الإدارة بأنه بحاجة إلى ستة أسابيع لوضع خطة لمستقبل المؤسسة، وقد عين معلمين اثنين ممن كانوا يعملون في مؤسسة تيتش فور أمريكا؛ ليعملا

معه بشكل تطوعي خلال إجازة الصيف، كما عرضت عليه "بانكونين" أن تعمل دون أجر عدة أشهر أيضًا، وكانت "بانكونين" تستأجر غرفة من أحد معارفها من المتداولين في بورصة ميركانتيل، وقد أخبرها ذلك الرجل بأن بإمكانها أن تستخدم شقته لصالح المؤسسة خلال فترة النهار في أثناء وجوده في العمل، وأصبحت تلك الشقة هي المقر غير الرسمي للمؤسسة خلال ذلك الصيف - فكان هؤلاء الأربعة يجلسون على الأثاث الموجود في غرفة المعيشة، ويستخدمون هواتفهم النقالة، وحواسيبهم المحمولة. ولم يكن في الشقة شيء تملكه المؤسسة سوى إحدى طابعات الكمبيوتر، وبعد خمسة أعوام أصبح لمؤسسة Urban Students Empowered اسم جديد، وهو وان جول OneGoal، وأصبح فريق الإدارة يتكون من خمسة عشر فردًا، وميزانيتها السنوية 1.7 مليون دولار، وانضم ألف ومائتا طالب من عشرين مدرسة ثانوية بشيكاغو إلى برنامج يشبه برنامج "كينج" يمتد ثلاثة أعوام، لكنه أصبح أكبر كثيرًا من ذي قبل، كما أصبح مكثفًا بشكل أكبر.

ويؤمن "نيلسون" بأن بإمكان طلاب المدارس الثانوية ذوي الأداء المنخفض أن يحولوا أنفسهم بسرعة إلى طلاب جامعيين ناجحين - ولكن قد يكون إحداث هذا التحول ضربًا من ضروب المستحيل إلا بمساعدة معلم ذي كفاءة عالية، ومن هنا طاف "نيلسون" وأفراد فريقه المدينة باحثين عن معلمي المدارس الثانوية الطموحين والمتحفزين، وكانوا يذهبون في بعض الأحيان إلى المدارس المستقلة، لكنهم كانوا غالبًا ما يتوجهون نحو المدارس الثانوية العادية في الأحياء الفقيرة في مدينة شيكاغو. (وكانت مدرسة فينجر إحدى تلك المدارس)، فوقعت مؤسسة وان جول عقد شراكة فريدًا من نوعه للتعامل مع المدارس العامة في شيكاغو، بحيث يتاح للمؤسسة أن تتعامل مباشرة مع المدرسين لمساعدتهم على تنفيذ برامجها، حيث كان المعلمون يعملون بمدارسهم موظفين بدوام كامل مع الحصول على منح مالية نظير العمل الإضافي الذي يقومون به. وبمجرد أن يتعاقد المعلم مع مؤسسة وان جول، فإنه يختار فصلًا مكونًا من 25 طالبًا في السنة الثانية - على ألا يكونوا من الطلاب الذين يحصلون على أعلى الدرجات، أو الطلاب الذين يعرفون كيفية الوصول إلى الكلية - بل يكونون من الطلاب ذوي الأداء المتدني، الذين يرى

فيهم على الأقل شرارة الطموح. (كان معدل المجموع التراكمي للطلاب الجدد هو 2.8) وهكذا يستمر المعلم مع هذا الفصل من الطلاب مدة ثلاث سنوات، ويكون برنامج المؤسسة مقرراً دراسياً أساسياً لطلاب الصفين الأول والأخير، ويقوم "نيلسون" وفريقه بوضع المنهج، وعادة ما يلتقي الطلاب بعضهم ببعض مرة كل يوم، حتى نهاية السنة الأخيرة. ويظل المعلم على علاقة وثيقة بالطلاب بعد دخولهم السنة الأولى في الكلية، فيتواصل معهم عن طريق الهاتف، والبريد الإلكتروني، وموقع التواصل الاجتماعي فيسبوك، ويجيب على أسئلتهم، ويعقد معهم مؤتمرات عبر الإنترنت، ويقدم إليهم الدعم والنصيحة.

وهناك ثلاثة عناصر أساسية لمنهج المؤسسة: العنصر الأول والمباشر إلى أقصى حد هو عبارة عن مجموعة كاملة ومركزة من الإعداد لدخول اختبارات القبول في الكليات، كان موجهاً إلى الصف الأول، ويهدف إلى إمداد الطلاب بالمعرفة الأساسية وإطلاعهم على إستراتيجيات خوض الاختبارات من أجل رفع درجاتهم إلى مستوى مقبول، وفي تلك الفترة كان المعلمون الذين يعملون مع المؤسسة قادرين على تحقيق الإنجاز الذي كان يسعى إليه "مات كينج" من خلال مساعدة الطلاب على تحسين درجاتهم إلى نحو ثلاث درجات في اختبار القبول في الكليات، وذلك في السنة الأولى، الأمر الذي ينقلهم من الشريحة المئوية الخامسة عشرة إلى الخامسة والثلاثين.

أما العنصر الثاني، فهو ما يسميه "جيف نيلسون" بـ "خريطة الطريق إلى الكلية"، فعندما كان "نيلسون" يخطط للمنهج للمرة الأولى، كان كثيراً ما يجد نفسه يفكر في الطريقة التي اتبعتها مدرسة نيو تراير: حيث كان المكتب الاستشاري المعني بالكليات في المدرسة يوظف ثمانية مستشارين بدوام كامل، ويبدأ هؤلاء المستشارون العمل على التخطيط للكلية مع الطلاب وذويهم، وذلك في مرحلة مبكرة منذ بداية السنة الثانية لهم في المدرسة، وقد قال لي "نيلسون" ضاحكاً: "إنها عملية آلية، فهم يزودونك بمسار منظم وواضح وأنت في السنة الثانية من المرحلة الثانوية إلى أن تدخل الكلية"، وقد اعترف بعدم قدرته على غرس هذه العملية التي كانت تتبعها مدرسة نيو تراير كلها في الناحية الجنوبية، لكنه قال لي: "لكن هناك أجزاء مما كان يحدث في مدرسة نيو تراير أرى أنه من

الممكن ترجمتها بحيث تتوافق مع المدارس التي يرتادها أبناء الأسر الفقيرة، وهي أجزاء يمكنها أن تحدث فارقًا ضخمًا". ومن ثم فإن طلاب مؤسسة وان جول لن يستفيدوا منها فقط في طلبات التقديم إلى الكليات، بل في إستراتيجياتهم الكاملة فيما يتعلق بالقبول في الكليات: حيث اختارهم الكليات التي تناسب إمكانياتهم وليس الكليات التي لا تكافئها، وتحديد ما إن كانوا سيختارون الكليات القريبة من منازلهم أم البعيدة عنها، وكذلك كتابة خطابات التقديم الجذابة، والعثور على المنح الدراسية. (وفي أحد فصول مؤسسة وان جول في إحدى مدارس شيكاغو الثانوية رأيت ذات يوم مستشارة شؤون الكليات في المدرسة وهي تسرد قائمة من المنح الدراسية التي تتسم بالإبهام الشديد، فراحت تسأل: "هل يوجد هنا أحد من أصول يونانية؟" وهنا نظر إليها بشيء من الشك خمسة وعشرون طالبًا من أصول أفريقية وإسبانية، فسألتهم: "هل يوجد من بينكم طلاب ينتمون إلى أعراق متعددة؟" وهنا رد عليها أحد الفتيان بطريقة صارمة، وكان أمريكيًا من أصول أفريقية، فقال: "نعم، إنني أنتمي إلى السكان ذوي البشرة السوداء من الناحية الجنوبية ومن الناحية الغربية أيضًا").

ولكن "نيلسون" قال: "كان واضحًا لنا أن خريطة الطريق لن تكون كافية، فقد كان بمقدورنا أن نعطي طلابنا فكرة واضحة عن كيفية الوصول إلى الكلية، لكننا كنا أيضًا بحاجة إلى تدريبهم على النجاح في الكلية عندما يدخلونها، لقد كنا بحاجة إلى أن نعلمهم كيف يمكنهم أن يصبحوا أشخاصًا فاعلين".

وقد تأثر "نيلسون" في الجزء الثالث من المعادلة ببحث عن المدارس الثانوية أجرته جمعية Consortium on Chicago Schools Research، وبخاصة أحد الأعمال التي قامت بها محلة تدعى "ميليسا رودريك". وفي بحث أجرته عام 2006 حددت "رودريك" "المهارات الأكاديمية غير المعرفية" بوصفها مكونًا أساسيًا للنجاح في الكلية، ومن بين تلك المهارات "مهارات المذاكرة، وعادات العمل، وإدارة الوقت 33، والسلوك الذي ينتهجه الطالب لطلب المساعدة، ومهارات حل المشكلات الاجتماعية والأكاديمية". وجاء في بحث "رودريك" - التي استعارت مصطلح المهارات غير المعرفية من أبحاث "جيمس هيكمان" -

أن هذه المهارات لها دور أساسي في التباين المأساوي المتزايد، والحاصل بين المدارس الثانوية والكليات والجامعات الأمريكية. وجاء في بحثها أنه عندما تم وضع منظومة المدارس الثانوية الحالية؛ لم يكن الهدف الأساسي لها هو تدريب الطلاب على النجاح في الكليات، بل على النجاح في بيئة العمل، حيث لم تكن "لقدرات حل المشكلات والتفكير النقدي قيمة كبيرة" 34 في ذلك الوقت. (لقد كانت تلك هي الفترة التي كتب عنها "باولز" و"جينتيس"، وهما الاقصاديان الماركسيان المناهضان لنظرية يقظة الضمير). ومن ثم فإن المدارس الأمريكية التقليدية لم تكن تهدف في يوم من الأيام إلى أن تكون مكاناً يتعلم فيه الطلاب كيف يفكرون تفكيراً عميقاً، أو ينمون التحفيز الداخلي لديهم، أو يثابرون عند مواجهة المواقف الصعبة - وهي جميع المهارات اللازمة للاستمرار في الكلية، وإنما كانت المدارس مكاناً يكافأ فيه الطلاب لمجرد حضورهم وانتباههم.

وتقول "رودريك": لقد كانت تلك المعادلة ناجحة خلال فترة من الوقت. وأضافت: "كان من الممكن أن تجد مدرسي المدارس الثانوية يحملون أعباء ثقيلة 35، ويعالجون ذلك بشكل رائع؛ لأنهم يتوقعون من معظم طلابهم أن يقوموا بالقليل من تلك الأعباء، وكان باستطاعة معظم الطلاب أن يحققوا ما يريدونه هم وذووهم بجهد قليل، وهو الحصول على الشهادة الثانوية، فقد كان هناك عقد غير مكتوب بين الطلاب ومعلميهم ينص على أن 'المكافأة مرهونة بالحضور، والانتظام، وحسن السلوك'."

ولكن العالم تغير، وظلت المدارس الثانوية الأمريكية على حالها، وعندما زادت علاوة الأجور التي يتحصل عليها خريجو الكليات، أبدى طلاب المرحلة الثانوية رغبة متزايدة في التخرج في الجامعة - ففي الفترة الواقعة بين عامي 1980 و2002 تضاعفت نسبة طلاب الصف العاشر 36 الذين أعربوا عن رغبتهم في الحصول على درجة البكالوريوس على الأقل، حيث زادت النسبة من 40 % إلى 80 %، ولكن معظم هؤلاء الطلاب كانوا يفتقرون إلى المهارات غير الأكاديمية - وهي نقاط قوة الشخصية التي أشار إليها "مارتن سيليجمان" - التي يحتاجون إليها للنجاح في الكلية، ولم تكن هناك آلية في المدارس الثانوية الأمريكية التقليدية لمساعدتهم على اكتساب تلك المهارات، وهذا هو ما يحاول

"نيلسون" تغييره، وهو يرى أن هذا العنصر الثالث من عناصر إستراتيجية مؤسسة وان جول هو أهم شيء لنجاح هذا البرنامج الوليد.

وعندما بدأ "نيلسون" العمل، كان يعلم أنه لا يمكنه أن يعيد تجربة المدرسة الثانوية لدى طلابه، بل كان يرى أنه ليس بحاجة إلى ذلك، فكان يعتقد أن بإمكانه بشكل سريع نسبياً أن يسد الفجوة الخطيرة في القدرات الأكاديمية التي تميز طالب السنة الأخيرة في المدارس الثانوية العامة في شيكاغو، وطالب الصف الأول في الكليات الأمريكية، من خلال مساعدة الطلاب على تنمية المهارات غير الأكاديمية التي تؤدي مباشرة إلى النجاح في الكلية، وقد حدد "نيلسون" خمس مهارات - اعتمد فيها على الغريزة أكثر من اعتماده على الأبحاث - أسماها مبادئ القيادة، وأراد من المدرسين الذين يعملون مع مؤسسة وان جول أن يؤكدوها، وهي: سعة الحيلة، والمرونة، والطموح، والاحترافية، والنزاهة. وتقع هذه المبادئ حالياً في صميم البرنامج الذي تنفذه المؤسسة - وهي أكثر شمولية كذلك من نقاط قوة الشخصية السبع التي حددها "سيليجمان" و"بيترونسون" في مدرسة إنفينيتي التي تطبق برنامج المعرفة قوة.

وقد شرح لي "نيلسون" هذا الأمر ذات يوم، فقال: "إننا نعلم أن معظم طلابنا سيكون مستواهم الدراسي أقل من نظرائهم في الكلية، ويمكننا أن نساعدهم على تحسين درجاتهم في اختبار القبول في الكليات بشكل كبير، ولكن من غير المحتمل أن نتمكن من تقريب الهوة التي تقف بينهم وبين تلك الاختبارات بشكل كامل، والسبب ببساطة هو منظومة التعليم التي تبدأ من الحضانة حتى الصف الثاني عشر، التي ينشأ فيها طلابنا. ولكننا نعرف أن بإمكاننا أن نقول لطلابنا إن هناك طريقة من شأنها أن تمكّنهم من سد هذه الهوة، ومفتاح هذه الطريقة يكمن في هذه المهارات الخمس للقيادة".

5. مدرسة إيه سي إي تك

كان مشروع روبرت تايلور هومز الإسكاني يلوح في أفق الناحية الجنوبية من شيكاغو على مدار أربعة عقود، وهو أكبر المشروعات السكنية في شيكاغو في فترة ما بعد الحرب: فهو يتكون من ثمان وعشرين عمارة سكنية خرسانية ذات ارتفاع شاهق، وتمتد على طول ثلاثة كيلومترات في مساحة ضيقة بين شارع ستيت وطريق دان رايان السريع، وفور اكتمال تشييد المشروع في مطلع الستينيات من القرن المنصرم، بدأ التلف يضرب البنايات، وبدأ العنف والفوضى يعصفان بسكانها، وخلال سبعينيات القرن الماضي وثمانينياته تم اعتبار منطقة روبرت تايلور هومز "أسوأ الأحياء الفقيرة في الولايات المتحدة" 37، وذلك وفقًا لهيئة الإسكان في شيكاغو، وفي عام 1980، وقعت جريمة قتل واحدة في هذه المنطقة الصغيرة البالغة مساحتها نصف كيلو متر مربع، وذلك من بين كل تسع جرائم قتل على مستوى مدينة شيكاغو 38. وفي أوج ازدهار هذه المشاريع - وهي نقطة تدميرها - كان يعيش في روبرت تايلور هومز أكثر من خمسة وعشرين ألف نسمة، وكان ثلثهم على الأقل من الأطفال، وكان معظم هؤلاء الأطفال يعيشون في أسرة تعيلها أم مطلقة وتعيش على راتب الإعانة الاجتماعية 39، وقد اندثرت هذه المشاريع حاليًا وتلاشت مع آخر محاولة في شيكاغو لإعادة تجديد المدن، ولكن لم يبنَ شيء مكانها، وعندما تتجول بسيارتك حاليًا في شارع ستيت لا تجد سوى أراضٍ فارغة في الأماكن التي كانت قد شُيّدت عليها الأبراج في يوم من الأيام، وعندما تدخل إلى المدينة لا تجد سوى الأراضي المغطاة بالحشائش، وفضلات الهدم، يتخللها بعض دور العبادة التي صمدت وتمكنت من النجاة من الخراب المحيط بالمكان.

وفي الطرف الجنوبي لذلك الفراغ الممتد عند حدود شارع 54 ترى عددًا صغيرًا من البنايات السليمة والبارزة - بعض المنازل التي تغطي الألواح معظمها، ومحل لبيع المشروبات، ومحل بيتزا، ومكتب للرهنات وإحدى دور العبادة التي أغلقت حاليًا، وبعد ذلك توجد مدرسة في مبنى مكون من طابقين، ومبنى بأحجار زرقاء إلى الشمال من دار العبادة القديمة، وهي مدرسة: إيه سي إي تك الثانوية المستقلة. وعندما تنظر إلى كآبة المكان المحيط بها يصعب عليك أن تتخيل أن يخرج من هذا المبنى أي شيء إيجابي،

وهذه المدرسة ليست في الحقيقة من المدارس ذات النتائج العظيمة: ففي عام 2009 لم يحقق معايير الاختبار التحصيلي على مستوى الولاية أو يتجاوزها سوى 12 % فقط من طلاب الصف الأول في المدرسة، ومنذ تأسيسها عام 2004؛ لم تحقق "تقدمًا سنويًا مقبولًا"، وكانت هذه المعايير موضوعة بفعل قانون "عدم التخلي عن أي طفل"، لكن بعد أن تولى "جيف نيلسون" أمور المؤسسة عام 2007 تم تطبيق الأساليب الجديدة لمؤسسة وان جول في تلك المدرسة. فأولاً، كان هناك برنامج لفترة ما بعد المدرسة يشبه كثيرًا البرنامج الذي وضعه "مات كينج"، وكان البرنامج يخصص ساعتين من كل أسبوع لفصل من طلاب السنة الأولى وطلاب السنة الأخيرة، ثم في عام 2009، طبق "نيلسون" البرنامج الكامل ذا الأعوام الثلاثة الذي يدرس في الفصول، ويكون هناك معلم قائم بأموره مع كل فصل، الذي أصبح الآن هو المعيار الأساسي المتبع في مؤسسة وان جول. (إن مدرسة إيه سي إي تك لا تبعد سوى بضع بنايات عن مدرسة دو سابل الثانوية، وهذا الأمر من قبيل المصادفة، لكنها مصادفة جيدة، ومدرسة دو سابل هي المدرسة التي تعرض لها "جوناثان كوزول" في كتابه *savage Inequalities* باعتبارها النقيض المأساوي لمدرسة نيو تراير، وهي المدرسة الأم التي اعتاد "نيلسون" أن يرتادها).

كانت "ميشيل ستيفل" هي التي تقود كلتا مرحلتي برنامج مؤسسة وان جول في مدرسة إيه سي إي تك - وهي مدرسة للغة الإنجليزية، في أوائل الثلاثينيات من عمرها الآن، وقد نشأت في الجانب الجنوبي الغربي من ضواحي شيكاغو، وبدأت التدريس في مدرسة إيه سي إي تك عام 2005، وقد وظفها "نيلسون" بوصفها أحد أوائل المعلمين الذين تعاقدت معهم المؤسسة، وذلك بعد توليه منصب المدير التنفيذي بوقت قصير، وقد تابعت أحد الفصول التابعة لمؤسسة وان جول، التي كانت تدرس لطلابها خلال السنة الأخيرة لهم في المرحلة الثانوية، وكنت ألاحظها وهي توجه الطلاب خلال إجراءات التقديم إلى الكلية، ولا شك في أنه كانت هناك بعض الأوقات العصيبة التي مر بها طلابها - كالمنع المؤقت، والزواج، والحمل، ومواجهة الرفض من بعض الكليات - ولكن طلابها كانوا يشعرون في

معظم أيامهم بأن هناك واحة من الأمل والإمكانات وسط صحراء الفشل التي تحيط بالمدرسة من كل ناحية.

ولم يكن منهج "ستيفل" في التربية منهجًا حالمًا وعاطفيًا، بل كان كلامها صريحًا، وكانت تتسم بالواقعية، وكانت حادة في كلامها عن نقص كفاءة المدرسة، وعن مدى تأخر طلابها عن أقرانهم في المدارس الأخرى، وفي أحد الأيام تحدثت مع طلاب الصف قبل الأخير قرب نهاية العام عن مقالاتهم الشخصية، وأخبرتهم بأنها ستكون جزءًا مهمًا لقبول طلب الالتحاق بالكلية. وقالت لهم: "تذكروا منافسيكم، إنكم تنافسون طلابًا نجحوا في اختبار القبول في الكلية، وحصلوا على أكثر من ثلاثين درجة، إنكم - بكل صراحة - تنافسون طلابًا تلقوا تعليمًا يفوق التعليم الذي تلقاه كثير منكم، ونحن الآن نحاول أن نسد هذه الفجوة، ولكننا لم نصل بعد إلى المستوى الذي يفترض بنا أن نكون عليه، وهذا مع الأسف ليس إنصافًا، هل هذا واضح؟"، وأمست نموذجًا لمقال شخصي، قائلة: "هذا المقال هو البداية التي سننطلق منها، ما الخبرات الحياتية التي مررتم بها لكي تصلوا إلى ما وصلتم إليه اليوم؟"

وفي عام 2009 عندما كانت "ستيفل" تختار طلاب هذا الفصل للالتحاق ببرنامج المؤسسة - عندما كانوا في السنة الثانية لهم - لم تكن تختار الطلاب الذين حققوا أعلى الدرجات، أو الذين ينتمون إلى أسر قادرة على مساعدتهم، بل اختارت من لا ينتمون إلى الصفوة منهم: فعندما كان يتضح لها أن الطالب يوجد في أسرة القريبين أحد خريجي الكليات كانت تخبره بأن البرنامج ليس موجهًا إليه، ولكن إلى أقرانه الذين يمتلكون موارد أقل، والذين هم أشد احتياجًا منه، ونتيجة ذلك كان أحد أكبر التحديات التي تواجهها "ستيفل" هو إقناع الطلاب الخاضعين لبرنامج المؤسسة بأنهم قادرون على النجاح في حياتهم، على الرغم من الأدلة الواضحة التي تشير إلى عكس ذلك، ويرونها كثيرًا في الأحياء التي يعيشون فيها، وفي أسرهم.

وعندما كنت أجلس في فصل "ستيفل"، كثيرًا ما كنت أفكر في البحث الذي أجرته "كارول دويك"، عالمة النفس في جامعة ستانفورد، عن عقلية النمو، وفي خلاصة البحث: وجدت "دويك" أن الطلاب الذين يعتقدون أن الذكاء قابل للتغيير والتحسين كان أداءهم أفضل كثيرًا من الطلاب الذين كانوا يعتقدون أن الذكاء ثابت، وقام "ديفيد ليفين" في مشروع برنامج المعرفة قوة بتوسيع نطاق عقلية النمو التي طرحتها "دويك" لتشمل إمكانية تعديل الشخصية وتحسينها أيضًا، ومن الواضح أن "ستيفل" كانت تحاول أن تقنع طلابها بأن إمكانية التغيير والتحسين لا تقتصر على شخصيتهم وعلى ذكائهم فحسب، بل تشمل مسارهم في الحياة برمته، وكانت تقنعهم بأن أداءهم في السابق ليس مؤشرًا على نتائجهم المستقبلية، وهي لم تكن تحاول أن تدفعهم نحو تقدير الذات الخاوي، أو تدعوهم إلى أعمال التفكير الحالم، بل كانت فحوى رسالتها إليهم هي أن بإمكانهم أن يتحسنوا، وأن يصلوا إلى مستويات أعلى كثيرًا من المستويات التي وصلوا إليها في السابق، ولكن هذا الأمر سيتطلب منهم جهدًا كبيرًا، وإصرارًا شديدًا، وكثيرًا من المهارات الشخصية - أو مهارات القيادة، كما يطلقون عليها في فصولهم.

عندما تحدثت عن برنامج مؤسسة وان جول مع "أنجيلا داكورث"، أشارت إلى شيء غاب عن تفكيري: وهو أن الجزء المختص بالتحضير لاختبار القبول في الكلية في المنهج قد يخدم غرضين اثنين. أولهما وهو الجانب العملي: أن رفع الدرجات قليلًا - من الناحية العملية - سيتيح للطلاب الوصول إلى كليات أكثر وأعلى من حيث الجودة، وثانيهما وهو الأهم: أن التجربة الناشئة عن تحسين الدرجات في أحد الاختبارات التي تقيس مستوى الذكاء بوضوح تسبب تعزيزًا لا يمكن نسيانه للرسالة التي تبثها عقلية النمو، وهي: يمكنك أن تصبح أكثر ذكاءً، ويمكنك أن تحسن أدائك.

وقد تشبع بعض طلاب "ستيفل" بهذه الرسالة أكثر من غيرهم، فهناك طلاب من بينهم لا يزالون لا يصدقون أنهم ينتمون إلى الكلية، على الرغم من أنهم في السنة الأخيرة، ولم تبد أسرهم مساعدة في تأكيد رسالة "ستيفل". وهناك طالب من بينهم دخل جامعة بورديو، فأقنعت أمه بأن يدخل الكلية الأهلية التي تمتد الدراسة فيها عامين بدلًا من تلك الجامعة،

فقط من أجل أن يكون قريبًا من المنزل، لكن على الجانب الآخر - جانب الثقة والتفاؤل - كانت توجد الطالبة "كيواونا ليرما".

6. درجات الاختبار

وكما ذكرت في مقدمة هذا الكتاب، شعرت بالذهول جراء التحول الكبير الذي أحدثته "كيواونا" في حياتها، وذلك عندما قابلتها بعد أن أتمت نصف السنة الأولى لها، فقد انتقلت من الطفولة التي كانت مليئة بالمشكلات، وتنسم بعوامل الخطورة المتعددة، بالإضافة إلى عدد كبير من المحن، مرورًا بفترة المدرسة الإعدادية التي كانت تنسم بالجموح والصعوبة، حتى خاضت المرحلة الثانوية بنجاح، وكان لديها إصرار على النجاح في الكلية وما بعدها. ولم تكن حياتها في المنزل سهلة على الإطلاق خلال العامين اللذين حافظت على اتصالي بها فيهما، كما كانت الحالة المادية للأسرة غير مستقرة دائمًا - وكانت والدتها تتلقى أربعمئة دولار شهريًا إعانة للإعاقة، بالإضافة إلى كوبونات لشراء الطعام، وكان هذان المصدران يمثلان الدخل الوحيد للأسرة، لكن "كيواونا" كانت قادرة بطريقة ما على تجاهل الإهانات اليومية التي تصاحب حياة الفقر المدقع في الناحية الجنوبية، وظلت تركز على رؤيتها مستقبلًا أكثر نجاحًا. وفي أحد حواراتي معها قالت لي: "ليس هناك من يريد فتاة حمقاء؛ ليس هناك من يرغب في شخص فاشل. فكثيرًا ما كنت أرغب في أن أكون إحدى سيدات الأعمال، وأن أسير في وسط المدينة وأنا أحمل حقيبة يد بينما يشير إلي الجميع بإعجاب!"، لكنها كانت تعلم أنها بحاجة إلى الحصول على شهادة البكالوريوس على الأقل حتى تتمكن من ذلك، وقد كانت متأكدة أنها قادرة على الحصول على الشهادة الجامعية على الرغم من أنه لا يوجد في أسرتها أحد قد حصل على شهادة جامعية.

ومع نهاية السنة الأخيرة كانت "كيواونا" مشغولة تمامًا بإجراءات التقديم إلى الكلية، لكنها بدأت التعرف على هذا النظام من نقطة الصفر، هل كانت هناك بالفعل جامعتان مختلفتان، إحداها تسمى ديبول والثانية تسمى ديباو؟ ومع بداية العام أخذت تميل إلى إضفاء بعض الحماسة على هذا الأمر، وقد أخبرتني بأنها كانت تخطط للتقديم في شهر سبتمبر إلى

ثلاث وعشرين كلية، من بينها كليات تتضمن قدرًا عظيمًا من التنافسية، مثل جامعة ديوك وجامعة شيكاغو، وبإجراء بعض الحسابات، فإن جامعة ديوك لم تكن هدفًا غير منطقي بالنسبة إلى "كيواونا"، فقد أنهت عامها الأول في المرحلة الثانوية بدرجات تكاد تقترب من الامتياز - على الرغم من أنها قد قصّرت بقدر ضئيل في الامتحانات النهائية، لكنها لم تحصل قط على درجات سيئة في أية مادة - على الرغم من المقرر الصعب والكبير الذي كان يتضمن الجبر، والأدب الأمريكي، وعلم الاجتماع، والأحياء. ولكن كانت هناك مشكلة واحدة، وهي أن درجاتها في اختبار القبول في الكلية لم تكن جيدة.

وحين كانت "كيواونا" في بداية السنة الأولى، دخلت تدريبًا على اختبار القبول في الكليات، وحصلت على 11 نقطة، وهي نتيجة متدنية للغاية: وهي بذلك تأتي في الشريحة المئوية الأولى على مستوى الدولة، وتحت 99% من جميع طلاب السنة الأولى في المدارس الثانوية الأمريكية. وكانت قد بذلت خلال السنة الأولى جهدًا كبيرًا في التدريب على اختبار القبول في الكليات، فكانت تدرس ساعات كثيرة كل أسبوع عن طريق خدمة متوافرة عبر الإنترنت تدعى PrepMe التي تعاقدت معها مؤسسة وان جول، وحين دخلت "كيواونا" الاختبار الرسمي للقبول في الكليات في شهر أبريل كانت تشعر بأنها أكثر استعدادًا مقارنة بشعورها عندما دخلت الاختبار الأول، لكن على الرغم من هذا خاب أملها في ذلك اليوم أيضًا، فقد كان الاختبار يحتوي على الكثير من النقاط التي لم تعرفها، ولم تتمكن من الإجابة في الأجزاء التي كانت تجيد موضوعها بالسرعة التي كانت تريدها، وقد قالت لي: "كنت أبكي عندما خرجت من الاختبار. وقلت لمعلمتي ستيفل إنني لن أدخل الكلية على الإطلاق، لقد كنت غاضبة بشدة من نفسي". وحين حصلت على درجاتها بعدها بشهر أو نحو ذلك، كانت قد حصلت على 15 نقطة، وهذا يعني أنها زادت أربع نقاط على الاختبار التشخيصي الأول، ولكنه كان يعني أيضًا أنها في الشريحة المئوية الخامسة عشرة على مستوى البلاد. وكان متوسط النقاط في كليات شيكاغو العامة هو 17 نقطة 40. وكان اختبار القبول في الكليات الرسمي يتطلب الحصول على 20 نقطة ليُدل على أن الطالب

مهياً لدخول الكلية، وكان الطلاب الذين يدخلون جامعة ديوك عادة ما يحصلون على ما يزيد على 30 نقطة. (وأقصى عدد ممكن من النقاط في هذا الاختبار هو 36 نقطة).

ومن المؤكد أن "تشارلز موراي" قد وجد طموحات "كيواونا" مؤلمة فيما يخص الالتحاق بالكلية، ففي كتابه *Real Education*، يرى أن الطلاب الذين يقعون ضمن الـ 20 في المائة الأعلى على مستوى الطلاب في اختبارات القدرات المعرفية هم وحدهم من يجب أن يلتحقوا بالكليات، وفي عالمه المثالي يرى أن العشرة في المائة الأعلى هم وحدهم من يجب أن يدخلوا الكليات. فمجرد وجود طموح جاد للدخول إلى الكلية من قبل طالب تقع درجاته في أسفل النصف الأدنى من توزيع الاختبار التحصيلي القياسي - ناهيك عن الخمس الأدنى أو الأقل - كما كانت الحال مع "كيواونا، يعد أمراً صادمًا بالنسبة إليه، بل إنه ضرب من الجنون، وكتب "موراي" قائلاً: "وما دام من الممنوع أن نقر بأن الكليات تتطلب قدرات ذهنية عالية 42 وتعد عسيرة على معظم الشباب، فسنبقى في تعليق التوقعات غير الواقعية على الأجيال القادمة، فالطلاب الذين تقع درجاتهم في الاختبارات المعرفية - مثل اختبار القبول في الكليات - في الثلث الأدنى ليسوا مؤهلين لدخول الكليات، بل إنهم أيضاً "لا يمتلكون الذكاء الكافي الذي يمكنهم من تجاوز المعارف والمعلومات البدائية" 43.

ولكن نظرة "جيف نيلسون" لاختبارات القبول في الكليات كانت تختلف تماماً عن نظرة "تشارلز موراي"، فقد قال لي: "أعتقد أن اختبار القبول في الكليات هو معيار جيد للغاية لقياس كفاءة التعليم الذي حصلت عليه، ولكنني لا أعتقد أنه مقياس جيد لقياس الذكاء، فمتوسط درجات الطلاب الجدد يتراوح بين الشريحة المئوية العاشرة والرابعة عشرة. وأنا لا أرى بآية حال أن 90% من الطلاب الذين هم في هذه الفئة العمرية لديهم مستوى ذكاء أعلى من الطلاب الذين نعمل معهم حالياً، ولكنني أعتقد أن 90% من السكان يتلقون تعليمًا أفضل من التعليم الذي تلقاه طلابنا".

ويرى "نيلسون" أن الفارق له دلالة لفظية، فيمكنك أن تقول إن اختبار القبول في الكليات يقيس الذكاء إن أردت ذلك، لكنه يرى أنه بغض النظر عما يقيسه الاختبار، فإن قدرتك على الحصول على درجات عالية في الاختبار لا تتعلق بشكل جوهري بنجاحك في الكلية، وباستمرارك فيها حتى إتمام الدراسة فيها. ويبنى "نيلسون" رؤيته تلك عن اختبار القبول في الكليات على قراءته أبحاث "ميليسا رودريك"، وكتاب *Crossing the Finish Line*، بالإضافة إلى الخبرات الحياتية الفعلية لخريجي مؤسسة وان جول الذين كانت درجاتهم في اختبار القبول في الكليات تقول إنهم غير مناسبين لدخول الكلية، ولكنهم نجحوا بعد ذلك في المستويات التي كانت تلك الاختبارات تشير إلى استحالة نجاحهم فيها، وقد قال لي "نيلسون": "إن المهارات غير المعرفية، مثل المرونة وسعة الحيلة والإصرار تعد مؤشرات قوية للنجاح في الكلية، ويمكنها أن تعوض الطلاب عن عدم تكافؤ الفرص الذي تعرضوا له في منظومة التعليم، والطلاب من أمثال 'كيواونا' سירתادون الكليات وهم يمتلكون كثيرًا من الأدوات المهمة للنجاح، وهي الأدوات التي لا يمتلكها بقية الطلاب، وهذه المهارات ستكون أكثر إفادة لهم من درجات اختبار القبول في الكليات للتخرج في الجامعة".

7. طموحات كيواونا

عندما كانت "مارلا مكونيكو" والدة "كيواونا" في السنة الثالثة في المدرسة الثانوية - في أواخر الثمانينيات من القرن الماضي - خضعت لاختبار دخول الكليات مع بقية زملائها في الفصل، وهي لا تتذكر درجتها على وجه التحديد، لكنها تذكر أن درجتها لم تكن جيدة للغاية، وقد قالت لي عندما كنت في زيارة لها و"كيواونا" في أحد الأيام الخريفية: "شعرت بأنني فاشلة بعد أن حصلت على تلك الدرجات، وقلت في نفسي: 'لن تمكنني هذه الدرجات من الالتحاق بالكلية'؛ لذلك لم أكرث للأمر".

وكانت علاقة "كيواونا" بوالدتها قوية، ولكن كانت تحدث بينهما بعض المشاحنات في كثير من الأحيان، وكانت إستراتيجيتها في الحياة على ما يبدو أن تفعل عكس ما كانت تفعله

أمها عندما كانت في مثل عمرها، فقد أحبت أمها والدها وهي في سن المراهقة، وتزوجته، ما ترتب عليه سلسلة من القرارات التي تتسم بضيق الأفق؛ فكانت "كيواونا" نتيجة ذلك تمنع خطيبها من التدخل في حياتها، وقررت أن تتخذ قراراتها المتعلقة بالكلية بناءً على خططها هي وحدها، وعندما كانت أمها في مثل سنها لم تهتم بأهدافها الدراسية، أما "كيواونا" فظل تركيزها منصبًا على أهدافها، وخرجت أمها من المسار التعليمي بسبب درجاتها السيئة في اختبار القبول في الكليات، أما "كيواونا" فأصرت على التغلب على درجاتها السيئة في الاختبار.

ولكن عندما كانت السنة الأخيرة في نهايتها، بدأت حالتها المزاجية تزداد سوءًا، وحين كلمتها في ظهيرة أحد الأيام في منتصف شهر أكتوبر، كانت تبدو متشائمة للغاية حيال مستقبلها، حيث كانت قد بدأت تتلقى الردود على المنح الدراسية التي تقدمت إلى الحصول عليها، وقوبلت طلباتها بالرفض واحدًا تلو آخر، وكانت تعتقد أن درجاتها المنخفضة في اختبار القبول في الكليات هي السبب، وقد قالت لي: "إنني أشعر بالإحباط حيال الموقف كله؛ لقد بذلت مجهودًا كبيرًا في هذه الطلبات وأنا بحاجة إلى هذا المال من أجل الكلية".

وقد تحدثت معها في ذلك اليوم عن السنوات التي قضتها في مدرسة بليموث الإعدادية التي كانت ترتادها عندما كانت تعيش في ولاية مينيسوتا، وقد أرجعت "كيواونا" الكثير من الصعوبات التي تواجهها الآن إلى الفترة التي كانت فيها في الصف السادس، عندما تم إيداعها في فصل إصلاحي خاص بسبب درجاتها المتدنية وسلوكها السيئ، وكان يسمى WINGS وهي كلمة تستخدم رسميًا لاختصار عبارة العمل الإبداعي من أجل النجاح في التخرج، ولكن "كيواونا" أخبرتني بأن الطلاب كانوا يقولون على سبيل المزاح إن هذا الفصل كان قد أطلق عليه هذا الاسم؛ لأن طلابه لا يفعلون شيئًا طوال اليوم سوى أكل أجنحة الدجاج، وقد قالت لي: "لقد كانت في الأمر مبالغة، لكنها لم تكن مبالغة شديدة، فنحن لم نكن نفعل أي شيء، ونحن في ذلك الفصل، لقد كان الفصل مخصصًا للطلاب الذين يحتاجون إلى المساعدة، ولكنهم لم يقدموا إلينا أية مساعدة، فنحن لم نكن نقرأ، أو ندرس

شيئًا، بل كنا نمارس ألعاب الفيديو، ونشاهد الأفلام ونأكل الفيشار، لقد كان الأمر ممتعًا، ولكنه هو السبب فيما أعانيه الآن مع اختبار القبول في الكليات، وهو السبب في تجاهل الطلبات التي قدمتها للحصول على المنح الدراسية، وقد بقينا في ذلك الفصل عامين كان من المفترض لنا أن نتعلم فيهما قواعد علامات الترتيم، واستخدام الفواصل بأنواعها، والتشبيهات، إلى غير ذلك من الأمور، واليوم عندما تقابلنا هذه الأشياء في الدروس يقول لنا المعلمون: 'هل تتذكرون عندما كنتم تدرسون هذه الأشياء؟' أما أنا فلسان حالي يقول: 'لا؛ لا أتذكر! فأنا لم يسبق لي أن تعلمتها'."

ومن الأمور التي تندم "كيواونا"، بشأنها باستمرار، تضييعها الفرصة التي أتاحت لها وهي في السنة الأولى لها في مدرسة إيه سي إي تك الثانوية، حيث كانت تترك حصصها وتضيع وقتها في اللعب والتسكع مع أصدقائها بدلاً من المذاكرة، وكانت تحصل على درجات متدنية خلال تلك السنة، حتى إنها رسبت في مادة التربية البدنية، وقد قالت لي: "لم أكن أفكر في المستقبل، وكل ما كنت أفكر فيه وقتها هو اللهو"، ولم تكن حينها قد تجاوزت الرابعة عشرة من عمرها، ولم تكن تفكر في أي شيء ذي أهمية حتى دخلت السنة الثانية، وأدركت أن المجموع التراكمي سيشمل درجاتها في جميع سنوات الدراسة في المدرسة الثانوية؛ ما يعني أن درجاتها في الصف الأول ستؤثر بشكل مباشر في دخولها الكلية، وهذا هو السبب في أنها كانت مشغولة للغاية خلال السنتين النهائية والسابقة لها بتحقيق أكبر مجموع من الدرجات - فكانت تبذل جهدًا إضافيًا في المذاكرة، وتبقى في المدرسة بعد انتهاء الحصص لتطلب المساعدة من أساتذتها، وهي لا تزال تتحدث عن ماضيها في بعض الأحيان كأنه كان وصمة سيئة في حياتها لن تتمكن من إزالتها أبدًا.

وكانت "كيواونا" تركز على الالتحاق بجامعة إلينوي الكائنة في مدينة أوربانا - شامبين، وهذه الجامعة هي الأفضل على مستوى الجامعات الموجودة في الولاية وفقًا لمجلة يو إس نيوز آند وورلد ريبورت *U.S. News & World Report*. وقد صنّفتها المجلة في المركز الثالث عشر لأفضل جامعة عامة على مستوى الولايات المتحدة، وتبعد مدينة أوربانا مسافة ساعتين ونصف الساعة بالسيارة، إلى الجنوب من مدينة شيكاغو، وكانت هذه

مسافة مناسبة بالنسبة إلى "كيواونا، فهي ليست بعيدة بالقدر الذي يجعلها تشعر بالحنين إلى منزلها، ولكنها ليست قريبة بما يكفي بحيث يتسنى لها أن تشعر بالاستقلالية، وقد زارت "كيواونا" مبنى الجامعة في إحدى الرحلات الميدانية التي نظمتها مؤسسة وان جول عندما كانت في السنة قبل النهائية لمرحلة الثانوية، وقد أحببت المكان: فقد أعجبتها ساحة الكلية، والمركز المخصص للطلاب، وقاعات المحاضرات، ومطاعم أبل بيز، حتى إنها قالت لي: "لقد كان دخول هذه الجامعة أهم حلم لديّ، ولو لم أتمكن من دخولها لظلمت أبكي أسبوعاً".

ولكن مع بداية شهر فبراير بدأت "كيواونا" تخفض سقف تطلعاتها نحو الكلية قليلاً، فقد قدمت إلى جامعة شيكاغو - الجامعة الأرفع مقاماً في ولاية شيكاغو - لكنها أخبرتني بأنها لم تعد ترغب في دخولها حتى لو تم قبولها فيها. فقد تقدمت إلى عدد من الجامعات المناسبة لها، ومنها جامعة إلينوي في شيكاغو، ولكنها كانت تأمل الالتحاق بجامعة أفضل، فهي لم تياس بعد من جامعة أوربانا - التي كانت لا تزال خيارها الأول - ولكن أصبح لديها اختيار واضح آخر، وهو: جامعة ويسترن إلينوي، الموجودة في مقاطعة ماكومب التي تقل فيها المنافسة عن جامعة أوربانا، ولكن دخولها يستلزم الحصول على 21 نقطة في اختبار القبول في الكليات، وهي درجة أكبر من الدرجة التي حققتها "كيواونا"، وكانت في السنة السابقة قد زارت جامعة ويسترن إلينوي، وكانت لديها ذكريات طيبة بها: وقد قالت لي: "لقد أحببت المكان، وشعرت بارتياح شديد، وكان الأشخاص الموجودون في المكان يتسمون بالود واللفظ، وكان كل شيء مثاليًا بما في ذلك غرف النوم".

وفي ذلك الشتاء أصبحت "كيواونا" تتحلّى بمزيد من الرزانة والرؤية الثاقبة بشأن مستقبلها في الكلية، وذلك مقارنة بما كانت عليه حالها عندما قابلتها. وقد قالت لي: "إذا لم أدخل إحدى كلياتي المفضلة، ربما لم يكن من المقدر لي ذلك، فسوف أصاب بخيبة الأمل، لكنني سأجتهد في أية كلية أدخلها وبعد عام أو عامين قد أقوم بالتحويل إلى إحدى كلياتي المفضلة". لقد قررت أيضًا أن تتوقف عن جلد ذاتها بسبب أخطائها في السنة الأولى. حتى إنها قالت لي: "لن أظل أتحسر دائماً على تفريطي خلال السنة الأولى؛ لقد

انتهى الأمر، وقد فعلت ما فعلت، وكان ذلك درسًا لي، وعندما أدخل الكلية سأحرص على ألا أكرر الأخطاء التي ارتكبتها في السنة الأولى نفسها، وسوف أؤدي التزاماتي، وسأخطط لكل شيء، وسأحرص على وضع جدول لأعمالي، وسأنظم أموري، وسأحرص على التركيز والتعرف على الأشخاص المناسبين لي".

كان شهر فبراير محمومًا بالقلق، فقد ظلت "كيواونا" تتفقد بريدها الإلكتروني، وتتصل بمكاتب القبول في الكليات لتتأكد أنها قد استوفت جميع الأوراق التي تحتاج إليها. وفي نهاية الشهر جاءها خبر سعيد: لقد تم قبولها في جامعة ويسترن إلينوي. وبسبب تدني درجاتها في اختبار القبول في الكليات تم تقييدها في برنامج دعم طلاب السنة الأولى ليزودها بمزيد من الدروس والاستشارات خلال عامها الأول، وقد دخل ثلاثة من أصدقائها المقربين جامعة ويسترن إلينوي أيضًا، وقد خططوا معًا للذهاب إلى ماكومب.

8. سد الفجوة

قام مؤخرًا عالمان من علماء اقتصادات العمل 44 في جامعة كاليفورنيا - وهما "فيليب بابكوك" و"ميندي ماركس" - بتحليل بيانات استقصائية متعلقة باستخدام طلاب الكليات أوقاتهم، وذلك بداية من عشرينيات القرن الماضي حتى الآن. وقد اكتشفا أنه في عام 1961 كان الطالب المتفرغ للكلية يقضي في المتوسط أربعًا وعشرين ساعة أسبوعيًا في المذاكرة خارج الكلية، وبحلول عام 1981 قل عدد الساعات إلى عشرين ساعة في الأسبوع، وفي عام 2003 وصل عدد الساعات إلى أربع عشرة ساعة في الأسبوع، وهو عدد لا يزيد كثيرًا على نصف عدد الساعات التي كان يقضيها الطالب في المذاكرة منذ أربعين عامًا، وقد تجاوزت هذه الظاهرة الحدود، إذ يقول كل من "بابكوك" و"ماركس": "إن أوقات المذاكرة تقل لدى جميع الطلاب من المجموعات الفرعية الديموغرافية، سواء أكان الطلاب يعملون أم لا، وكذلك في جميع التخصصات، وجميع الكليات التي تمتد الدراسة بها أربعة أعوام، وأساس الشهادة العلمية، ودرجة الانتقائية المتبعة في تلك الكليات". ففي أي شيء تُنفق تلك الساعات التي تتم إضاعتها؟ يضيع معظمها في المسامرة

والترويح عن النفس بصورة عامة، وهناك دراسة منفصلة شملت 6300 طالب 45 تحت سن التخرج في جامعة كاليفورنيا توصلت إلى أن الطلاب يقضون حاليًا وقتًا أقل من ثلاث عشرة ساعة في المذاكرة أسبوعيًا، بينما يقضون اثنتي عشرة ساعة في التسكع مع أصدقائهم، وأربع عشرة ساعة في التسلية والترفيه وممارسة الهوايات المتنوعة، ويقضون إحدى عشرة ساعة في استخدام "أجهزة الحاسب الآلية بهدف الترفيه"، كما يقضون ست ساعات في ممارسة التمارين الرياضية.

ويرى كثير من المراقبين أن هذه الإحصاءات تدعو إلى القلق، في حين أن "جيف نيلسون" يرى أن هذا الموقف فرصة للطلاب. فقد حدثني عن السنة الأولى له في جامعة ميتشيجان عندما كان طالبًا فيها، حيث كان يفعل ما يفعله غيره من أبناء الأسر التي تنتمي إلى الفئة العليا من الطبقة المتوسطة في بداية دراستهم في الكلية: فهو لم يكن يجتهد في المذاكرة، فالسنة الأولى بالنسبة إلى بعض الطلاب الذين ينتمون إلى الأسر المترفة تعني الذهاب إلى النادي، وتناول المشروبات، وبالنسبة إلى غيرهم تعني الانضمام إلى جمعية جديدة، أو كتابة المقالات في جريدة الطلبة، ولا شك في أن هذا الوقت لا يعد وقتًا ضائعًا على الدوام، لكنه لا يسهم بشكل كبير في تحقيق الأهداف الدراسية للطلاب، ومن هذا المنطلق فإن "نيلسون" ينظر إلى السنة الأولى لطلاب مؤسسة وان جول باعتبارها "إطارًا زمنيًا رائعًا يمكنهم فيه أن يسدوا فجوة التحصيل الدراسي"، وخلال مقابلاتنا الأولى بيني وبينه أخذ يشرح نظريته قائلاً: "إن السنة الأولى تعد لحظة فريدة بالنسبة إلى الطلاب، أولئك الطلاب الذين لم ينجحوا كثيرًا في الكلية، أو يقضون معظم أوقاتهم في إقامة الحفلات، وفي هذه اللحظة إذا عمل هؤلاء الطلاب بإصرار، وأقاموا علاقات مع أساتذتهم، وأخذوا يذكرون دروسهم، ويستخدمون جميع مهاراتهم التي تدربوا عليها، عندها يمكنهم أن يسدوا تلك الفجوة. وقد رأينا أكثر من مرة طالبًا يتحسن مستواه فجأة، ويصبح في مستوى أقرانه مع بداية السنة الثانية بعد أن كان متأخرًا عنهم تأخرًا شديدًا".

وفي أول خريف لها في جامعة ويسترن إلينوي، تلقت "كيواونا" مقررات تمهيدية - كأساسيات ومبادئ كل من اللغة الإنجليزية، والرياضيات، وعلم الاجتماع، ولم يكن أي من

هذه المقررات سهلاً بالنسبة إليها، ولكن كان أكثر المقررات صعوبة مقرر الأحياء العامة؛ مقدمة عن المهن الصحية، وكان الأستاذ الجامعي محاضراً مشهوراً؛ ومن ثم فقد كانت قاعة المحاضرات ممتلئة، وكان معظم الطلاب من الطبقة العليا، وفي اليوم الأول لها عملت "كيواونا" بنصائح "ميشيل ستيفل": "فقدت نفسها إلى أستاذها بطريقة مهذبة قبل الدخول إلى قاعة المحاضرات، ثم جلست في الصف الأول - الذي كان مزدحماً تماماً بالفتيات ذوات البشرة البيضاء قبل أن تجلس "كيواونا" فيه، أما بقية الطلاب ذوي الأصول الأفريقية، فقد جلسوا في الصفوف الأخيرة ما أصاب "كيواونا" بالإحباط. (وقد قالت لي في مكالمة هاتفية أجريتها معها في ذلك الخريف: "هذا هو ما يتوقعونه منك، وكانوا في أيام حركة الحقوق المدنية لو قيل لهم اجلسوا في الخلف لرفضوا").

وكان أستاذ الأحياء كثيراً ما يستخدم مصطلحات علمية في محاضراته، ولما لم تكن "كيواونا" على دراية بها؛ لذا توصلت إلى إستراتيجية للتعامل مع هذه المشكلة: كانت كلما استخدم الأستاذ كلمة لا تفهمها تكتبها وتضع إلى جوارها علامة نجمة حمراء، وعند نهاية المحاضرة كانت تنتظر حتى يفرغ بقية الطلاب من حديثهم مع الأستاذ، ثم تسأله عن كل نقطة لا تفهمها؛ لكي يشرحها لها.

وكانت "كيواونا" تقضي الكثير من الوقت في التفاعل مع أساتذتها، وكانت تتردد عليهم باستمرار، وتراسلهم عبر البريد الإلكتروني عندما تريد أن تستوضح بعض الأمور المتعلقة بواجباتها، وكانت تحاول التعرف على زملائها في جميع المحاضرات، حتى تجد من يساعدها إذا ما احتاجت إلى المساعدة في عمل واجبها المنزلي ولم تتمكن من الاتصال بأستاذ المادة. وقد وجدت أحد المعلمين لمساعدتها على الكتابة عبر برنامج الدعم الذي قدم إليها في السنة الأولى - فقد أخبرتني بأنها كانت تعاني دائماً "مشكلات في القواعد اللغوية"، بالإضافة إلى وجود صعوبات في التهجي وعلامات الترقيم - وكانت تراجع مع المعلم كل ورقة تكتبها قبل تسليمها، وأخيراً في شهر ديسمبر، شعرت بأنها أتقنت استخدام فاصلة الوصل والجمل التابعة، وقد سلمت آخر واجب لها في اللغة الإنجليزية دون أن تراجع مع المعلم، وحصلت على أعلى درجة.

ومع صعوبة ذلك الفصل الدراسي بالنسبة إلى "كيواونا" فقد كانت تعاني نقص الموارد المالية؛ ما اضطرها إلى الاقتصاد بقدر الإمكان. حتى إنها في وقت من الأوقات نفذ رصيدها ببطاقة التغذية الخاصة بها ما جعلها تمكث يومين دون طعام، وكانت تقضي معظم وقتها في المذاكرة؛ لقد كان كل بحث أو مشروع تقدمه يشكل تحديًا لها، ومع نهاية الفصل الدراسي كانت تذاكر للامتحانات النهائية طوال الليل، وظلت على ذلك ثلاث ليالٍ متتالية، وقد انعكس اجتهادها على تقديراتها النهائية في ذلك الفصل الدراسي: فحصلت على تقديري جيد جدًا مرتفع، ودرجة ممتاز، ودرجة ممتاز مرتفع في الأحياء، وعندما تحدثت إليها قبل احتفالات بداية السنة، كانت تبدو منهكة بعض الشيء لكنها كانت تشعر بالفخر أيضًا، وقد قالت لي: "إنني لن أستسلم مهما بلغ بي الإنهاك والإرهاق، فأنا لست من النوع الذي يستسلم، فعندما كنت أعب لعبة الغميضة وأنا صغيرة، كنت أظل في الخارج حتى الساعة الثامنة إلى أن أمسك بالجميع. فأنا لا أستسلم أمام أي شيء مهما كان".

وفي الفصل الدراسي الثاني تحسنت درجاتها، ومع نهاية السنة الأولى وصل مجموعها التراكمي 3.8 نقطة، وظل أمامها ثلاثة أعوام، وهي مدة يمكن أن تسوء فيها الأمور وتحدث فيها الانتكاسات والأخطاء والكوارث، لكن "كيواونا" كانت تعرف جيدًا هدفها، وكانت تسير بخطى واثقة، وكان أكثر ما لفت نظري نحو "كيواونا" هو قدرتها على توجيه إمكاناتها غير المعرفية المدهشة - سمّها تحليلها بالإصرار، أو يقظة الضمير، أو المرونة، أو القدرة على تأجيل الرضا الشخصي - كل هذا طلبًا لجائزة بعيدة كانت تبدو لها بمنزلة أمر مجرد تمامًا، وهي لم تكن تعرف أيًا من سيدات الأعمال اللائي يسرن بالحقائب في وسط المدينة، بل إنها لم تكن تعرف أحدًا من خريجي الكليات سوى معلميهما، وكان "كيواونا" كانت تشارك في نسخة عالية المخاطر من تجربة المارشميلو لـ "والتر مايكل"، باستثناء أن الاختيار الذي عرض عليها هو تناول قطعة مارشميلو واحدة الآن أو الاجتهاد طيلة أربعة أعوام مع التقشف المستمر، والتوفير، والسهر طوال الليل، والمعاناة، والتضحية - ولكنها لن تحصل بعد ذلك على قطعتي مارشميلو، بل ستحصل على فطيرة فرنسية فاخرة لم تتذوق إياها من قبل، بل سمعت عنها، كما سمعت عن نابليون. ولكن "كيواونا" اختارت تلك الفطيرة

الفرنسية على الرغم من أنها لم تتذوقها من قبل، ولم تعرف من سبق له أن تذوقها، وإنما كانت تؤمن بأنها ستكون طيبة المذاق.

ولن يقدم على هذا الأمر جميع زملاء "كيواونا" في برنامج مؤسسة وان جول بهذا الاقتناع نفسه، ولن يكون من الواضح في العامين التاليين ما إن كانت مهارات القيادة التي تعلمتها "كيواونا" وزملاؤها قوية بما يكفي لتساعدهم على النجاح خلال سنوات الدراسة الأربع في الكلية، ولكن كانت الأرقام الشاملة التي تشير إلى القدرة على المثابرة جيدة للغاية في مؤسسة وان جول. فقد دخل الكليات التي تمتد الدراسة فيها أربعة أعوام في مايو عام 2012 أربعة وتسعون طالبًا من بين 129 طالبًا - من بينهم "كيواونا" - بدأوا مع مؤسسة وان جول منذ السنة الثالثة الثانوية من عشر مدارس ثانوية في شيكاغو في خريف عام 2009. وكان هناك أربعة عشر آخرون التحقوا بالكليات التي تمتد الدراسة فيها عامين، وقد استمر 84% منهم في الكلية؛ ما يعني أن هناك واحدًا وعشرين طالبًا فقط انصرفوا عن طريق الحصول على الشهادة الجامعية: كان هناك اثنان تركا فصول مؤسسة وان جول قبل نهاية المرحلة الثانوية، واثنان انضما إلى الجيش بعد المرحلة الثانوية، واثنان أكملوا المرحلة الثانوية لكنهما لم يدخلوا الكلية، وكان هناك خمسة دخلوا الكلية، لكنهم تسربوا منها في عامهم الأول، وهذه الأرقام وإن لم تكن ممتازة، فهي جيدة على الأقل بالنسبة إلى دفعة خضعت لبرنامج تجريبي، حيث كانوا يحصلون على حصة واحدة في الأسبوع بعد المدرسة، فهناك 66% من الطلاب الذين انضموا إلى البرنامج، وهم في السنة الثالثة من المرحلة الثانوية ما زالوا مستمرين في دراستهم في الكلية بعد أن أنهوا المرحلة الثانوية بثلاثة أعوام، وتكتسب هذه الأرقام أهمية كبرى عندما نتذكر أن المدرسين الذين يعملون مع مؤسسة وان جول يختارون الطلاب الذين يواجهون الصعوبات، ويستبعد دخولهم الكلية.

ولعل "جيف نيلسون" هو أول من يعترف بأن الحل الذي أوجده لم يكن حلًا مثاليًا للخلل المتفشي في تدفق موارد رأس المال على مستوى الدولة، إذ يلزم أن تكون لدينا منظومة للتعليم والدعم الاجتماعي تخرج مراهقين من الناحية الجنوبية متساوين مع نظرائهم في

السنة الدراسية نفسها، وليسوا متخلفين عنهم بعامين أو ثلاثة أو أربعة أعوام. وفي الوقت الراهن يعتبر برنامج مؤسسة وان جول والنظريات التي يقوم عليها هو التدخل الأكثر فائدة، فهذا البرنامج يحوّل المراهقين ذوي الأداء المتدني والدخل المنخفض إلى طلاب جامعيين ناجحين، وذلك لقاء مبلغ في حدود أربعمئة دولار في السنة عن كل طالب.

5. نحو مسار أفضل

1. التسرب من التعليم الجامعي

عندما كنتُ في السنة الأولى لي في جامعة كولومبيا في خريف عام 1985 - في المرحلة المضطربة نفسها من الحياة التي مرت بها "كيواونا ليرما" في خريف عام 2011 - اتخذت قرارًا تعزم "كيواونا" على ألا تتخذه مطلقًا: انقطعت عن الكلية، لقد كنت أشعر حينها بأنه اختيار مصيري ومؤثر، ولا أزال أشعر بذلك، وهو قرار أعدت النظر فيه مرات عديدة على مدار السنوات الخمس والعشرين الماضية، وكنت كثيرًا ما أندم عليه، وكنت أفكر فيه كثيرًا في أثناء تأليفي هذا الكتاب. عندما كنت جالسًا في الغرفة رقم 104 مع "كيواونا" وبقية طلاب فصل "ميشيل ستيفل" في مدرسة إيه سي إي تك الثانوية، كنت أشعر في بعض الأحيان ببعض الخجل: لقد كان التخرج في الكلية هدفًا صعبًا بالنسبة إلى هؤلاء الطلاب، وقد تمنيت لو أنني كنت أفكر بهذه الجدية وأنا في مثل عمرهم، أو كنت تحملت مسئوليتي حيال ما أريده من تجربة ارتياد الكلية.

ولم يخفَ عن ذهني أن كثيرًا من الباحثين الذين كتبت عنهم في هذا الكتاب - جميعهم ابتداءً من "جيمس هيكرمان" مرورًا بـ "أنجيلا داكورث" و"ميليسا رودريك" وانتهاءً بمؤلفي كتاب *Crossing the Finish Line* - يرون أن التسرب من المدارس الثانوية أو من الكلية يعد دليلًا على تدني القدرات غير المعرفية: كضعف مهارات الإصرار، والمثابرة، والتخطيط. وأرى أنني كان لديّ قصور في بعض هذه المهارات المهمة عندما قررت ترك الكلية، ولكن تأليفي هذا الكتاب أمدني بتفسير أكثر وضوحًا لاختياري، ولعلك تذكر حواراتي مع "دومينيك راندولف" - مدير مدرسة ريفرديل - الذي قدّم حجة مقنعة على أن الفشل - أو مجرد التعرض له - قد يكون خطوة حاسمة في الطريق نحو النجاح، حيث كان قلقًا من أن معظم طلابه الذين ينتمون إلى أسر مترفة - الذين يوجدون في المدارس الخاصة الأمريكية الحديثة، ويتلقون الدروس الخاصة، ويدرسون في الكليات التابعة

لرابطة اللباب، وأصحاب الوظائف الآمنة - تم خداعهم من قبل أسرهم والمدارس التي تعلموا فيها، بل من قبل ثقافتهم كذلك، وذلك من خلال عدم إتاحة الفرص الحقيقية لهم لكي يتغلبوا على المحن، ما يمكنهم من تنمية شخصياتهم. وقد قال لي "راندولف": "إن الفرد ينمي الإصرار والتحكم في الذات من خلال التعرض للفشل، وتجربة المرور بالفشل لا تتيحها معظم البيئات الأكاديمية رفيعة المستوى في الولايات المتحدة".

وقد كتبت مقالاً عن برنامج المعرفة قوة ومدرسة ريفرديل¹ والشخصية استناداً إلى ما جمعته من معلومات لهذا الكتاب، وقد نُشر هذا المقال في سبتمبر عام 2011 في مجلة نيويورك تايمز، وقد تسبب المقال في وابل من الردود غير المتوقعة من القراء، فقد قال بعضهم إنه مهتم بأفكار "راندولف" عن الفشل والنجاح، وقد أدلى بعض هؤلاء القراء بتعليقاتهم على موقع جريدة التايمز، وكتبوا عن تجاربهم الخاصة، ومنهم "ديف" الذي كتب في تعليقه أنه كان أحد الطلاب الذين تحدث عنهم "راندولف"، أولئك الطلاب الذين حصلوا على درجات عالية في الاختبارات، وانهال عليهم الثناء، ولكنهم لم ينموا الإصرار الذي ينبع من مواجهة التحديات الحقيقية، ويقول "ديفيد": "إنني الآن في الثلاثينيات من العمر² وكثيراً ما أفكر في الأمور التي كان يمكنني أن أحققها لو أنني لم أكن أرهب الفشل، ولم أتجنب الدخول في المخاطر التي لا يكون النجاح فيها مضموناً".

وقد وجدت الآن - بعد فترة طويلة من نشر المقال، وبينما كنت منهمكاً في الأبحاث التي تتناول الاستمرار في الكلية - أنني أفكر مجدداً في قرار ترك الكلية، وأسأل نفسي: ما الذي دعاني إلى ذلك؟ وأخذت أبحث عن بعض الأدلة في صندوق به أوراق قديمة تعود إلى تلك الفترة، ووجدت خطاباً كنت قد نسيت أمره، وهو يقدم شرحاً مستفيضاً لقرار ترك الكلية، وكنت قد كتبت ذلك الخطاب في خريف السنة الأولى لي في الكلية، حيث كنت في مهجعي في جامعة كولومبيا خلال عطلة أحد الأعياد. وكان الخطاب مكتوباً في ثماني صفحات - ولكي أعطيك فكرة عن حالة التكنولوجيا في ذلك الوقت، فإن الكتابة لم تكن فقط بخط اليد، بل كانت الكتابة متشابكة ومتصلة، فأخرجت الخطاب من الصندوق - وكانت به بقعتان من مشروب القهوة، لكنه كان لا يزال صالحاً للقراءة - وجلست في

مكتبي، وتنفست عميقًا، وأعدت قراءة الخطاب. وقد كان الخطاب - كما تتصور - مسببًا لشعور كبير بالإحراج، فلن تجد نصًا أكثر ارتباكًا من نص يكتبه طالب في الثامنة عشرة من عمره، وهو يحاول أن يتخذ قرارًا سيغير حياته، لكنني كنت مغتبطًا؛ لأنني وجدت ذلك الخطاب، وقد شعرت بإشفاق كبير على نفسي في تلك الفترة لما كانت تمر به من صراع، وذلك على الرغم من اللحظات التي لا يمكن تحملها ومررت بها في فترة المراهقة.

لقد كنت متفوقًا في المدرسة الثانوية، وكنت أحصل على درجات جيدة، وأحقق نتائج جيدة في الاختبارات القياسية. وحين وصلت إلى الكلية، كنت متحمسًا، لكنني كنت مرتبًا وتائهاً، فقد كنت في مدينة لا أعرف فيها أحدًا. كنت مسرورًا لوجودي في مدينة نيويورك، ولكنني لم أكن مسرورًا بالقدر نفسه عند جلوسي في قاعات المحاضرات. وكذلك عندما كنت في المدرسة الثانوية - حيث كنت أتحمل مسؤوليتي بوصفي طالبًا - كانت تراودني شكوك بشأن علاقتي بالتعليم الرسمي، لقد كانت لدي نزعة تمرد - حيث كنت أحب أن أقرأ كتابات "كيرواك" - وقد كنت مقتنعًا كغيري من طلاب المرحلة الثانوية المتمردين ممن سبقوني بعدم أهمية ما نتعلمه في الفصل، وفي أحد أيام شهر نوفمبر عندما كنت في جامعة كولومبيا قررت أنني لا أرغب في الاستمرار، وهكذا كتبت في ذلك الخطاب (بدقة متناهية حيث كنت أحسب من أول يوم لي في الحضانة): "لقد ظلت أتعلم طيلة خمسة عشر عامًا وثلاثة أشهر، وهذا يعادل 84% من عمري حتى الآن، إن كل ما أعرفه هو الذهاب إلى المدرسة، والتعليم ليس سوى لعبة، والحقيقة التي عليّ أن أواجهها هي أنني أجيد هذه اللعبة، فأنا أعرف القواعد، وأعرف كيف أؤدي جميع المهمات المطلوبة، بل إنني أعرف كيف أفوز في تلك اللعبة، لكنني سئمت منها، إنني أريد أن أجني ثمار ذلك الفوز".

وكثيرًا ما يكون من الصعب أن تترك شيئًا يخبرك الجميع بأنك تجيده كي تقوم بشيء لم تجربه من قبل على الإطلاق - كتبت هذا الكلام وأنا في الثامنة عشرة من عمري، لكن كان هذا تحديدًا هو ما شعرت بأنني أحتاج إليه: كنت أحتاج إلى المخاطرة، كنت أحتاج إلى أن أقوم بشيء أجهل إن كنت سأنجح فيه أم لا، كانت المحاولة التي أقدمت عليها رحلة طويلة؛ لقد كانت أشبه ما تكون بمغامرة من نوع ما: فقد أخذت بعض المال الذي كنت

سأنفقه على محاضرات الفصل الدراسي التالي، واشتريت به دراجة للتجوال وخيمة، وسرت بالدراجة بمفردي من أطلانتا إلى هاليفاكس، وكنت أنام في الحقائق العامة، والباحات الخلفية لمنازل الغرباء، لقد كانت تلك فكرة من غرائب الأفكار، فأنا لم يسبق لي أن خرجت في رحلة طويلة بالدراجة من قبل، بل لم يسبق لي أن خرجت في رحلة قصيرة بمفردي، ولم أذهب من قبل إلى جنوب أمريكا، ولم أكن أجيد التحدث مع الغرباء. لكنني شعرت بأنه ينبغي لي أن أطوع نفسي للقيام بذلك، كنت أفكر في أن ما سأتعلمه من الشارع ربما يفوق ما سأتعلمه من الجامعة، حتى إنني كتبت في ذلك الخطاب: "ربما يكون ذلك فشلاً تاماً، أو انهياراً، أو كارثة عظيمة، ربما يكون هذا هو أكثر التصرفات غير المسؤولة التي سأقدم عليها. ولكن هذا مجرد احتمال، فقد يكون على العكس من ذلك".

وبعد يومين من نشر مجلة نيويورك تايمز مقالي عن قصة برنامج المعرفة قوة ومدرسة ريفرديل، أرسل إليّ أحد القراء برسالة على البريد الإلكتروني ينصحي فيها بمشاهدة الخطاب الذي ألقاه "ستيف جوبز" في حفل التخرج في جامعة ستانفورد عام 2005، وقال في رسالته: لقد كان هناك تشابه كبير بين أفكار "جوبز" عن الفشل والشخصية، والنقاشات التي حاولت أن أسلط الضوء عليها في مقالي، وقد نال ذلك الخطاب اهتماماً كبيراً بعد الوفاة المفاجئة لـ "جوبز"، لكن ما حدث هو أن المقال كان قبل وفاته بأسابيع قليلة، ولم أكن قد رأيت ذلك الحديث أو اطلعت عليه، فضغطت على رابط اليوتيوب الذي أرسل به إليّ ذلك القارئ، وشاهدت خطاب "جوبز"، وسرعان ما أدركت أنني كنت أجهل الكثير عن قصة حياته، وفي أثناء مشاهدي الفيديو عرفت أنه كان قد ترك الكلية عندما كان في السنة الأولى - وهي كلية ريد في ولاية أوريغون، وإذا كنت تحاول أن تجد مبرراً لقرارك ترك الكلية بعد عقود من اتخاذك إياه، فإن أكثر ما يطمئنك هو أن تجد أحد أنجح رجال الأعمال وأكثرهم إبداعاً في الوقت الحالي قد قام بالشيء نفسه من قبل. وما يبعث على مزيد من الطمأنينة هو أن هذا الرجل ليس نادماً على ذلك، وقد بيّن "جوبز" في حديثه أن تركه الكلية "كان أحد أفضل قراراتي" 3، بل إنه كان مفيداً له ولشركة آبل: فبعد أن تخلص "جوبز" من متطلبات المقررات الدراسية، ركّز على الحضور في المقررات الأكثر

أهمية له، وكان من بينها مقرر في فن الخط، ومقرر في فن صياغة الحروف. وقد قال "جوبز": "لقد عرفت أساليب الكتابة بخطوط serif و sans serif وتباين المساحات بين المجموعات المختلفة من الحروف، وتعلمت الكثير عن روعة فن صياغة الحروف، ولم يكن لذلك كله تطبيق عملي في حياتي"، إلى أن بدأ هو و"ستيف وزنياك" بعد مرور عقد كامل تصميم نظام ماكنتوش، حيث قررا أن يستخدمنا - للمرة الأولى - الفنون الإبداعية لكتابة الحروف في أجهزة الكمبيوتر الشخصية، وقد ساعد هذا التطور على تمييز أجهزة ماكنتوش عن جميع الأجهزة التي كانت موجودة قبلها.

وكان أكثر شيء أثار اندهاشي في حديث "جوبز" هو قصته عن أكبر فشل له في حياته: وهو طرده من شركة آبل - التي أنشأها - بعد ذكرى ميلاده الثلاثين. وفي هذا الصدد يقول: "لقد خسرت الشيء الذي كنت أركز عليه طوال فترة حياتي بوصفي شخصًا بالغًا، وبدأ ذلك الشيء ينهار؛ لقد كان ذلك الفشل ساحقًا". وقال "جوبز" إنه لم يكن قادرًا على استيعاب الأمر في حينه، وقد تبين له لاحقًا أن هذا الفشل الشديد سمح له بأن يغير مساره ومسار عمله بطريقة أدت إلى نجاحات أكبر: فقد اشترى شركة بيكسار، وأحدث فيها نقلة كبيرة، وتزوج، ثم عاد إلى شركة آبل بعد أن جدد شبابه، وكما قال "جوبز" في حديثه: "لقد استبدلت بالحمل الذي يمثله النجاح والخفة والحرية التي يشعر بها المرء عندما يبدأ بداية جديدة، حيث لا يكون متأكدًا دائمًا من كل شيء"، وأعتقد أن هذا على وجه التحديد هو ما كنت أبحث عنه في مهجعي في جامعة كولومبيا: التحرر الذي تشعر به عندما تكون مبتدئًا في شيء ما.

وقد تركت الكلية بالفعل بعد نحو شهر من كتابتي الخطاب المذكور، واشتريت دراجة وخيمة وموقدًا من شركة كولمان، وتذكروا ذهاب بالطائرة إلى أطلانتا، ومن أطلانتا قدت الدراجة إلى هاليفاكس، وخضت الكثير من العواصف المطرية، وتعرضت لإطارات الدراجة للثقب عدة مرات، وغير ذلك من الأمور الغريبة التي صادفتني، واستغرقت الرحلة شهرين، وفي نهايتها شعرت بأنها أفضل شيء قمت به على الإطلاق، وحاولت بعدها بأشهر قليلة أن أعود مرة أخرى إلى الكلية في جامعة ماكجيل التي تقع في كندا، موطني الأصلي، وهي

الجامعة التي بدأ فيها "مايكل مينلي" - بعد ذلك بعشر سنوات - اكتشاف الأشياء الرائعة في تجربته عن الفئران وعاداتها في تربية صغارها، ولكنني تركتها مرة أخرى بعد ثلاثة فصول دراسية لكي أتدرب في مجلة هاربر، وحين تركت الكلية هذه المرة لم أعد إليها مطلقًا، ولم أحصل على البكالوريوس، وبدأت أعمل بشكل متقطع صحفيًا ومحررًا في المجلات، فأنا لم أنشئ شركة ك آبل أو نيكست (وهي شركة فشل "جوبز" في إقامتها)، بل إنني في الحقيقة بقيت على مدار عقدين أواجه أسئلة مماثلة لتلك الأسئلة الصعبة التي كنت أطرحها على نفسي في مهجعي في جامعة كولومبيا - هل يجدر بي أن أفعل شيئًا أجيده أم شيئًا أحبه؟ هل عليّ أن أخاطر، أم أتجنب المخاطر؟ إلى أن وجدت نفسي ذات صباح في أحد الأيام الخريفية، وبعد أن تركت جامعة كولومبيا بأربعة وعشرين عامًا، وجدتني أترك مؤسسة أخرى مرموقة في مدينة نيويورك، وهي جريدة نيويورك تايمز، وكانت هذه مخاطرة أخرى، لكن في هذه المرة لم تكن المخاطرة العجيبة التي خضتها عبارة عن رحلة بالدراجة نحو الجانب الآخر (الناحية الجنوبية) من أمريكا، بل كانت الشروع في تأليف هذا الكتاب.

2. رعاية الوالدين لأولادهما

عندما أتأمل حاليًا النجاح والفشل، أفكر في مستقبل ابني "إلينجتون" أكثر من تفكيري في مستقبلي، فأرى أنني قد حققت بالفعل أمورًا، وأخفقت في أمور أخرى، ولكن ماذا عن "إلينجتون"؟ قد يحدث له أي شيء، وقد شرعت في تأليف هذا الكتاب في الوقت الذي ولد فيه "إلينجتون"، وكان من المقرر له أن ينشر بعد ذكرى يوم ميلاده الثالثة؛ لذا فإن السنوات التي قضيتها في العمل على هذا الكتاب قد تزامنت مع السنوات الأولى من حياته التي يرى علماء الأعصاب أنها هي السنوات الأكثر خطورة في نمو الطفل، وقد كان لتأليف الكتاب - بخاصة البحث الذي يتعلق بالمخ، الذي كتبت عنه في الفصل الأول من الكتاب - تأثير عميق في مفهومي عن الأبوة.

وعندما ولد "إلينجتون" كنت قلقًا مثل معظم الآباء - الذين كانوا تحت تأثير الفرضية المعرفية - من عدم نجاحه في حياته، إلا إذا قُدمت إليه البطاقات التعليمية وأسطوانات موسيقى موزارت، وجعلته يتدرب عليها حتى يحصل على درجة مثالية في اختبار القبول لمرحلة الروضة، لكن الباحثين الذين بدأت قراءة أبحاثهم عن المخ وجّهوني إلى وجهة مختلفة، فقد قالوا إن هذه السنوات الأولى لها أهمية بالغة في نمو المخ لدى الأطفال، لكن معظم المهارات المهمة التي يتعلمها الطفل في تلك السنوات لا يمكن تعلمها من خلال البطاقات التعليمية.

وهذا لا يعني أنني توقفت فجأة عن الاهتمام بتعليمه مهارات القراءة والكتابة، والجمع والطرح، بل يعني أنني أصبحت مقتنعًا بأنه سيكتسب هذه المهارات عاجلاً أم آجلاً، أيًا كان ما أقوم به، والسبب في ذلك ببساطة هو أنه كان يتربى في بيت مليء بالكتب، وكان والداه يحبان القراءة، ويجيدان الحساب. أما الأمر الذي لم أكن واثقًا به تمامًا، فهو مهارات الشخصية الخاصة به.

وقد لا يكون من الملائم استخدام لفظ الشخصية عند الحديث عن طفل رضيع، وأنا أوافق على أن نمو شخصية الفرد يعتمد على عدد من التفاعلات الغامضة بين الثقافة، والأسرة، والعوامل الوراثية، والإرادة الحرة، والقدر. لكنني أرى أن أهم اكتشاف توصل إليه الجيل الجديد من علماء الأعصاب هو الارتباط الوثيق بين الكيمياء التي تنظم عمل المخ لدى الأطفال وسيكولوجية البالغين، وقد اكتشف هؤلاء العلماء أن ترسيخ هذه الصفات الإنسانية النبيلة والمعقدة التي نسميها الشخصية عبارة عن تفاعل تلقائي وطبيعي لعدد من المواد الكيميائية في مخ الأطفال وأجسادهم خلال مرحلة النمو، ولا شك في أن التفاعلات الكيميائية لا تشكل قدر المرء، إذ من الممكن تعديلها، لكن هؤلاء العلماء قد بيّنوا أن التأكد من سلامة وظائف المحور الوطائي - النخامي - الكظري لدى الطفل هو أكثر الطرق التي تضمن اتصافه بالشجاعة، والفضول، والعطف، والحصافة عندما يصبح شخصًا بالغًا. ولكن كيف يمكننا أن نضمن هذا الأمر؟ لا يتطلب هذا الأمر شيئًا يفوق إمكانياتك، أولاً عليك أن تبذل وسعك في حماية طفلك من التعرض للصدمات الحادة والتوتر المستمر، وأن

تمنحه الشعور بالأمان وهو الأهم، وأن تعزز علاقتك به، ويفضل أن تكون علاقته بكلا والديه قوية للغاية، وهذا الجزء ليس كفيلاً بمفرده بتحقيق النجاح، لكنه يمثل جزءاً كبيراً منه.

وكان أحد أكثر الأبحاث تأثيراً في نفسي عندما كان "إلينجتون" لا يزال رضيعاً، بحثاً أجراه "مايكل ميناي"، وقد يبدو الاعتراف بهذا الأمر محرّجاً بعض الشيء، فقد كنت أفكر كثيراً في صغار الفئران عندما كان "إلينجتون" طفلاً رضيعاً، فقد قضيت الكثير من الوقت أفكر ملياً في عادات الاهتمام بالصغار الموجودة لدى البشر، وكنت أدرك أن أمهات الفئران التي تكثر من لعق صغارها وتنظيفها؛ ليست في حالة من القلق الدائم، فهي لا تمارس هذه العادة مع صغارها باستمرار، بل كانت تفعلها في موقف واحد ومعين: وذلك عندما تكون الصغار في حالة من التوتر الشديد، وكأن الفئران الأمهات كانت تعلّم صغارها مهارة قيمة من خلال التكرار: وهي كيفية التحكم في التوتر المتزايد، واستعادة حالة الاسترخاء والهدوء، وأنا أرى أن المهارة المقابلة لدى الأطفال من البشر تتمثل في القدرة على استعادة الهدوء بعد نوبة الغضب، أو التعرض لشيء مخيف، وهذا هو ما كنت أركز على تعليم "إلينجتون" إياه، فأنا لم أقم بلعق ابني، ولا الإكثار من تنظيفه، ولكن إن كان هناك ما يقابل عادة اللعق والتنظيف في البشر، فإن هذا المقابل قد يتضمن الطمأنة، والمعانقة، والتحدث، والتشجيع. وقد كنت أنا وزوجتي "باولا" نكثر من هذه الأمور عندما كان "إلينجتون" صغيراً، وأنا أظن أن القيام بهذه الأشياء مع "إلينجتون" عندما كان طفلاً سيحدث فارقاً كبيراً في شخصيته بعد ذلك، كما سيشكل فارقاً كبيراً في تحقيقه السعادة والنجاح أكثر من أي شيء آخر كنا نقوم به معه.

ولكن مع مرور السنوات، وجدت - كغيري ممن سبقني من الآباء الذين لا حصر لهم - أنه يحتاج إلى ما هو أكثر من الحب والمعانقة؛ لقد كان يحتاج أيضاً إلى التهذيب، والقواعد، والحدود، كان يحتاج إلى من ينهأه ويأمره. وكان أكثر ما يحتاج إليه أن يمر بمحنة مناسبة لسنه، كان يحتاج إلى فرصة ينتصر فيها على الفشل دون مساعدة من أحد، ولكن ذلك الأمر كان أكثر صعوبة بالنسبة إليّ وبالنسبة إلى "باولا" - فقد كان يبدو لنا أمراً غير طبيعي

مقارنة بالتشجيع والمعانقة - وأنا أعلم أن هذه فقط هي بداية الكفاح الطويل الذي سنواجهه، فنحن مثل بقية الآباء والأمهات، في حيرة بين أمرين أولهما الدافع الذي يدفعنا إلى توفير كل شيء لطفلنا وحمايته من جميع المخاطر، وثانيهما أننا نعلم أنه يجب علينا أن نتركه يمر بتجربة الفشل إذا كنا نريد له أن ينجح في حياته. وبعبارة أكثر دقة: يجب علينا أن نساعد على أن يتعلم كيفية إدارة الفشل. وهذه الفكرة - وهي أهمية أن يتعلم الطفل كيفية التعامل مع إخفاقاته والتعلم منها - تعد سمة مشتركة في عدد من فصول هذا الكتاب، وقد كانت "إليزابيث شبيجل" - مدربة الشطرنج - خبيرة في هذا الأمر، فقد كانت تسلم بأن جميع طلابها سوف يخسرون كثيرًا، وهذا أمر يحدث لجميع لاعبي الشطرنج، وكانت "شبيجل" ترى أن مهمتها ليست منعهم من الإخفاق، بل أن تعلمهم كيف يتعلمون من إخفاقاتهم، وكيف يواجهون إخفاقاتهم بصراحة ووضوح، وكيف يواجهون الأسباب التي أدت بهم إلى الفشل تحديدًا، وكانت ترى أنهم لو تمكنوا من ذلك فسيكون أداؤهم أفضل في المرة التالية، كما حدث مع "ستيف جوبز" في عودته إلى شركة آبل للمرة الثانية.

وعندما كنت أتحدث مع المعلمين والمديرين في مدرسة ريفرديل الذين قرأوا مقالي عن الشخصية في مجلة التايمز، وأرادوا أن يتحدثوا عنه، بالإضافة إلى المعلمين وأولياء الأمور في المدارس الخاصة، كان أكثر ما يقلقهم على وجه التحديد أن أطفالهم محميون تمامًا من التعرض للمحن؛ ما يعوق قدرتهم على التغلب على الفشل والتعلم منه، وبينما كنت أكتب تقريرتي في مدرسة ريفرديل، شعرت بأن هناك قلقًا متفشيًا - وإن كان لا يزال في بدايته - في ثقافة الترف المعاصرة، فشعرت بأن هناك شيئًا ما لا يسير على ما يرام في القنوات التقليدية للسعي نحو الجدارة، فقد كان شبابنا يتخرجون في أفضل مؤسسات التعليم العالي بامتياز، بالإضافة إلى تمتعهم بمهارات مصقولة في حل الاختبارات، ولكنهم لا يملكون أمورًا كثيرة تمكنهم من أن يشقوا طريقهم في الحياة، فهناك عدد أقل من رجال الأعمال الذين يتخرجون في أفضل الكليات في وقتنا الحالي، وهناك عدد أقل من المصلحين وأصحاب الأفكار المتحررة والفنانين، ويشمل هذا بقية المجالات، باستثناء أصحاب البنوك الاستثمارية والمستشارين الإداريين. وقد جاء مؤخرًا في تقرير أعدته

جريدة نيويورك تايمز أن 36 % من خريجي جامعة برينستون 5 عام 2010 عملوا في القطاع المالي، بينما عمل 26 % في قطاع أسسته الجامعة بقطاع الخدمات، وأبرز مجالاته هو خدمة الاستشارات الإدارية. وبعبارة أخرى فإن نصف الخريجين عملوا في البنوك الاستثمارية أو في مجال الاستشارات، وكان ذلك بعد انهيار القطاع المالي عام 2008. (كان ثلاثة أرباع خريجي جامعة برينستون تقريبًا يعملون في هذين المجالين قبل وقوع الأزمة الاقتصادية).

وبالنسبة إلى بعض المحللين، فإن إرسال العديد من أفضل وألمع شبابنا إلى مهن من المعروف عنها أنها لا تحقق مستوى عميقًا من الرضا الذاتي، أو تحمل في طياتها قيمة اجتماعية كبيرة، ما هو إلا استمرار للظاهرة التي حدثني عنها معلمو مدرسة ريفرديل: حيث يجتهد الطلاب اجتهدًا كبيرًا دون أن يضطروا إلى اتخاذ قرار صعب، أو مواجهة تحدٍّ حقيقي؛ ومن ثم يدخلون إلى معترك الحياة وهم يتمتعون بالكفاءة لكنهم يعانون التيه، وقد كتب "جيمس كواك" - المدوّن في مجال الاقتصاد وأستاذ القانون - عام 2010 مقالًا مهمًا على مدونته يتناول 6 فيه هذه المشكلة بعنوان: "لماذا يتجه خريجو جامعة هارفارد إلى العمل في جريدة وول ستريت؟"، حيث اتجه "كواك" إلى العمل مستشارًا إداريًا بعد تخرجه في جامعة هارفارد شأنه في ذلك شأن كثير من زملائي، وقد بيّن أن المال ليس هو السبب في خوض هذا المسار، بل إن الشركات هي التي تجعل هذا المسار سهلًا، وتجعل من السهل اتخاذ قرار تصعب مقاومته.

ويقول "كواك": "إن الطالب العادي في جامعة هارفارد حاليًا مدفوع بالخوف من عدم النجاح أكثر من الرغبة المجردة في أن يقوم بشيء محدد، واختيارات طلاب جامعات رابطة اللبلاب لما بعد التخرج تنبعث من قاعدتين رئيسيتين: (1) حصر أقل عدد ممكن من الخيارات و(2) القيام بالأمر التي تزيد من احتمالية زيادة الإنجازات المستقبلية"، ويدرك القائمون على التوظيف في البنوك الاستثمارية والشركات الاستشارية هذه الحالة النفسية، ويستغلونها الاستغلال الأمثل: فالوظائف المعروضة بها درجة من المنافسة، وذات مكانة مرموقة، لكن عملية التقديم والقبول تتسم بالصرامة مع إمكانية التنبؤ بها، ويقنع القائمون

على التوظيف بالشركات خريجي الكليات⁷ بأنهم عندما يعملون في الشركات فإنهم لا يختارون شيئًا من الناحية الفعلية، بل إنهم يقضون عدة سنوات في جني المال، وربما يشير عليهم القائمون على التوظيف بأنهم إنما يقومون بعمل يفيد جميع البشر، وأنهم في وقت ما في المستقبل سيتخذون القرار الفعلي بشأن ما يريدون أن يقوموا به، وما يطمحون إليه لأنفسهم، ويقول "كواك": "إن كل هذا يحدث بشكل تلقائي بالنسبة إلى الأشخاص الذين لا يعرفون كيف يحصلون على وظيفة في ظل الاقتصاد المنفتح، والأشخاص الذين ينهون كل مرحلة من حياتهم وهم يعتزمون أن يقوموا بأروع ما يمكنهم أن يقوموا به في المرحلة التالية".

3. تحدُّ مختلف

إذا كنت طالبًا في جامعة هارفارد، فإن وجود صعوبات في التعامل مع تحديات الشخصية لديك قد تؤدي بك إلى العمل في إحدى الوظائف المصرفية الاستثمارية العادية. أما إذا كنت مراهقًا تعيش في الناحية الجنوبية من شيكاغو، فقد تنتهي بك تلك الصعوبات إلى دخول السجن، أو على الأقل دخول مدرسة فيفيان إي سامرز البديلة، وفي حين أنه من الصعب إثبات مسؤولية عموم الناس عن مساعدة خريجي جامعات رابطة اللبلاب على الوصول إلى إمكاناتهم الكاملة، لكن من الأكثر يسرًا أن ندفع بحجة أن للمجتمع دورًا مهمًا في التنمية الناجحة للأطفال الذين يعيشون في فقر وبؤس. ويحمل كل من الليبراليين والمحافظين رؤى متباينة عما يجب على الحكومة القيام به لمساعدة الأسر الفقيرة، ولكن كلاً من الاتجاهين يتفق على أن الحكومة لا بد لها من أن تقوم بشيء ما. أي المساعدة على التخفيف من وطأة الفقر ومنح الشباب فرصًا للنجاة والتخلص منه: وعلى مر التاريخ كان هذا إحدى المهمات الأساسية لأية حكومة وطنية، وهذا يتساوى مع بناء الجسور والدفاع عن الحدود. وتشير الأرقام الموجودة في إحدى الدراسات الاستقصائية الحالية التي يجريها مركز بيو للأبحاث⁸ إلى أن معظم الأمريكيين يبدون تعاونًا، وعلى الرغم من أن الدعم العام لأغراض المعونة المقدمة إلى الأسر الفقير قد تناقص منذ عام 2008 - كما

يحدث كثيرًا خلال أوقات الأزمات الاقتصادية - فإن أغلبية الأمريكيين لا يزالون يوافقون على "ضرورة أن تضمن الحكومة لكل مواطن الطعام والمأوى"، و"أن الحكومة مسئولة عن رعاية غير القادرين على رعاية أنفسهم"، وعندما ننظر إلى المشكلة من منظور الفرص، نجد أن إجماع الرأي العام على هذا قد أصبح أكثر وضوحًا: فمنذ عام 1987 عندما بدأت الدراسة التي أجراها مركز بيو، وافق ما بين 87 و 94 % من المشاركين في جميع الاستبيانات الاستقصائية على العبارة التي تقول: "يجب على مجتمعنا أن يبذل كل ما يتطلبه الأمر للتأكد من حصول كل فرد في المجتمع على فرص متكافئة في النجاح".

ولكن في حين يظل الشعب الأمريكي ملتزمًا بمساعدة جيرانه الفقراء على النجاح، فإن هناك تغييرًا مهمًا قد وقع في العقود القليلة الماضية: فقد توقف الحديث الصاخب ذو النزعة الوطنية المتقدمة عن الفقر وأفضل السبل لمواجهة، وحل محله الصمت. ففي ستينيات القرن الماضي كان هناك تركيز كبير على الفقر في الحوارات العامة، فكان لزامًا على السياسيين أن يدلوا بدلوهم في هذه القضية، وخلال فترة إدارة الرئيس الأمريكي "ليندون جونسون" كان الشباب الطموحون والأذكياء في واشنطن يقصدون مكتب الفرص الاقتصادية، وهو يعد بمنزلة مركز قيادة الحرب على الفقر، وفي تسعينيات القرن الماضي كان هناك نقاش عام قوي، وأوسع نطاقًا، عن الفقر، وقد تركز في معظمه على قضية إصلاح نظام الرعاية الاجتماعية، ولكن هذه النقاشات تلاشت الآن. ونحن اليوم لدينا رئيس ذو توجه ديمقراطي، وقضى الفترة الأولى من حياته المهنية في مكافحة الفقر، فكان يعمل في الحي نفسه الذي يعمل فيه مرشدو برامج مؤسسة مساعدة الشباب حاليًا، حيث كان حينها يقوم بمهمة مشابهة، لكن الحديث العلني له عن الفقر هو الأقل مقارنة بمن سبقه من الرؤساء ذوي التوجه الديمقراطي.

وبالطبع ليس السبب هو اختفاء الفقر في حد ذاته، بل على العكس من ذلك. ففي ذروة الحرب على الفقر عام 1966، كان معدل الفقر أقل من 15 %، لكنه وصل إلى 15.1 % عام 2010. وقد أصبح معدل الفقر بين الأطفال أعلى في الوقت الحالي 10، ففي عام 1966 استقر معدل الفقر بين الأطفال عند نسبة تزيد قليلًا على 17 %، والآن زادت

النسبة لتصل إلى 22 %، ما يعني أن هناك نسبة تتراوح بين خمس ورُبُع الأطفال الأمريكيين تعيش في فقر.

ومن ثم، فإذا كانت مشكلة الفقر لا تزال - على الأقل - على ما هي عليه منذ ستينيات القرن الماضي، فلماذا توقفنا عن مناقشتها، ولو بشكل علني على الأقل؟ أعتقد أن الإجابة تتعلق في جزء منها بسيكولوجية عموم المثقفين. فقانون الحرب على الفقر قد ترك ندوبًا عميقة لدى المثاليين من ذوي التعليم الجيد الذين شنوا تلك الحرب؛ ما خلق نوعًا من اضطراب ما بعد الصدمة لدى الخبراء السياسيين، وتذكّر أن الرئيس "كينيدي" تحدث للمرة الأولى عن وضع نهاية للفقر في الوقت نفسه تقريبًا الذي وعد فيه الأمريكيين بالهبوط على سطح القمر، لقد كانت فترة بداية الستينيات في القرن الماضي هي حقبة التفاؤل والأمل الكبير في واشنطن، وقد حققت رحلات أبولو هذا الأمل، فقد كانت تلك البعثات انتصارًا قوميًا عظيمًا، وكانت الرسالة التي توجهها هي أننا كأمة يمكننا أن نحل أية مشكلة إذا صممنا على حلها.

باستثناء أننا لم نحل مشكلة الفقر، فقد كانت بعض التدخلات التي أنشأها قانون الحرب على الفقر ناجحة، ولكن كثيرًا منها لم يكن كذلك. بل كان أكثرها أقل نفعًا وأعظم ضررًا، وإن كنت تعتقد أن الأشخاص الأذكى الذين يعملون في الحكومة يمكنهم أن يحلوا المشكلات الكبرى، فهذه حقيقة مرة يصعب الاعتراف بها، ويصعب الاعتراف بأنه قد ثبت أن إحداث تقدم كبير في معالجة مسألة الفقر كان أصعب مما نظن، ولكن الأمر الأكثر مشقة من ذلك هو أننا ما زلنا نجهل ما يمكننا فعله بعد مرور خمسة وأربعين عامًا على بدء مواجهة مشكلة الفقر.

وقد حدث شيء آخر على مدار العقد الماضي من شأنه أن يساعد على تفسير توقف النقاش بشأن الفقر: وهو أنه تم دمج مع النقاش الدائر بشأن التعليم، وكثيرًا ما كان التعليم والفقر موضوعين مختلفين تمامًا في السياسة العامة، فقد كان هناك حوار منفصل يتناول الرياضيات الجديدة وأسباب عدم القدرة على القراءة، ثم كان هناك حوار آخر

منفصل عن الأحياء الفقيرة والجوع والرعاية الاجتماعية وترميم المنشآت السكنية، ولكن أصبح هناك حوار واحد يدور حول الهوية الموجودة بين الطلاب الأغنياء والفقراء من حيث التحصيل الدراسي، فقد كانت هناك حقيقة مؤكدة مفادها أن الأداء المدرسي للأطفال الذين نشأوا في أسر فقيرة في الولايات المتحدة كان سيئًا للغاية.

وهناك عدة أسباب للدمج الحاصل بين التعليم والفقر، ويرجع أول هذه الأسباب إلى الكتاب المثير للجدل 11 الصادر عام 1994 لـ "تشارلز موراي" و"ريتشارد هيرنستاين"، الذي يحمل عنوان *The Bell Curve*، وموضوع الكتاب هو معدل الذكاء. فبغض النظر عن رأيي أنا وكثيرين غيري بشأن الاستنتاج المعيب الذي يتضمنه الكتاب - وهو أن الفوارق بين الأعراق المختلفة في الاختبارات التحصيلية هي على الأرجح نتيجة الاختلافات الوراثية بين تلك الأعراق - فإن الكتاب يحتوي على ملحوظة جديدة شديدة الأهمية، وهي أن الدرجات في المواد الدراسية ونتائج الاختبارات التحصيلية تعد مؤشرات جيدة للغاية يمكن من خلالها التنبؤ بجميع النتائج التي سيتوصل إليها الفرد في حياته: فهي لا تتنبأ فقط بالشهادات التي ستحصل عليها، والدخل الذي ستجنيه بعد التخرج، بل تتنبأ أيضًا بما إن كنت سترتكب جرائم، أو ستتعاطى المخدرات، أو ستتزوج، أو ستنتهي حياتك الزوجية بالطلاق، وقد بيّن الكتاب أن الأداء الجيد للطفل في المدرسة يشير إلى نجاحه في حياته، سواء أكان الطفل ينتمي إلى أسرة فقيرة أم لا؛ ما أدى بدوره إلى ظهور فكرة مثيرة للاهتمام استرعت انتباه المصلحين الاجتماعيين من جميع الأطياف السياسية: وهي أننا إذا استطعنا أن نساعد الأطفال الفقراء على تحسين مهاراتهم الدراسية ونتائجهم فيها، عندها يمكن لهؤلاء الأطفال أن يخرجوا من دائرة الفقر بفضل إمكاناتهم وقدراتهم وحدها، دون حاجة إلى مزيد من المساعدات والتصدق عليهم.

وقد اكتسبت هذه الفكرة زخمًا في فترة التسعينيات وأوائل الألفية الجديدة بسبب ظاهرتين مهمتين، أولاهما تمرير قانون "عدم التخلي عن أي طفل" عام 2001، فللمرة الأولى أصبح القانون يُلزم الولايات والمدن والمدارس بتقديم معلومات مفصلة عن أداء الطلاب، ولا يقتصر ذلك على إجمالي الطلاب، بل يشمل الفئات المختلفة، كالطلاب الذين

ينتمون إلى الأقليات، ومن ينتمون إلى الأسر منخفضة الدخل، ومن يتعلمون اللغة الإنجليزية. وبمجرد أن بدأت المعلومات والإحصاءات تتوارد تبين أنه من المستحيل تجنب أو تجاهل الفجوة في التحصيل الدراسي، فقد كان أداء الطلاب الذين ينتمون إلى الأسر الفقيرة أسوأ كثيرًا من الطلاب الذين ينتمون إلى أسر من الطبقة المتوسطة، وكان هذا الوضع قائمًا في جميع الولايات والمدن والمدارس والصفوف الدراسية، فقد كان أبناء الأسر الفقيرة متأخرين عن غيرهم بما يعادل صفين دراسيين أو ثلاثة صفوف في المتوسط، وذلك بحلول الوقت الذي يتركون فيه التعليم في المرحلة الإعدادية. وفي كل سنة كانت الفجوة الحاصلة بين الطلاب الفقراء والأغنياء من حيث التحصيل الدراسي تزداد سوءًا¹².

أما الظاهرة الأخرى، فكانت تتمثل في ظهور عدد من المدارس التي بدا أنها تتحدى تلك الفجوة في التحصيل الدراسي: وهي المدارس التي تطبق برنامج المعرفة قوة وغيرها من المدارس التي تتبع الأسلوب نفسه، مثل أكاديمية أميستاد في مدينة نيوهيفن، ومدرسة روكسبري الإعدادية في بوسطن، وأكاديمية نورث ستار في مدينة نيوارك. وكان تمكن "ديفيد ليفين" و"مايكل فاينبيرج" من مساعدة طلابهما على تحقيق موجة أولى من النتائج المذهلة في الاختبارات قد سلبت لب الجماهير، فبدا أنهما قد وضعا نموذجًا موثوقًا وقابلًا للتطبيق في جميع المدارس، من شأنه أن يساعد على نجاح المدارس الأكثر فقرًا في المدن.

ومن هنا كانت هناك ثلاث حقائق شكلت مقياسًا فعالاً يمكن للمهتمين بالفقر أن يستخدموه: أولاً أن نتائج الاختبارات التحصيلية في المدارس لها ارتباط قوي بالنتائج الحياتية، وذلك بغض النظر عن خلفية الطالب، وثانيًا: أن نتائج الطلاب الذين ينتمون إلى أسر فقيرة في الاختبارات التحصيلية كانت أسوأ كثيرًا من نتائج الطلاب الذين ينتمون إلى الطبقة المتوسطة وممن ينتمون إلى الأسر الغنية. وثالثًا: أن هناك مدارس معينة تمكّنت من تحسين نتائج الطلاب الذين ينتمون إلى الأسر الفقيرة في الاختبارات التحصيلية، وذلك باستخدام نموذج مختلف تمامًا عن النموذج المتبع في المدارس العامة التقليدية، وخلاصة

القول إننا لو استطعنا أن نعمم هذه النتائج الجيدة التي توصلت إليها بعض المدارس، فسوف نتمكن من إحداث فارق ضخم في تأثير الفقر في نجاح الأطفال.

وكانت هذه طريقة مختلفة تمامًا للنظر إلى الفقر عما كان قبل ذلك، وقد تحمس لهذه الطريقة عدد كبير من الناس - وأنا من بينهم - ويرجع السبب الرئيسي في ذلك إلى إخفاق الطرق السابقة، فقد حاولنا أن ندفع الإعانات المالية إلى الأمهات في الأسر الفقيرة، وحاولنا تقديم مساعدات حكومية لتوفير المسكن، وحاولنا توفير خدمات برنامج هيد ستارت للخدمات الإنسانية والصحية، وتوفير العمل الشرطي المجتمعي، ولم يكن هناك أي تحسن لدى الأطفال الفقراء، لكن أصبح الآن واضحًا أننا لو تمكنا من تحسين المدارس العامة - بجعلها أكثر فاعلية بشكل كبير - فيمكن أن تصبح المدارس أداة أكثر فاعلية في مكافحة الفقر، مقارنة بأية أداة تم استعمالها في السابق، لقد كانت تلك فكرة فعالة أدت إلى إحداث تحول، فقد أشعلت شرارة حركة إصلاح التعليم.

4. نوع مختلف من الإصلاح

لم يكن مناصرو هذه الحركة قد حددوا وجهتهم في الأيام الأولى لها، بل كانت تجمعهم رؤية مشتركة - كانت لديهم رؤية وطنية للمدارس التي يمكنها أن تجعل مستوى الطلاب الذين ينتمون إلى أسر فقيرة مساويًا لمستوى طلاب المدارس التي تطبق برنامج المعرفة قوة - دون أن يكون لديهم اتفاق على الآليات الأكثر مناسبة، التي يمكنها أن تساعد على تحقيق تلك الرؤية، فهل يمكن أن يتحقق ذلك من خلال قسائم خاصة بهؤلاء الطلاب؟ أم من خلال منهج دراسي وطني؟ هل يتأتى ذلك من خلال زيادة عدد المدارس المستقلة؟ هل يمكن ذلك من خلال خفض عدد الطلاب في الفصول؟ والآن - وبعد مرور عقد من الزمان منذ بدء الحركة - اتفق مصلحو التعليم على مشكلة محددة: وهي كفاءة المعلم. لقد اتفق معظم مناصري حركة الإصلاح 13 على أن هناك أعدادًا كبيرة من المعلمين ذوي الأداء الضعيف بخاصة في المدارس شديدة الفقر، ويرون أن الطريقة الوحيدة لتحسين نتائج

هؤلاء الطلاب في تلك المدارس هي تغيير الطريقة التي يتم بها تعيين المدرسين وتدريبهم، ودفع مستحقاتهم، وفصلهم من العمل.

وهذا الرأي يرجع في أصوله الفكرية 14 إلى عدد من الأبحاث التي نُشرت في أواخر التسعينيات من القرن الماضي وأوائل الألفية الجديدة، وقد نُشرت هذه الأبحاث من قبل عدد من الاقتصاديين وخبراء الإحصاء، ومن بينهم "إيريك هانوشيك" و"توماس كين" و"ويليام ساندرز"، وقد زعمت هذه الأبحاث أنه من الممكن من خلال طريقة إحصائية تسمى القيمة المضافة تحديد فئتين متميزتين من المعلمين: المعلمين الذين يرفعون بانتظام من المستوى التحصيلي لطلابهم، والمعلمين الذين يشعر طلابهم دائماً بأنهم متأخرون عن غيرهم، وقد أدى ذلك إلى نظرية للتغيير، وهي: أن الطالب الفقير ذا الأداء الضعيف إذا ما أوكل إلى معلم ذي كفاءة عالية عدة سنوات متعاقبة، فإن درجاته في الاختبارات ستتحسن باستمرار وبصورة تراكمية، وسيتمكن من سد الفجوة التحصيلية التي تعزله عن غيره من أقرانه المتفوقين عليه في غضون ثلاثة أو أربعة أو خمسة أعوام. ولمزيد من التقدم بهذه الفكرة، فإنه إذا أمكن تجديد منظومة المدارس وعقود المعلمين بحيث يتسنى لكل طالب من الطلاب الذين ينتمون إلى أسر فقيرة أن يكون لديه معلم ذو أداء عالٍ، فإن تلك الفجوة التحصيلية قد تختفي تماماً.

وكانت أعلى المستويات في الحكومة تتبنى هذه النظرية على مدار السنوات القليلة الماضية، فمبادرة التعليم الأساسية التي أطلقتها إدارة "أوباما" كانت في الحقيقة تعرض على الولايات حوافز لإعادة كتابة أو تعديل القوانين التي تحكم مهنة المعلم فيها، وقام كثير من الولايات بتطبيق المبادرة، ما أسفر عن إخضاع أفكار تجريبية متنوعة للاختبار حاليًا فيما يتعلق بأجر المعلم وتقييمه وتبنيته في الوظيفة، وقد اتخذ هذا الأمر أشكالاً متعددة في منظومة المدارس على مستوى البلاد، وفي الوقت نفسه أجرت مؤسسة جيتس - وهي إحدى المؤسسات الخيرية التي تنفق على التعليم أموالاً تفوق ما تنفقه بقية المنظمات الخيرية - مشروعًا بحثيًا يدعى Measures of Effective Teaching (أي

مقاييس التعليم الناجح) تقدر تكلفته بثلاثمائة مليون دولار في محاولة لإيجاد إجابات حاسمة عن الأسئلة المطروحة عن معنى التعليم الجيد وآلية تحسين التعليم القومي.

وعلى الرغم من الإجماع بين مُصّلحي التعليم، فإن الحملة القومية على كفاءة المعلم كانت موضع جدل إلى حد كبير، فنقابات المعلمين بشكل خاص كانت تخشى من تقويض الامتيازات المهنية التي ناضلت من أجل تحقيقها خلال العقود الماضية، وأياً كان رأيك في تلك النقابات، فإن الأبحاث التي تناولت المعلمين لا تزال غير حاسمة في عدد من الجوانب المهمة، فأولاً نحن نجهل الطريقة التي يمكن بها أن نتنبأ بالوقت الذي سيرتفع فيه مستوى أداء المعلم، فالمعلمون الذين يبدو عليهم أنهم غير ناجحين في عملهم أحياناً ما يحققون تقدماً كبيراً مع طلابهم بشكل مفاجئ، وأحياناً ما ينهار مستوى المعلمين اللامعين بشكل مفاجئ¹⁵. وليس لدينا ما يثبت أن المعلم الممتاز سوف يكون له تأثير إيجابي تراكمي في أداء الطلاب الذين ينتمون إلى الأسر ذات الدخل المنخفض، ويبدو أنه من الممكن للطلاب الذي يدرس على يد معلم متميز طيلة ثلاثة أعوام متعاقبة أن يكون تحصيله ثلاثة أضعاف تحصيل الطالب الذي يدرس على يد المعلم نفسه مدة سنة واحدة، ولكن الواقع قد لا يكون كذلك، فقد يتلاشى تأثير المعلم بعد سنة واحدة، وليس هناك دليل ثابت على هذا أو ذاك.

وحقيقي أن المنظومة الحالية ظلت سنوات عديدة تخصص المدرسين الأقل كفاءة لتعليم الطلاب الأكثر احتياجاً إلى المدرسين المتفوقين في عملهم، وهذه مشكلة خطيرة، لكننا بطريقة ما سمحنا لتغيير طريقة تثبيت المدرسين في العمل بأن يكون أداة السياسة المحورية لجهودنا الرامية إلى تحسين حياة الأطفال الذين ينتمون إلى أسر فقيرة، بل إن الأبحاث الأصلية التي كتبها "هانوشيك" وغيره من الباحثين التي يستشهد بها مؤيدو الإصلاح حالياً توصلت إلى أن كفاءة المعلم¹⁶ مسئولة عن أقل من 10 % من الفجوة التي تفصل بين الطلاب ذوي الأداء المرتفع والطلاب ذوي الأداء المنخفض.

والجانب السلبي لدمج النقاش عن الفقر بالنقاش المتعلق بالتعليم هو أن ذلك من شأنه أن يبعدك عن المشكلة الحقيقية، فتفكر في أن السؤال المهم هو: كيف يمكننا أن نحسن من

كفاءة المعلم؟ في حين أن هذا الأمر ليس سوى جزء من سؤال أشمل وأكثر عمقاً، وهو: ما الدور المنوط بنا باعتبارنا دولة لتحسين فرص ملايين الأطفال الفقراء في الحياة؟

ومع اندماج النقاش عن الفقر بالنقاش عن إصلاح التعليم، نجد أننا أغفلنا حقيقة مهمة أخرى، وهي أن الكثير من الإصلاحات في المدارس العامة، بما فيها المدارس المستقلة ذات الأداء المرتفع كانت أكثر نجاحاً مع الطلاب الأكثر كفاءة، وينتمون إلى أسر منخفضة الدخل، كما كانت كثيرًا ما تفشل مع الطلاب الأقل كفاءة، وتكمن المشكلة في أن سطحية تعريف وزارة التربية والتعليم لحالة العوز تخفي تلك الحقيقة، والمؤشر الرسمي حاليًا للحالة الاقتصادية لأي طالب في المدارس الأمريكية العامة هو أهليته لتلقي إعانة وجبة الغذاء المدرسية، وهي مساعدة تقدمها الحكومة إلى أية أسرة يقل دخلها السنوي عن 185 % عن خط الفقر، وكانت قيمة هذه النسبة عام 2012 تعني 41.348 ألف دولار أمريكي دخلًا سنويًا لأسرة مكونة من أربعة أفراد¹⁷. ومن هنا فعندما توصف إحدى المدارس أو المؤسسات بأنها تحسّن نتائج الطلاب الذين ينتمون إلى أسر منخفضة الدخل، يجب علينا أن نتذكر أن اسم الدخل المنخفض لدى وزارة التربية والتعليم يشمل نحو أربعين في المائة من الأطفال الأمريكيين¹⁸، بمن فيهم الأطفال الذين يعيشون في أسر كان معظمنا سيصنفها ضمن الطبقة العاملة أو الطبقة المتوسطة كذلك. (وفي المدارس العامة في شيكاغو كان هناك طالب واحد من بين كل ثمانية طلاب لا يستحق إعانة وجبة الغذاء)¹⁹. وعلى مستوى وزارة التربية والتعليم، كان نصف الطلاب الذين ينتمون إلى أسر ذات دخل منخفض يعانون الفقر، بمعنى أنهم يعيشون تحت خط الفقر، ونصف هؤلاء الطلاب - وهم يمثلون نحو 10 في المائة²⁰ من جميع الأطفال في أمريكا - يعيشون في أسر يقل دخلها عن نصف الدخل الذي تم تحديده بأنه يضع أصحابه على خط الفقر، ويعني ذلك دخلًا أقل من 11 ألف دولار في السنة للأسرة المكونة من أربعة أفراد²¹.

وإذا كنت ضمن هؤلاء الأطفال الأمريكيين الذين يزيدون على سبعة ملايين طفل²² ممن يعيشون في أسر تجني دخلًا أقل من 11 ألف دولار في السنة، فإنك ستواجه عددًا لا يحصى من المعوقات التي تحول دون النجاح في التعليم، وهي المعوقات التي لا يواجهها

الأطفال الذين يعيشون في أسر تجني دخلاً يصل إلى 41 ألف دولار في السنة، وهناك اعتبارات مالية واضحة - فقد لا تطيق الأسرة تكاليف المسكن الملائم، أو توفير الطعام المغذي، ناهيك عن الملابس الجديدة، أو الكتب، أو الألعاب التعليمية. ولكن أخطر معوقات التعليم التي يمكن أن تواجهك هي تلك التي تتجاوز إمكانيات أسرتك، فإذا كان دخل الأسرة قليلاً، دلّ ذلك على عدم وجود شخص بالغ في المنزل يعمل في وظيفة بدوام كامل على أغلب الظن، وقد يرجع ذلك إلى قلة الوظائف المتاحة، لكن قد يرجع أيضاً إلى وجود عقبات تواجه أحد الوالدين أو كليهما في الحصول على وظيفة، كأن يعاني أحدهما إعاقة أو اكتئاباً، أو أن يكون أحدهما مبتلى بإدمان إحدى المواد المضرة، ووفقاً للإحصاءات، فإن الطفل الذي يعيش في مثل هذه الظروف سيكون أداؤه في التعليم ضعيفاً على الأرجح، وفي الغالب إنه يتربى على يد أم عزباء انفصل عنها شريكها، ولكنّ هناك أيضاً على الجانب الإحصائي احتمالاً جيداً بأن يتم العهد بتلك الأم إلى إحدى الهيئات المعنية برعاية الأطفال بسبب وجود تخوفات من الإهمال أو الإساءة.

ونستنتج من كلام علماء الأعصاب وعلماء النفس أن الطلاب الذين ينشأون في تلك الأسر يحصلون على الأرجح على تصنيف مرتفع في الاختبارات التي تقيس مدى التعرض للتجارب المؤذية في الطفولة، كما تقل لديهم احتمالية تكوّن علاقات التعلق الآمن بأولياء أمورهم، التي من شأنها أن تخفف من حدة آثار التوتر والصدمات، وبسبب هذه العوامل، فإن هذه النوعية من الطلاب تعد عرضة لأن يكون مستواها أقل من المتوسط في مهارات الوظائف التنفيذية، كما يكون لديها صعوبة في التعامل مع الأوضاع الصعبة. وهناك معوقات تعترضهم في الفصل الدراسي، من ضعف التركيز وضعف المهارات الاجتماعية وعدم القدرة على الالتزام بالهدوء واتباع التوجيهات، وهو ما يسميه المعلمون بالسلوك السيئ.

وعلى الرغم من الاحتياجات الشديدة لهؤلاء الأطفال، فإن مصلي التعليم لم يحققوا نجاحاً كبيراً في وضع تدابير التدخل المناسبة لهم، ولكنهم حققوا نجاحاً أكبر في وضع تدابير تدخل مناسبة للأطفال الذين ينتمون إلى أسر منخفضة الدخل لكنها أفضل حالاً -

وهي الأسر التي يصل دخلها السنوي إلى 41 ألف دولار، والحقيقة أنه لم يتمكن أحد من إيجاد طريقة يمكن الاعتماد عليها لمساعدة الأطفال الذين يعيشون ظروفًا صعبة للغاية، بل إننا قمنا بإنشاء منظومة مفككة ومخصصة للهيئات الحكومية والبرامج التي تتبعها بطريقة عشوائية، وتطبق في مرحلتي الطفولة والمراهقة.

وقد بدأ هذا السبيل المختل من العيادات الطبية المزدحمة والمخصصة للفقراء، ووصولاً إلى مكاتب الخدمات الاجتماعية، ومكاتب رعاية الطفل، وغرف الطوارئ في المستشفيات. وبمجرد أن يدخل الطلاب إلى التعليم، توجههم تلك المنظومة إلى تعليم خاص، وفصول تعويضية، ومدارس بديلة، وهناك برامج تطوير التعليم العام في سن المراهقة، ودورات استدراك الدروس الفائتة بمساعدة جهاز الكمبيوتر، الأمر الذي يتيح لهم أن يحصلوا على الشهادة الثانوية، ولكن دون أن يمتلكوا قدرًا جيدًا من المهارات، وكان هذا النظام يشمل دورًا للتبني خارج المدرسة، ومراكز احتجاز للأحداث، وموظفين مسؤولين عن المراقبة.

والهيئات التي تعمل ضمن هذه المنظومة، وتتسم بالأداء الجيد، وتمتلك فريق عمل جيدًا أعدادها قليلة (فلا تعمل بها أعداد كبيرة من الشباب المثاليين المتحمسين من خريجي الجامعات على غرار ما تقوم به مؤسسة تيتش فور أمريكا). كما أنه من النادر حدوث تنسيق جيد بين جهود تلك الهيئات، كما أن تعامل الأطفال والأسر المعنية مع هذه الهيئات كثيرًا ما يكون مثيرًا للإحباط والنفور، وغالبًا ما يكون مهينًا، وهذه المنظومة ذات تكلفة عالية مع ما فيها من انعدام الكفاءة، ومعدل النجاح بها متدنٍ للغاية، كما أن أغلب من يبدأون الدراسة بها منذ الطفولة نادرًا ما يتخرجون في الكلية، أو يحققون أي مؤشر يدل على سعادتهم أو نجاحهم في الحياة: فلا توجد وظيفة جيدة، أو أسرة متلاحمة أو بيت مستقر.

ولكننا مع هذا يمكننا أن نصمم منظومة مختلفة تمامًا للأطفال الذين يعانون المحن الشديدة في حياتهم مع أسرهم، وقد تكون البداية في مركز لطب الأطفال - كالمركز الذي تعمل حاليًا "نادين بورك هاريس" على إنشائه في حي بايفيو - هنترز بوينت، حيث تشتمل

كل زيارة طبية على التركيز على علاج الصدمات، وتقديم الخدمات الاجتماعية. وقد يستعان بالعلاجات التي تعتمد على الوالدين لزيادة فرص التعلق الآمن، كالعلاج باستخدام الاستدراك السلوكي الحيوي، والتعلق، وهو برنامج طورته جامعة ديلاوير. وقد يُستخدم برنامج مثل برنامج تولز أوف ذا مايند Tools of the Mind لمرحلة ما قبل الروضة، فهو يعزز مهارات الوظائف التنفيذية والرقابة الذاتية لدى الأطفال، وقد نحتاج إلى أن نضمن ارتياد هؤلاء الطلاب مدارس جيدة، ولا أعني بالطبع المدارس التي تجعلهم بحاجة إلى الفصول التعويضية، بل المدارس التي تدفعهم نحو تقديم الأداء الرفيع، ومهما كانت المساعدة التي يتلقاها هؤلاء الطلاب في المواد الدراسية في أثناء وجودهم في الفصول، فهم بحاجة إلى مساعدة إضافية تتمثل في التدخلات التي تجرى خارج المدرسة من أجل بناء الشخصية وتعزيز الجوانب الاجتماعية والنفسية، مثل التدخلات التي طبقتها "إليزابيث دوزيير" في مدرسة فينجر، أو تلك التدخلات التي تقدمها مجموعة تدعى تيرن أراوند فور تشيلدرين Turnaround for Children للعديد من المدارس ذات الإمكانيات المتواضعة في مدينة نيويورك وواشنطن العاصمة، ويمكن لهؤلاء الطلاب أن يستفيدوا في المرحلة الثانوية من الخدمات التي تقدمها مؤسسة وان جول وبرنامج المعرفة قوة خلال مرحلة الجامعة - وهو برنامج يوجه الطلاب إلى التعليم العالي، وهو لا يحاول أن يهيئهم لارتياذ الكليات على المستوى الدراسي فحسب، بل على المستويين الانفعالي والنفسي أيضًا.

ولا شك في أن نظامًا متناسقًا كهذا - وهو نظام يستهدف الطلاب الأكثر عرضة للفشل الذين يمثلون ما بين 10 و15% من الطلاب - سيكون مكلفًا، ولكنه سيكون في الغالب أقل تكلفة من المنظومة الفوضوية القائمة حاليًا، وهو لن يحافظ على مستقبل الطلاب فحسب، بل سيوفر الكثير من المال، ولن تظهر نتائجه على المدى البعيد فحسب، بل ستظهر أيضًا على المدى القصير.

5. السياسات المتبعة مع حالات العوز

إن الحديث عن تأثير الأسرة في نجاح الأطفال الفقراء أو فشلهم قد يكون اقتراحًا لا يبعث على الارتياح؛ لذا يفضل القائمون على إصلاح التعليم تحديد مكان العقبات الرئيسية التي تعوق النجاح في منظومة المدارس فقط، وهم لديهم اعتقاد راسخ بأن حلول تلك العقبات يمكن أيضًا إيجادها في الفصل الدراسي. وعلى النقيض، نجد أن المشككين في حركة الإصلاح كثيرًا ما يلقون باللوم على العوامل الموجودة خارج المدرسة، ويرون أنها هي التي تقف وراء الأداء المتدني للأطفال الفقراء، ولكنهم عندما يسردون تلك العوامل - وقد قرأت الكثير من تلك السجلات - يختارون العوامل التي ليست لها علاقة كبيرة بالدور الأسري، بل يختارون المؤثرات التي لا دخل للفرد بها، مثل السموم الموجودة في البيئة، وانعدام الأمن الغذائي، وعدم الحصول على الرعاية الصحية المناسبة، والمسكن المناسب، بالإضافة إلى التمييز العنصري، ولاشك في أن هذه المشكلات حقيقية ومهمة، لكنها لا تمثل على وجه الدقة أكبر معوقات النجاح الأكاديمي التي يواجهها الأطفال الفقراء في كثير من الأحيان؛ بخاصة الأطفال شديدي الفقر: وتأتي أكبر المعوقات من المنزل، والمجتمع الذي يخلق مستويات عالية من التوتر، بالإضافة إلى غياب العلاقة الآمنة مع الوالدين، وهي العلاقة التي بإمكانها أن تمكّن الطفل من التعامل مع ذلك التوتر.

إذن، عند البحث عن الأسباب العميقة لضعف التحصيل المرتبط بالفقر، ما الذي يجعلنا نركز على الأسباب غير الحقيقية، ونتجاهل الأسباب التي يخبرنا العلم بأنها هي الأكثر ضررًا؟ وأنا أرى أن هناك ثلاثة أسباب، وأول هذه الأسباب الجهل بالمصطلحات العلمية أو عدم فهمها، ومن أسباب عدم فهمها عدم وجود سهولة في استيعابها. فكلما احتجت إلى استخدام مصطلح المحور النخامي الوطائي الكظري لكي توضح فكرتك تجد أنك أمام مشكلة ما.

ويكمن السبب الثاني في أنه يوجد بيننا أشخاص لا يعيشون في تلك البيوت الفقيرة، ويتحدثون عن التفكك الأسري بها دون فهم حقيقي، فمن الوقاحة انتقاد الطريقة التي يربي بها الآخرون أطفالهم على الملأ، وبخاصة عندما تتحدث عن أولياء الأمور الذين لا يملكون الإمكانيات المادية التي تملكها، ويزداد القلق في هذه الحالة عندما يوجّه ذلك النقد

من شخص من ذوي البشرة البيضاء إلى الوالدين ذوي البشرة السوداء، حيث يحيي مثل هذا الحوار قضايا مؤلمة في السياسات الأمريكية وفي نفسية المواطن الأمريكي.

وأخيرًا، فإن ما يقوله العلم الحديث عن المحن بكل ما فيها من تعقيد يمثل تحديًا حقيقيًا لبعض المعتقدات السياسية الراسخة، سواء أكان هذا عند الاتجاه اليساري، أم عند الاتجاه اليميني. ويرى الليبراليون أن العلم يؤيد المحافظين في نقطة شديدة الأهمية، وهي أن الشخصية لها دور مهم، وليست هناك أداة أكثر نفعا في محاربة الفقر - يمكن تقديمها إلى الشباب الذين يعانونه - من نقاط قوة الشخصية التي يمتلكها كل من "كيثا جونز" و"كيوونا ليرما" و"جيمس بلاك"، وتتمثل في مجموعة من الصفات المثيرة للإعجاب، وهي يقظة الضمير، والإصرار، والمرونة، والمثابرة، والتفأؤل.

ولكن المشكلة التقليدية لدى المحافظين هي أنهم كثيرًا ما يتوقفون عند أهمية دور الشخصية ... ولا يتعدونها إلى غيرها من الأسباب، فالمجتمع لا يمكنه أن يفيد كثيرًا الأشخاص الفقراء ما لم يحسنوا من أنفسهم وينموا شخصيتهم حتى تصبح أفضل مما هي عليه، وخلال قيامهم بذلك نكون نحن غير مسؤولين عنهم، فمسئوليتنا تنتهي عند إلقاء الخطب على الفقراء، ومعاقتهم إن لم يسلكوا السلوك الذي نأمرهم به.

ولكن العلم في الواقع يشير إلى حقيقة مغايرة تمامًا، إذ يقول إن نقاط قوة الشخصية التي لها أهمية كبيرة في نجاح الشباب ليست أمورًا غريزية، فلا يكتسبها الفرد بشكل تلقائي بفعل الصفات الوراثية المناسبة أو الظروف الجيدة، كما أنها ليست اختيارًا يقدم عليه الفرد ببساطة. بل هي وثيقة الصلة بكيمياء المخ، وتعمل البيئة التي ينشأ فيها الطفل على تشكيلها بطريقة قابلة للقياس والتنبؤ؛ ما يعني أن المجتمع ككل يمكن أن يكون له تأثير كبير في نموها لدى الأطفال، ونحن نعرف الآن الكثير عن الإجراءات التي ستساعد الأطفال على تنمية تلك المهارات ونقاط القوة، وذلك منذ مولدهم إلى أن يتخرجوا في الكليات. ويعتبر الآباء بمنزلة وسيلة ممتازة لتنفيذ هذه التدخلات، ولكنهم ليسوا هم الوسيلة الوحيدة، فالمساعدة الفعالة عادة ما تأتي أيضًا من قبل المختصين الاجتماعيين والمعلمين

ورجال الدين وأطباء الأطفال والجيران. ويمكن مناقشة ما إن كان من المفترض أن تقدم هذه التدخلات من قبل الحكومة أو المنظمات غير الربحية أو المؤسسات الدينية، أو أنها جميعًا يمكن أن تشارك في هذا. ولكن قول إنه ليس في مقدورنا ما نفعله أمر لا يمكن أن يطرح للنقاش بعد الآن.

إن من يؤيدون أية طريقة جديدة في التفكير بشأن الأطفال وحالة العوز يبنون فكرتهم على النواحي الاقتصادية، فنحن باعتبارنا دولة ينبغي لنا أن نغير الطريقة التي نتعامل بها مع تنشئة الطفل؛ لأن هذا من شأنه أن يوفر أموال الدولة، ويحسن من اقتصادها. وقد قدم "جاك شونكوف" - مدير مركز تنشئة الطفل في جامعة هارفارد - حجة مقنعة عن برامج الدعم الفعالة التي تقدّم إلى آباء الأطفال الفقراء 23 بينما لا يزال أطفالهم صغارًا، وأن هذه البرامج قد تكون أقل تكلفة وأكثر فاعلية مقارنة بالأسلوب الحالي الذي يتمثل في تأجيل دفع مصاريف التعليم التعويضي (الدروس الإضافية التي تحسّن المستوى التعليمي) والتدريب على العمل. وقد قام "جيمس هيكرمان" بعملية حسابية إضافية توصل فيها إلى أن حضانة بيرى بريسكول تحقق للاقتصاد الأمريكي أرباحًا تتراوح بين سبعة واثني عشر دولارًا عن كل دولار يتم استثماره فيها²⁴.

ولكن على الرغم مما قد تبدو عليه هذه الرؤية الاقتصادية من قوة، تتمتع الحجة الأكثر إقناعًا لي ببعد شخصي تمامًا، فعندما أقضي بعض الوقت مع الأطفال الذين يعيشون في محن لا يسعني أن أشعر إلا بشيئين، أولهما الشعور بالحزن على ما فاتهم، فعندما تتحدث "كيواونا" عن شعورها عندما تم إدخالها فصل العمل الإبداعي من أجل النجاح في التخرج في مدرسة مينيسوتا الإعدادية، وعند مشاهدتها الأفلام وتناول الفيشار، بينما كان بقية الطلاب يتعلمون الرياضيات والاستعارات في اللغة، فإنني أشعر بما شعرت به "إليزابيث شبيجل" عندما رأت ضعف التحصيل الذي حصل عليه "جيمس بلاك" في جميع الأمور الخارجة عن إطار لعبة الشطرنج: إنني أشعر بالغضب نيابة عن "كيواونا"، فهي مضطرة الآن إلى مضاعفة مجهودها، نتيجة تفويتها الكثير من المعارف التي كان عليها أن تحصلها.

وحفظًا لحقها؛ فإنني أقول إنها تبذل الآن جهدًا مضاعفًا. وهذا يقودني إلى رد الفعل الثاني الذي تكوّن لديّ: وهو الشعور بالإعجاب والأمل عند رؤية هؤلاء الأطفال وهم يقدمون على اختيار صعب ومؤلم في أغلب الأحيان من أجل اتباع مسار أفضل، ومن أجل الابتعاد عن المصير الذي بدا كأنه مصير محتوم ولا مفر منه. إن "جيمس" و"كيثا" و"كيواونا" هم شباب في سن المراهقة أخذوا على أنفسهم أن يعملوا بجد أكبر من ذي قبل، فهم يعيدون بناء أنفسهم وتحسين حياتهم، وهم يخطون في كل يوم خطوة لتحقيق نجاح أكبر في حياتهم، ولكن دورنا نحن المجتمع ليس الاقتصار على تشجيع جهودهم، وأن نتمنى أن يتبع خطاهم مزيد من الشباب. فهم لم يضعوا أقدامهم على سلم النجاح بمفردهم؛ بل لأن هناك من ساعدهم على أن يخطوا خطواتهم الأولى.

شكر وتقدير

يعد الامتنان إحدى نقاط قوة الشخصية السبع التي يحاول المعلمون تنميتها في طلابهم في أكاديمية برنامج المعرفة قوة، وفي مدرسة ريفرديل، وأنا مسرور لأنني أتيحت لي الفرصة لكي أظهر هذه الصفة في الفقرات القليلة التالية: وهي ليست كافية لتقديم الشكر لجميع من ساعدوني في هذا الكتاب، ولكنها تكفي على الأقل للإشارة إلى بعضهم.

وخلال تألّفي هذا الكتاب، استفدت مما قدمه إليّ كثير من العلماء والباحثين من عطاء وحكمة، وأود هنا أن أعبر عن خالص امتناني لـ جيمس هيكرمان وكلاسي بليز ونادين بورك هاريس، وأنجيلا داكورث، فهم لم يشاركوني فقط ما لديهم من معرفة عميقة في مجالاتهم، بل ساعدوني على رؤية الروابط التي كانت تتجاوز حدود العلم والتحصيل الأكاديمي التقليدي: وهي الروابط التي تربط بين علم نفس التنشئة واقتصادات العمل، التي تربط بين علم الجريمة وطب الأطفال، وكذلك الروابط التي تربط بين هرمونات التوتر وإصلاح المدارس.

وأوجه شكري أيضًا إلى المربين الذين سمحوا لي بأن أراهم في أثناء قيامهم بعملهم، وأبدوا اهتمامًا كبيرًا بتفسير الأسباب التي تجعلهم يعملون بطريقة دون أخرى، وأخص بالذكر إليزابيث شبيجل، وجيف نيلسون، وديفيد ليفين، وإليزابيث دوزير، ودومينيك راندولف، وتوم برونزيل، وكيه. سي. كوهين، وميشيل ستيفل، ولانيتا ريد. وربما كان ستيف جيتس لا يعد نفسه مربيًا، لكنني أضمه إلى هذه الفئة، فقد قام دون شك بتعليمي وتربيّتي، وقد أسهم بإرشاده وعطائه في إثراء الوقت الذي أمضيته في مدرسة روزلاند.

وأوجه امتناني الشديد إلى عشرات الشباب من شيكاغو، ونيويورك، وسان فرانسيسكو، الذين سردوا لي قصصهم، وأجابوا على أسئلتي عن حياتهم بصدق ووعي وأمانة، وأخص بالذكر كيثا جونز، ومونيشا سوليفان، وتوماس جاستون، وجيمس بلاك، وكيواونا ليرما.

وأوجه شكري إلى جميع العاملين في دار هاوتون ميفلين هاركورت للنشر، الذين نقلوا هذا الكتاب إلى عالم الواقع، وأخص بالذكر محررتي ديان أورمي التي تظهر إسهاماتها جلية في كل صفحة من صفحات الكتاب، وأود أن أعبر عن امتناني لـ ديفيد مكورميك، مدير أعمالي، لإيمانه القوي بهذا المشروع، وإلى علياء حنّا حبيب المتحدثة بالنيابة عني لما قدمته إليّ من دعم وتشجيع ونصح، كما أوجه شكري إلى إيمي ليس، وذلك لمساعدتها لي خلال الأبحاث، فقد أمدتني بمزيد من الفهم لما تعنيه تنشئة الطفل في حالات العوز الشديد، وأتوجه بالشكر إلى تشارلز ويليام ويلسون الذي أبدى جرأة ودقة شديتين في تنقيحه مخطوطة الكتاب. كما أود أن أعبر عن امتناني لـ كاثرين برادلي وزملائها في مؤسسة سيتي بريدج لمساعدتها ودعمها لي في المراحل الأولى من إعداد مادة هذا الكتاب.

كما أنني مدين بالعرفان والشكر لأصدقائي وزملائي الذين قرأوا مسودة الكتاب، وقرأوا بعض أجزائه، وقدموا إليّ النصيحة، ومن هؤلاء: مات باي، وجيمس فورمان جونيور، بالإضافة إلى فيرا تيتونك، ودانييل زالوسكي - المحررين الرائعين - الذين ساعدوني على تحويل جزء من مادة الكتاب إلى مقالات نشرت في مجلة نيويورك تايمز، ومجلة نيويورك ركر. وهنا لا بد من ذكر محررين آخرين: جويل لوفيل: الذي كان أول من أتصل به عندما تواجهني مشكلة في إتمام أحد الفصول، وكنت دائماً ما أجد عنده الحل، وأيرا جلاس الذي وجهني بعد أن أتممت المسودة الأولى في الكتاب من خلال المراجعة النقدية، فقد قرأ أكثر من مسودة للكتاب وأمدني بالنصيحة، وكثيراً ما شعرت بأنني سعيد الحظ نظراً إلى ما استفدته منه.

وأتوجه بخالص الشكر إلى الأسرة والأصدقاء الذين قدموا إليّ الدعم والمشورة والتشجيع، ومنهم سوزان توج، وآن توج، وآلين توج، وجاك هيت، ومايكل بولان، وإيثان واترز، وآن كلارك، ومات كلام، وكيرا بولاك، وجيمس ريرسون، وإيلانا جيمس، وإيلينا سيلفرمان.

وأخص بالشكر باولا، وإلينجتون، وجورجي، لما قدموه من مساعدة ودعم وحب، وفي قسم الشكر والعرفان الذي كتبته في كتابي السابق كنت قد وعدت باولا بأن يكون هذا

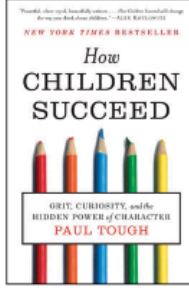
الكتاب أكثر سهولة، ولكن هذا لم يحدث، ولكنها تحمّلت بصبر وإصرار شديدين وبشيء من روح الدعابة. ومن انغماسي في قراءة الأبحاث في أثناء تأليف هذا الكتاب، تعلمت الكثير عن أهمية الحب في الأسرة، وتأثيره الفعال، ولكن هذه المعرفة لا تقارن بما أتعلمه كل يوم من باولا.

ملحوظات عن المصادر

الغلاف الخلفي

التعليم

«دعك من البطاقات التعليمية، فالمثابرة وحب الاستطلاع أكثر أهمية من المهارات المعرفية. إنها دعوة مُقنعة للاستفاقة». – مجلة بيبول



لماذا ينجح بعض الأطفال بينما يفشل آخرون؟ إن القصة التي عادة ما نرويها عن الطفولة والنجاح هي قصة الذكاء: وهي أن النجاح يكون حليف من يحصلون على أعلى الدرجات في الاختبارات من القبول في مرحلة ما قبل المدرسة وحتى اختبار الكفاءة الدراسية، ولكن في هذا الكتاب، يرى «بول توج» أن السمات الأكثر أهمية هي تلك المتعلقة بالشخصية: مثل المثابرة، وحب الاستطلاع، والتفاؤل، والتحكم في النفس.

يقدم هذا الكتاب جيلاً جديداً من الباحثين والمعلمين الذين يستخدمون لأول مرة الأدوات العلمية في الكشف عن أسرار الشخصية، فمن خلال قصصهم – وقصص الأطفال الذين حاولوا أن يساعدوهم – يكشف «توج» عن مدى قدرة هذه المعرفة الجديدة على تغيير حياة النشء، فهو يكشف عن الطرق المذهلة التي يستخدمها الآباء – والتي لا يستخدمونها – لإعداد أطفالهم لمرحلة البلوغ، كما يقدم لنا رؤى جديدة حول كيفية تحسين حياة الأطفال الذين ينشأون في البيئات الفقيرة. إن هذا الكتاب المثير – الذي ينطوي على قدر كبير من الأمل – لن يلهم القراء ويحمسهم فقط، بل سيغير مفهوم الطفولة ذاتها لدينا أيضاً.

«يسلط هذا الكتاب الضوء على نقيضي في الطفولة الأمريكية: الحماية المفرطة للأطفال الأغنياء التي تصل إلى حد التقييد، وانعدام هذه الحماية عند الأطفال الفقراء؛ ما يجعلهم في مواجهة مباشرة مع المخاطر». – صحيفة نيويورك تايمز

«لقد تعلمت الكثير من قراءة هذا الكتاب وقد غمرني بالأمل حول مدى قدرتنا على جعل الحياة أفضل لأطفالنا بجميع نوعياتهم». – مجلة سلايت

بول توج هو مؤلف كتاب *Whatever It Takes: Geoffrey Canada's Quest to Change Harlem and America*، وكتب لمجلة النيويورك ريفيو من المقالات عن التعليم، وتطوير الأطفال، والفقر، كما أنه غطى العديد من الأخبار في صحيفة نيويورك تايمز بوصفه كاتباً مساهماً. ولقد ظهرت موهبته الصحفية في مجلات سلايت، وجيه كيو، وإسكواير، وفي البرنامج الإذاعي *ني أمريكان لايف*. وللمزيد من المعلومات يمكنك زيارة الموقع الإلكتروني التالي: www.paultough.com أو متابعته على موقع تويتر من خلال الحساب التالي: [@paulTough](https://twitter.com/paulTough).



لشراء النسخة
الإلكترونية

قارئ جريير
JARIR READER

مكتبة جريير
JARIR BOOKSTORE
...not just a Bookstore... ليست مجرد مكتبة...



HOUGHTON
MIFFLIN
HARCOURT

الفهرس

1. [الغلاف](#)
2. [الغلاف الأمامي](#)
3. [حقوق الطبع والنشر](#)
4. [كتب أخرى للمؤلف](#)
5. [إهداء](#)
6. [مقدمة](#)
7. [1. طريق الفشل \(وكيف تتجنبه\)](#)
8. [2. بناء الشخصية](#)
9. [3. كيف تفكر؟](#)
10. [4. كيفية تحقيق النجاح](#)
11. [5. نحو مسار أفضل](#)
12. [شكر وتقدير](#)
13. [ملحوظات عن المصادر](#)
14. [الغلاف الخلفي](#)